

٩

جامعة أم القري
مكة المكرمة
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
قسم الدراسات العليا
فرع الكتاب والسنة



في الكتاب والسنة

بحث مقدم لنيل درجة الماجستير
في الشريعة الإسلامية - كتاب وسنة

٢٩١٢

٩ - ٧



إعداد الطالبة
لؤلؤة بن عبد الرحمن الجفري

إشراف

فضيلة الدكتور محمد بن عبد الوهاب آل عيسى

عام

١٤٣ - ١٤٠٤ هـ





وَقَدْ
بَلَغَ رُفِي عَامِ

سِرِّ وَفُتْرٍ

شكر وتقدير

يسرني أن أتقدم بالشكر الجزيل لأستاذي المشرف فضيلة
الدكتور محمد أبو النور الحديدي عرفنا منا لما قام به من جهـود
مشكورة فسي تذليل الصعاب بتوجيهي وإرشادي فكان نعم الأب
والمعلم جزاه الله عني خيرا فقد منحني الكثير من وقته وجهـوده
بتوجيهاته القيمة التي أنارت لي الطرق .
كما يسعدني أن أتقدم بالشكر لأعضاء اللجنة الموقرة على ما بذلوه
من جهد لتقويم هذا البحث .

كما أشكر جامعة أم القرى وكلية الشريعة والدراسات الإسلامية
والقائمين عليها ، وكل من أعانني وأرشدني للحق فجزاهم الله عني
جميعا خيرا جزاء .

وأسأل الله جل جلاله أن يجعل علي هذا غالـصا لوجهه
تعالى وأن يلهمني فيه الصواب ويرشدني فيه إلى الحق ، ويجنبني
الزلل فمنه أطلب العون والإرشاد واليه التجيء فانه نعم المولى
ونعم النصير .

وأخـر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا
وشفيـعنا محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه أجمعين .



الْعَصْرَة

بِسْمِ اللَّهِ

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على خاتم المرسلين
سيدنا محمد ، ورضي الله عن آله وصحبه أجمعين ، وعلى من اعتدى
بهدية إلى يوم الدين .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده
ورسوله البصوت رحمة للعالمين .

وأشهد أن عيسى ابن مريم عبده ورسوله البصوت رحمة إلى
بني إسرائيل ليكمل لهم دينهم وليحل لهم بعض ما حرم عليهم ،
والصلاة والسلام على جميع الأنبياء والمرسلين من لدن آدم ونوح إلى
نبينا محمد عليهم أفضل الصلاة والتسليم .

محمد :

ان خير ما يعيشه الانسان هو كتاب الله سبحانه وتعالى
دراسة وتدبرا وتأملا ، وقد كان السلف الصالح رضي الله عنهم
يعيشون مع القرآن بل جعلوه زادهم في هذه الحياة ، وتنوع رغبتهم
في فهمه ، فمنهم من ينظر إلى الوجه البينانية ، ومنهم من ينظر إلى
الاعراب ، ومن ناظر إلى الآيات شارحا لها بما ورد في السنة وما روى
عن الصحابة الأظهر حتى كانت التركة الطيبة التي تفخر بها
مكتبة التفسير اليوم ، والتي تنوع التفاسير فيها حسب ثقافة المفسر
وميله فكان التفسير بالمأثور والتفسير بالرأى والتفسير الفلسفي ، والتفسير

الفقهى ، والتفسير الاجتماعى ، والتفسير الصوفى ، والتفسير
العلمى ... الخ .

الا أن علم التفسير الموضوعى كان أن يكون وليد هذا القرن
مع أن بذوره قد بذرت من القديم وإن لم تثبت إلا فى عصرنا هذا .

وليس ذلك لفلة السابقين عنه ، بل لأن فراستهم وقوة
درايتهم بالقرآن وسرعة بديهيتهم كانت تغنى الفرد منهم عن أن يجمع
آيات الموضوع الواحد فى كتاب ثم يعقب عليها .
والآن وقد ضعفت الهمم اتجه المسلمون الى معالجة بعض
القضايا أو الموضوعات القرآنية مستقلة عن بعضها .

وحيث أن موضوعي هذا سبق البحث فيه والكتابة عنه ، فلم
يكن شيئا معدوما اخترعه ، ولم يكن شيئا ناقصا لدرجة مخلة أتمله
لأنه قد بحث فيه الكثير من أكابر العلماء الأجلاء ، جزاهم الله خيرا
فأين بحثي منهم ، لا يعتبر شيئا بجانبهم فما هو إلا عبارة عن موضوعات
كانت متفرقة فى المصادر ، فجمعتها ورتبتها وبنيت ما كان غامضا منها .
وقد استخرت الله العلى القدير أن أكتب فى أحد
الموضوعات التى تضمنها القرآن الكريم ألا وهو عن السيدة مريم العذراء
تلك المرأة الطاهرة التى تربت فى بيت الفضيلة ، وتجلت بالصفات
الحميدة .

كما أن السيدة مريم أنش ، فأردت أن أبين لبنات جنسى
معليه السيدة مريم من الظاهر والمغاف الذى كان أن يكون دخيلا فسي

عصرنا هذا فقد أصبح التبرج والسفور والاغتلاط والتحرر من الفرائض هو من السمات السائدة التي يفتخر بها وتعد من علامات التقدم والرفق .
ولعل في ذكر قصة السيدة مريم البتول تسلية لكل من سلكت الطريق الى الله رغم الكلايب الآخذة بطرف الشباب على حافتي الطريق
نسأل الله السلامة والهداية والتوفيق الى ما يحبه الله ويرضاه ، انه
سميع مجيب .

فمن هذا المنطلق ، كان الدافع لاختياري هذا الموضوع
للأسباب الآتية :

- ١ - ان اليهود نسبوا اليها ما لا يجوز أن ينسب ، لدرجة
أن الحق سبحانه دافع عن السيدة مريم تجاه هذه الفريسة
قال تعالى : * وَيَكْفُرُهُمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا * (١)
- ٢ - ان المسيحيين اختلفوا فيها ، فمن معظم لها فوق القدر ،
لدرجة اعتقاد الألوهية فيها وفي عيسى عليه السلام .
فقد أبطل زعمهم باعلان حقيقة عيسى وأمه عليهما السلام :
* مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ
صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ * (٢) والكنية تكنى عن التفوط وهو
من صفات المخلوق وليس الخالق ، كما أن الحق سبحانه سوف
يسأل عيسى عليه السلام يوم القيامة سؤال تقريع وتوبيخ لهؤلاء
الذين زعموا فيه وفي أمه الألوهية قائلا : * وَإِذْ قَالَ اللَّهُ
يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ
دُونِ اللَّهِ قَالِ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ *

(١) سورة النساء : الآية ١٥٦ .

(٢) سورة المائدة : الآية ٧٥ .

إِنْ كُنْتَ قَلْتَهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعَلَّمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ
إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ * (١)

وإذا كان بعض المسيحيين قد عظم مريم وأعلى قدرها
لدرجة الألوهية فإن منهم من نظهر اليها على أنها كسائر
النساء لم تصطفى ، ولم تك آية في انجابهـا وذلك يكون
قد بخسها حقها أيضا ، لأن سيدة على هذا القدر من
الطهر والعفاف في وقت ما ج فيه المجتمع بالفساد لا يمكن
أن تكون كسائر النساء .

٣ - أن بعض ضعاف الايمان من المسلمين يسلم للقصة فيما يتعلق
بحملها وولادتها بحكم الفطرة دون اعمال للعقل وادراك
للاعجاز الذي تضمنه هذا الحدث مع أن الاسلام يطالب
المسلمين بالاعتناع .

٤ - وقد اهتم بعض المفسرين السابقين بنقل أشياء تعارض العقل
والشرع ، ولعل الرغبة في الايضاح كانت الباعث على ذلك ،
فرايت أن اذكر بعض ذلك ثم أعقب عليه بما يفتح الله عليّ به
شكراً الاسرائيليات التي تصادم الشرع والعقل .

٥ - كما أن في هذا الموضوع معالجة مستقلة لقصة السيدة مريم عليها
السلام ، ولعلها والله أعلم بادرة يمكن أن تسد فراغا في
المكتبة بان الله تعالى .

(١) سورة المائدة : الايتان " ١١٦ ، ١١٧ .

(٢) مجلة منبر الاسلام عدد ذي القعدة ١٣٨٢ هـ ابريل ١٩٦٣ م

- ٦ - ولقد دعا بعض الماديين الى انكار قصة حمل مريم بعيسى عليه ارسلام بغير أب ، وكتبوا ذلك علانية في صحف الغرب داعين بذلك الى الالحاد ، مما كان له أثره على نفسي حيث رأيت أن ذلك واجبا اسلاميا قبل أن يكون شهادة جامعية .
- ٧ - في هذا الموضوع كشف عن جوانب عدة من قدرة الحق المطلقة التي لا تعرف حدا ولا قيда ، كما سيتجلى في دعوة زكريا عليه السلام أن يرزق ولدا ، وفي نطق عيسى عليه السلام في المهد ... الخ .
- ٨ - ما ذهب اليه بعض المفسرين من المغالاة ، كحديثهم عن نوع الرزق ، ومدة الحمل وغير ذلك ما ذهبوا اليه من كونها نبية أو ولية .. الخ .
- ٩ - ولبيان أن من الحكم الرفيعة لقطع نسب سيدنا المسيح عليه السلام عن أصلاب رجال بني اسرائيل كما علم الله سبحانه عقم رجالهم أن يحملوا في أصلابهم نور من أولي العزم من الرسل حرمهم الله هذا الشرف وجاء وليد قدرة الله وأمره التكويني (كن) ولا غرابة في اختيار الحق سبحانه ، فقد قضت حكمته كما علمنا المصطفى عليه الصلاة والسلام في قوله الشريف : (الناس معادن كمدان الذهب والفضة) (١)

فلم يوجد من معاد نهم وفق علم الله تعالى من يرشح لشرف
أن يحمل في صلبه رسول كريم من أولي العزم من الرسل عليهم
الصلاة والسلام .

يذكرنا هذا بموقف سيدنا سليمان حينما فقد الأمل في قيادات
جيشه فقال : لأطوفن الليلة على تسعين امرأة تلك كل امرأة منهم غلاماً
يقاتل في سبيل الله (١)

وقد اشتملت هذه الرسالة على :

مقدمة ، ، ، ، ، وخاتمة .

وتحتوى المقدمة على مايلي :

سبب اختيار للموضوع ، ومنهج البحث الذى التزمته .

الباب الأول - ولادة مريم ونشأتها وفضلها :

وهو يتناول عدة فصول :

الفصل الأول - مريم من أصل طيب كريم :

تحدثت فيه عن اصطفاة الله لبعض خلقه ، ومنهم آل عمران ،
وكذا اصطفاة مريم عليها السلام من حيث النسب ، حيث أنها من أصل
طيب كريم واصطفائها للحمل بميسى بدون أب مع ما بشرت به من عظم
المكانة والمنزلة .

(١) عن ابي عريره رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

قال سليمان بن داود لأطوفن الليلة على سبعين امرأة تحمل
كأن امرأة فارسا يجاهد في سبيل الله فقال له صاحبه انشاء الله
فلم يقل ولم تحمد شيئاً الا واحد ساقطاً أحد شقيه فقال النبى
صلى الله عليه وسلم لوقالها لجاهدوا في سبيل الله (.

(صحيح البخارى ج ٤ ص ١٩٧ - كتاب بدء الخلق - باب

قوى الله تعالى " ووهبنا لداود سليمان نعم العبد انه أواب "

الفصل الثاني - ولادة مريم وتقبل الله لها نذيره بقبول حسن :

ذكرت فيه أن الزواج من سنن الله في الكون ، والتفاضل فسي الرزق بالأولاد يرجع الى التقدير الأزلي ، وأشارت الى أن قدرة الله مطلقة ، وأن ما يريد الله للعبد خير مما يريد العبد لنفسه ، وهكذا كانت ارادة الله لأم مريم عليها السلام ، وكيف أنها استعانت بالله من الشيطان أن يصيب مريم أو يمسها بسوء ، وقبول الله لها نذيره بقبول حسن .

الفصل الثالث - الاختصام في كفالة مريم وجعلها الله لزكريا :

وأشرت فيه الى أثر الأسرة في نشأة الطفل ، وكيف أن الله اختار لمريم أسرة كريمة . وبينت القراءات في قوله تعالى : * فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبأها نباتاً حسناً وكفلها زكريا * وذكرت آراء العلماء في القرعة وكيف تمت . ورأيت أن التفويض أسلم ، مع الإشارة الى أن القرعة من الأمور التي أقرها الاسلام .

الفصل الرابع - اكرام الله لمريم برزق من عنده وهي في المحراب

وأثر ذلك في طلب زكريا عليه السلام من الله تعالى
ذرية طيبة :

وأوضحت أن مريم قد نالت من ربها رزقاً حسناً ، وذكرت آراء العلماء في المراد من الرزق . وردت الآراء التي فيها مغالاة ، وبينت ان هذا الرزق

الفصل الثاني - ولادة مريم وتقبل الله لها نذيره بقبول حسن :

ذكرت فيه أن الزواج من سنن الله في الكون ، والتفاضل في الرزق بالأولاد يرجع الى التقدير الأزلي ، وأشارت الى أن قدرة الله مطلقة ، وأن ما يريد الله للعبد خير مما يريد العبد لنفسه ، وهكذا كانت ارادة الله لأم مريم عليها السلام ، وكيف أنها استعاضت بالله من الشيطان أن يصيب مريم أو يعسها بسوء ، وقبول الله لها نذيره بقبول حسن .

الفصل الثالث - الاختصاص في كفالة مريم وجعلها الله لزكريا :

وأشرت فيه الى أثر الأسرة في نشأة الطفل ، وكيف أن الله اختار لمريم أسرة كريمة . وبينت القراءات في قوله تعالى : * فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتا حسنا وكفلها زكريا * وذكرت آراء العلماء في القرعة وكيف تمت . ورأيت أن التفويض أسلم ، مع الإشارة الى أن القرعة من الأمور التي أقرها الاسلام .

الفصل الرابع - اكرام الله لمريم برزق من عنده وهي في المحراب

وأثر ذلك في طلب زكريا عليه السلام من الله تعالى
ذرية طيبة :

وأوضحت أن مريم قد نالت من ربها رزقا حسنا ، وذكرت آراء العلماء في المراد من الرزق . وردت الآراء التي فيها مفالة ، وبينت ان هذا الرزق

كان كرامة لمريم ، وردت على المعتزلة القائلين ببطان كرامات الأولياء
خشية اللبس مع المعجزة ، وبينت الفرق بين الكرامة والمعجزة ، وأشارت
الى كرامات ذكرها القرآن ، وكذا كتب السيرة فيما يتعلق ببعض الصالحين
واستشهدت برأى كثير من علماء العقيدة . وذكرت الدليل على بطلان
كون هذا الرزق معجزة لذكرا مع تعجبه منه حين الرؤيا وطلبه الاجابة
عن مصدره ودعواه به أن يرزقه ذرية طيبة .

الفصل الخامس - فضل مريم من واقع الآيات والأحاديث :

ذكرت فيه فضل الله على مريم كما أشار الى ذلك القرآن على

النحو التالي :

- ١ - أنها من نسل طيب كريم .
- ٢ - أن الله تقبلها نذيره .
- ٣ - اختار لها بيتا ذا تقوى لتتربى فيه .
- ٤ - بشرتها الملائكة باصطفائها .
- ٥ - طهارتها .
- ٦ - اصطفائها على نساء العالمين ، وبينت المراد من نساء العالمين
هل المراد به العمم أو الخصوص .
- ٧ - أمرت بالقنوت والركوع والسجود .
- ٨ - وصفها بالعفة صراحة .
- ٩ - وصفها بكونها (صديقة) .

١٠ - رعاية الله لها في انتقالها .

أما السنة فقد أشارت الى :

حفظها ووليدها من الشيطان والى أفضليتها مع بعض من النساء غيرها على نساء العالمين .

ثم ذكرت الأحاديث التي تشير الى زواج الرسول صلى الله عليه وسلم من السيدة مريم في الجنة وبينت درجتها من الصحة وعدمها ، ورأيت التفويض .

الفصل السادس - القول بنهية مريم ومناقشته :

بينت فيه أن النبوة والرسالة اصطفاة ، وأنه لانبوة في جنس النساء كما ذهب الى ذلك الجمهور ، بشرط أن يراد بالنبوة المعنى الشرعي لا اللغوي ، وقد خالف الجمهور في ذلك الامام ابن حزم في كتابه الفصل في الملل والنحل ، والقرطبي في كتابه : الجامع لأحكام القرآن ، وذكرت رأي كل منهما ودليله ، ثم ذكرت الصلة بين النبي والرسول . وذهبت الى القول بعدم الفرق بينهما من حيث الاصطلاح والفرق انما هو في اللغة ، وأشارت الى القول ببطلان نبوة مريم وآراء الذين ذهبوا الى هذا ، وقد أيدت هذا الرأي وردت على ابن حزم بما ذهب اليه وكذلك القرطبي ، وأشارت الى أن النبوة وكذا الرسالة كانتا بين الرجال فقط ، وانتهيت الى القول : بأن مريم عليها السلام لاتعد وأن تكون صديقة من الصديقين .

الباب الثاني - مريم وابنها آية للعالمين :

وفيه فصول :

الفصل الأول - مريم تبشرها الملائكة بهيى عليه السلام :

وتوضح لها صفات المبشر به :

ونذكر آراء العلماء في البشارة ، وهل هي واحدة أم تكررت
ونذكر آراء العلماء في خلوتها ورجعت مابدا الي ، وأشارت الى الحكمة
في تمثل جبريل عليه السلام لها بشرا سويا ، والمراد من كونه سويا ، والخطأ
الذى وقع فيه كثير من المفسرين على أثر هذا الوصف وردت عليهم ،
وهيئت المراد من كلمة (تقيا) والقراءات في قول الله تعالى :
* لأهب لك * والمعنى المترتب على كل قراءة ، ثم ذكرت صفات
المبشر به كعلم علمته مريم من قبل الخالق ، كما ذكرت لها الملائكة ذلك
وأشرت الى الخطأ الذى وقع فيه النصارى حين استشهادوا بتقديم المسيح
أخذا من قول الله * بكلمة منه * وكذلك التبعيض وردت عليهم .

الفصل الثاني - النفخ في مريم من روح الله وحملها بهيى

عليه السلام :

ذكرت آراء العلماء في كيفية الحمل ، وكيف ان بعضهم قد خالف
الشرع والعقل ، وردت على من جرح منهم ، ثم ذكرت آراء العلماء في
معدة الحمل وردت على بعضها ، ورجحت ان الحمل كان طبيعيا وأن
التعقيب في كل شئ بحسبه ، وأشارت الى خطأ وقع فيه كثير من المفسرين

وهو أن يحيى كان يسجد لميسى وهو في بطن أمه ، وذكرت مصدر هذه القصة وذكرت مفاجأة المخاض لها وأثرها على نفسها ، وكيف أن الله أذهب عنها كل حزن ، وذلك بسماعها كلاما من تحتها ، وأشارت الى القراءتين الواردتين في قوله تعالى : * من تحتها * والمعنى المسترتب على كل قراءة .

الفصل الثالث : اتهام مريم بالناحشه ونطق عيسى ببراءتها

وذكرت فيه موقف قومها منها بعد العودة ، والشبه الواردة على قوله تعالى : * يا أخت هارون * والرد عليها ، وكيف أن عيسى عليه السلام نطق في المهد بما يدل على براءة أمه ، وذكرت وجه الجمال في هذا النطق ، وقد أنكر النصارى ذلك ، وذكرت شبههم والرد عليها ، وهل كان النطق ملازما له بعد هذه المرة أم انتهى حتى نطق طبيعيا بعد .

الفصل الرابع - هجرة مريم عليها السلام ووفاتها

وذكرت أن القرآن كتاب هداية واعجاز ، وهو يشير الى بعض الحقائق العلمية دون جمعها ، وكذا الى الأحداث التاريخية التي تضمنت عبره ، وقد أشار القرآن الى أن مريم عليها السلام قد انتقلت دون تحديد لمكان الانتقال وقد ذهب بعض المفسرين الى أن مريم عليها السلام قد أتت الى مصر .
إما كتب التاريخ فقد أشارت الى ذلك هيئت بعض الكتب الرحلة مفصلة والآثار الباقية التي تدل على ذلك .

وقد جنح بعضهم الى المبالاة حين تحدث من هجرة السيدة
مريم مع ابنها عيسى الى مصر فذكرت رأيه ورددت عليه .

والنسبة لوفاة السيدة مريم رأيت أن بعض الكتب قد تناولت
ذلك الا أن القطع به من المسير ولا يمكن تحديد زمان ومكان الوفاة
ورأيت أن التفويض فيه أسلم والبحث لاقية له لأنه لو كان فيه فائدة ،
لذكرها القرآن الكريم .

أما الخاتمة فقد ضمنتها تلخيصا للنتائج التي توصلت اليها
من خلال البحث.

ويعلم الله مقدار الجهد الذي بذلته ، والعناء الذي
لاقته في اتمام بحثي ، ومع هذا فلا أجد نفسي الا مقصرة ، فان الكمال
لله وحده ، وما نحن الا بشر خاطؤون .

فان كنت قد وفقت فيه فمن الله ، وان كنت قد اخطأت فمني
ومن الشيطان ، وما لهذا أردت والشرع منه براء .

وأحمده وأشكره جل جلاله على نعمه الكثيرة التي لا تعد ولا تحصى
والتي منها أن أعانني على اتمام بحثي هذا ، فله الحمد والمنة وأنه لا حول
ولا قوة الا بالله العلي العظيم عليه توكلت واليه أنيب .

الآيات التي تتحدث عن مريم عليها السلام

قال تعالى :

* إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ * ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَئِنَّ الذَّكَرَ كَأَلْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ * فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنْ اللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ * (١)

وقال تعالى :

* وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ * يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ * ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَضِعُونَ * إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ * وَيَكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ * قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنِّهَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * (٢)

(١) سورة آل عمران : الآيات " ٣٣ - ٣٧ "

(٢) سورة آل عمران : الآيات " ٤٢ - ٤٧ "

وقال تعالى :

* مَكْفَرَهُمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا * (١)

وقال تعالى :

* وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا
وَصَدَقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُنْهَ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ * (٢)

وقال تعالى :

* وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ اتَّخَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْفِيًّا *
فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا *
قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا * قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ
لَأَهَبَ لَكَ غُلَامًا زَكِيًّا * قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ
وَلَمْ أَكُ بِغَفِيًّا * قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ عِزِّي هَئِنِّي وَلَجَعْلُهُ آيَةً لِلنَّاسِ
وَرَحْمَةً تَنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا * فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا *
فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَالَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ
نَسِيًّا نَسِيًّا * فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا *
وَهَزَىٰ إِلَيْكِ جِذْعَ النَّخْلَةِ تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا * فَكُلِي وَاشْرَبِي
وَقَرِّي عَيْنًا فَمَا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا
فَلَنْ أَكَلِمَ الْيَوْمَ أَنسِيًّا * فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا
فَرِيًّا * يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا * (٣)

(١) سورة النساء : الآية " ١٥٦ "

(٢) سورة التحريم : الآية " ١٢ "

(٣) سورة مريم : الآيات : " ١٦ - ٢٨ "

فأشارت اليه قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبياً * قال اني
عبد الله أتاني الكتاب وجعلني نبياً وجعلني مباركاً أين ما كنت
وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً * وهاً بيّالدي ولم يجعلني
جباراً شقياً *

وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا * ذَلِكَ عِيسَى
ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ * مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ
مِنْ سُلَاحٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * (١)

وقال تعالى :

* وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ

قَرَارٍ وَتَعِينِ * (٢)

(١) سورة مريم : الآيات * ٢٩ - ٣٥ .

(٢) سورة المؤمنون : الآية * ٥٠ .

الْبَابُ الْاَوَّلُ

ولادة مريم ولشأنها وفضلها

وفيه الفصول الثلاثة

الفصل الأول : مريم من أصل طيب كريم .

الفصل الثاني : ولادة مريم وتقبل الله لها نذيره بقبول حسن .

الفصل الثالث : الاختصاص في كفالة مريم وجعلها الله لذكرياً عليه السلام .

الفصل الرابع : إكرام الله لمريم برزق من عنده وهي في المحراب وأثر ذلك في طلب ذكرى عليه السلام من الله ذرية طيبة .

الفصل الخامس : فضل مريم من واقع الآيات والأحاديث .

الفصل السادس : القول بنبوة مريم ومناقشته .

الفصل الأول

مریم من اصل طیب

کریم

الفصل الأول

=====

مريم من أصل طيب كريم

يومن المسلمون ومعهم كل عاقل بأن الكون مخلوق له خالق ،
وقد هدى الله المسلمين الى الايمان بالاله الخالق ، وقرر القرآن أن
الكون كله ملك له ، وأن ماظهر وماباطن فانما هو من خلقه وابداعه ،
قال تعالى : * هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ
دُونِهِ * (١)

ومن صفات الاله الخالق ، الاختيار المطلق ، قال تعالى
* لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ * (٢)
وقد شئت ارادته سبحانه ان يفضل بعض ماخلق على بعض ،
لحكمة أرادها فلا يعلم مراد الله الا الله ، وأظهر لنا بعض الذي فضله
ليكون محل تقدير واحترام دون مغالاة أو اسراف ، وقد أشار العلماء الى
بعض الأمور المفضلة مسترشدين بالقرآن أو سنة الرسول صلى الله عليه وسلم
ففضل بعض الرسل على بعض ، قال تعالى : * تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا
بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَوَقَعَ بَعْضُهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى
ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ * (٣)

(١) سورة لقمان ، الآية " ١٠ " .

(٢) سورة الأنبياء ، الآية " ٢٢ " .

(٣) سورة البقرة ، الآية " ٢٥٣ " .

وفضل بعض الأماكن على بعض ، قال تعالى : * لَا أُقْسِمُ
بِهَذَا الْبَلَدِ ، وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ * (١)

مشيرا الى مكة المكرمة ، وقال تعالى : * وَالَّتَيْنِ وَالزَّيْتُونِ
وَطُورِ سِنِينَ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ * (٢)

وخص من مكة البيت الحرام بالذكر ، قال تعالى : * إِنَّ أَوَّلَ
بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ * (٣)
وأضافه الى نفسه * فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ
مِّنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِّنْ خَوْفٍ * (٤)

ومين الرسول صلى الله عليه وسلم أن الصلاة فيه بعائة ألف صلاة
فيما سواه ، فقال عليه الصلاة والسلام : (الصلاة في المسجد الحرام
بعائة ألف صلاة والصلاة في مسجدي بألف صلاة والصلاة في بيت
القدس بخسمائة صلاة) (٥)

وفضل الله بعض الأزمنة على بعض ، قال تعالى : * وَمَا أَزْكَ
مَالِئَةَ الْقَدَرِ ، لَيْلَةُ الْقَدَرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ، تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ
فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِّنْ كُلِّ أَمْرٍ سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ * (٦)

-
- (١) سورة البلد ، الايتان " ١٠ ، ٢ " .
(٢) سورة التين ، الايات " ١ ، ٢ ، ٣ " .
(٣) سورة آل عمران ، الآية " ٩٦ " .
(٤) سورة قريش ، الايتان " ٣ ، ٤ " .
(٥) كنز العمال : ج ١٢ ص ١٩٥ .
(٦) سورة القدر ، الايات " ٢ - ٥ " .

حين الرسول صلى الله عليه وسلم أن في الجمعة ساعة لا يوافقها عبد
مستغفر الا غفر له ، " عن أبي هريرة رضي الله عنه قال ، قال
أبو القاسم صلى الله عليه وسلم : في الجمعة ساعة لا يوافقها مسلم وهو
قائم يصلي يسأل الله خيرا الا أعطاه ، وقال بيده ، قلنا : يقللها ،
يزهدها " (١)

وهذا الاصطفاة يخضع لارادة الحق سبحانه سواء تعلق بالزمان
أو المكان أو الأشخاص.

وكان من المصطفين الأخيار من وصفهم الله في كتابه قائلا :
* إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ،
ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * (٢)

والاصطفاة هو الاختيار والاجتباء .

واستصفى الشيء واصطفاة : اختاره .

والاصطفاة : الاختيار افتعال من الصفوة .

والصفى : الخالص من كل شيء (٣)

" ولتضمنه معنى التفضيل عدى بعمله ، فمعنى اصطفاهم ،
أى : جعلهم صفوة خلقه " .

-
- (١) صحيح البخارى ، المجلد الثالث ، ج ٨ / ص ١٠٦ ،
كتاب الدعوات ، باب الدعاء في الساعة التي في يوم الجمعة .
(٢) سورة آل عمران ، الآيتان " ٣٣ ، ٣٤ " .
(٣) لسان العرب ، مادة (صفو) ، ج ٤ / ص ٤٦٣ .

وقيل : اصطفى هؤلاء ، أى اختارهم بالنبوة على عالم زمانهم ، فيكون اخبارا بأنه اختار دين من ذكروا على سائر الأديان التي خالفت ، فيكون في الآية قولان :

الأول : يكون المعنى أن الله اصطفى دين آدم ودين نوح فيكون على تقدير حذف المضاف وعلى ذلك يكون معنى الآية : ان الله اصطفى هؤلاء بالاسلام وأنتم بامعشر اليهود على غير الاسلام .

الثاني : أن يكون المعنى أن الله اصطفاهم ، أى صفاهم من الصفات الذميمة وزينهم بالخصال الحميدة ، وقد رجح الفخر الرازى المعنى الثاني وقال : وهذا هو الراجح لأنه لا يحتاج الى الاضرار ولأنه موافق لقوله تعالى :
* اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ * (١)

والأصل في الكلام هو الحقيقة (٢) .

ولست مع الامام الرازى في ترجيح أن الاصطفاء هنا هو التصفية من الصفات الذميمة ، فكثير من خلق الله قد رزقوا مثل هذا ، سواء كانوا في زمن السابقين ، أو في زمننا هذا ، فلا يكون الاصطفاء الدلالة المرادة التي تضمنتها الكلمة . وانما يمكن القول بأن الاصطفاء هنا هو

(١) سورة الأنعام ، الآية " ١٢٤ " .

(٢) مفاتيح الغيب للفخر الرازى : ج ٨ / ص ٢١ .

اختيار هؤلاء لحمل الرسالة وتبليغها الى الناس وهذا هو الأمر الذى لا يمكن الوصول اليه الا بالاصطفاء ، وهو جزء من معنى قول الله تعالى :
 * اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ * (١)

وقال تعالى : * وَانْذِرْ عِبَادَنَا ابْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدَى وَالْأَبْصَارِ ، إِنَّا اخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ، وَإِنَّهُمْ مِنْدَنَا لَمَنِ الْمُصْطَفِينَ الْآخِيَارِ * (٢)

أما كون الاصطفاء ، اصطفاء أديان .

فان أريد بكلمة أديان شرائع ، فهذا جائز ، وان أريد بها عقائد فغير جائز التعبير ، لأن العقيدة واحدة بالنص ، قال تعالى :
 * وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ * (٣)

أما الشرائع بمعنى المنهج العظمى الذى يصلح أمة دون أمة

او يتضمن تقييدا على أمة وتيسيرا على أخرى ففيها تفاوت .

قال تعالى : * لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ... * (٤)

وفي الحديث الشريف من أبى هريرة رضى الله عنه قال :

" قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم

في الدنيا والآخرة ، والأنبياء اخوة لعلات أمهاتهم شتى ودينهم واحد" (٥)

(١) سورة الحج ، الآية " ٧٥ " .

(٢) سورة ص ، الآيات " ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ " .

(٣) سورة البينة ، الآية " ٥ " .

(٤) سورة المائدة ، الآية " ٤٨ " .

(٥) فتح البارى شرح صحيح البخارى ، ج ٦ / ص ٤٧٨ كتاب أحاديث

الأنبياء / باب ١٦ مريم قول الله * وانذر في الكتاب مريم ان

انتبهت من أهلها * .

ومع ترجيح أن الاصطفاة إنما هو اصطفاة الرسالة فإن هناك
مكرمات نالها هو لا عليهم السلام بجوار الرسالة وقيل قبلها :

١ - بالنسبة لآدم عليه السلام : أكرمه الله بخلقه بيده ، قال تعالى
معاتباً إبليس : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإَيْدِي ﴾ (١)
ونفخ فيه من روحه : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوْحِي ﴾
فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿ (٢) وعلمه وأظهر فضله على الملائكة
﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٣) ولما اعتذروا عن الإجابة
أمر آدم قائلاً : ﴿ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ الْغَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ
تَكْتُمُونَ ﴾ (٤) والهمه التوبة ﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ (٥)

ب - بالنسبة لنوح عليه السلام جعله مبارك العمر ، والعصر إذا
طال مع الطاعة فهو أعظم نعمة ﴿ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ
عَامًا ﴾ (٦) .

-
- (١) سورة ص ، الآية " ٧٥ " .
(٢) سورة ص ، الآية " ٧٢ " .
(٣) سورة البقرة ، الآية " ٣١ " .
(٤) سورة البقرة ، الآية " ٣٣ " .
(٥) سورة البقرة ، الآية " ٣٧ " .
(٦) سورة المنكوت ، الآية " ١٤ " .

كما أن الله الهمة أداة النجاة في وقت عز فيه ذلك
 * فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَّوْحَيْنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا
 وَفَارَ التَّنَوُّدُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ شَئْنٍ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن
 سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ
 مُفْرَقُونَ ، فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكَ فَقُلِ
 الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * (١)

كما أن الله قد استجاب دعوته وأهلك الكافرين * مِمَّا
 خَطَبَيْنَاهُمْ لَعْنُوهمْ فَاذْخُلُوا نَارًا * (٢)

جـ - والنسبة لآل إبراهيم . فإن الله أكرمهم بجعله النبوة فيهم
 قال تعالى : * وَادْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَئِى
 الْأَيْدِى وَالْأَبْصَارِ ، إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ،
 وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ، وَادْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ
 وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ * (٣)

وقال تعالى : * إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ
 وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ
 وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ
 زَبُورًا * (٤)

-
- (١) سورة المؤمنون ، الآيتان " ٢٧ ، ٢٨ " .
 (٢) سورت نوح ، الآية " ٢٥ " .
 (٣) سورة ص ، الآيات " ٤٥ - ٤٨ " .
 (٤) سورة النساء ، الآية " ١٦٣ " .

وإذا كانت النبوة اصطفاً كما ذكرت فإن مكرمات حصلت
بجوار النبوة ، وذلك أن النبي إذا علم أن من ولده من يكون
نبيا فهذا ما يشرح الصدر ، ويسر الفؤاد .

وقد رأينا الرسول الكريم يتنى على النسب الطاهر من
ولد ابراهيم قائلا : (ان الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن
الكريم يوسف بن يعقوب بن اسحق بن ابراهيم خليل الله) (١)

د - بالنسبة لآل عمران :

ومع أن الآية الكريمة قد تضمنت اصطفاً آل عمران ضمن
اصطفائه لآل ابراهيم فانه خصهم بالذكر ، اما لمزيد فضل ،
أولبيان ما سيكون من أمر آل عمران من وجود ولد من نسلهم
بغير أب ، سوف يرى الأئمة والأبرص ويحيى الموصي
بإذن الله ، وقد أورد القرطبي معاني عدة لمعنى آل حسن
أن أذكرها هنا : يقول :

الآل من يؤول الى الشخص من قرابة أو مذهب ، والظاهر
أنه نص على هؤلاء هنا في الاصطفاً للمزايا التي جعلها الله
فيهم . (٢)

(١) صحيح البخاري : ج ٤ / ص ٢٢٤ ، كتاب بدء الخلق /

باب من انتسب الى آبائه في الاسلام والجاهلية .

(٢) الجامع لأحكام القرآن : ج ٢ / ص ١٢٣ .

وقيل الآل في الموضعين بمعنى النفس ، أى اصطفى آدم ونوحا
ابراهيم نفسه وعمران نفسه فيكون المعنى : اصطفى آدم نفسه ونوحا
وابراهيم وعمران ، ومنه قوله تعالى : * وَحَقِيقَةً مِّمَّا تَرَكَ آلَ مُوسَىٰ
وآلَ هَارُونَ * (١)

وقيل المراد بآل ابراهيم : المؤمنون من آل ابراهيم
وآل عمران كما في قوله تعالى : * وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ
أَشَدَّ الْعَذَابِ * (٢) .

وقيل المراد بآل ابراهيم اسماعيل واسحق ويحقوق والأنبياء
من أولادهما والذين من جملتهم محمد صلى الله عليه وسلم (٣)

ومع تعدد الآراء في المراد بالآل فان الآية الكريمة تشمل
الآراء الثلاثة الأخيرة وخص الحق سبحانه هؤلاء بالذكر في هذه
الآية اما من قبيل المجل الذي جاء تفصيله في سورة الأنعام
واما لأن الأنبياء جميعا من نسلهم فبدأ بأولهم وجودا وهو آدم .

وثنى بنوح عليه السلام ثم اتى ثالثا برسول الله ابراهيم واندرج
في آل محمد صلى الله عليه وسلم . ورابعا آل عمران * فاندرج في آل
مريم وعيسى عليهما السلام ، ونص على آل ابراهيم لخصوصية اليهود بهم
وعلى آل عمران لخصوصية النصارى بهم * (٤)

(١) سورة البقرة ، الآية " ٢٤٨ " .

(٢) سورة غافر ، الآية " ٤٦ " .

(٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ، ج ٢ ص ١٣٣ ؛ ج ٤ ص ٦٣ .

(٤) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ، ج ٢ ص ١٣٣ .

وقد اختلف المفسرون في المراد بعمران في الآية ، ولهم

فيه رأيان :

- الأول : أنه عمران والد موسى وهارون عليهما السلام وذكروا نسبه من الكتاب المقدس قائلين انه هو عمران بن يصهر بن قاهت بن لاوى بن يعقوب بن اسحق عليه السلام .
- الثاني : أنه عمران بن ماثان والد مريم وكان من نسل سليمان بن داود وعم نسل يهوذا بن يعقوب بن اسحاق ابن ابراهيم عليه السلام (١) .

والراجع ان المراد به ، هو عمران والد مريم عليهما السلام ، وذلك لأن السياق يدل عليه والقصة قد اقترنت بعيسى عليه السلام .

كما ان موسى وهارون عليهما السلام لم يرد لهما ذكر في الآيات صراحة . ولعل ذكر الاصطفاء كان توطئة لذكر قصة عيسى عليه السلام . وكأن الآيات تقرر . أن الذي اصطفى هو "علاء" قد اصطفى مريم عليها السلام ليكون منها الآية الباهرة .

فرجح لدى أن يكون المراد بعمران هو والد مريم عليها السلام .

وهذا يتجلى مزيد فضل لآل عمران عليه السلام لأن الله اصطفاهم مع آل ابراهيم عليه السلام ثم ذكرهم ثانية متفردين عن آل ابراهيم . واختصت مريم من آل عمران بأن الله اصطفاهم ايضا ، وتجلى

اصطفاء الله لها مرتين :

(١) انجيل متى ص ١ الآيات " ١ - ١٧ "

العره الأولى : حين بشرتها الملائكة قائلة : * يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ * (١)
وهذا تفضيل من الله لعريم على جميع نساء زمانها .

العره الثانية : اختصاصها بالوليد الذي جعله الله وأمه آيتين ، وكفلهما برعايته وعنايته ، قال تعالى : * وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ * (٢)
فهى سلسلة من الاصطفاءات وقد أشارت صراحة الى ماتتعت به مريم عليها السلام من أصل طيب كريم .

(إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ) (٣) .

لقد اصطفى الله هؤلاء على جميع المخلوقات والملائكة من المخلوقات فمعنى ذلك أن الله اصطفى هؤلاء الأنبياء على الملائكة .
لأن كلمة العالم تطلق على كل ماسوى الله عزوجل ، وسعى عالما لأنه علامة على وجود خالقه وذلك يكون الملائكة ايضا في عداد المفضلين وان كانوا يفضلون غيرهم .

-
- (١) سورة آل عمران ، الآية " ٤٢ " .
(٢) سورة المؤمنون ، الآية " ٥٠ " .
(٣) سورة آل عمران : الآية " ٣٣ " .

ولا خلاف بين علماء المسلمين في أفضلية رسل الله على سائر البشر من ولد آدم ممن لم تتحقق لهم نبوة ولا رسالة ، وما ورد من حديث عن الرسول صلى الله عليه وسلم يقول فيه : (علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل) (١) فليس معناه مساواة العلماء بالأنبياء في المنزلة والمكانة وإنما يعني ضرب مثل في الكثرة ، أو تعدد الأنبياء في بلدان بني إسرائيل وقراهم ومع ذلك كان العناد والرفض للدعوة .

أما أفضلية الأنبياء على الملائكة فذلك لعدة أسباب ذكرها الفخر الرازي نستخلص منها ما يلي :

١ - أن الله تعالى أمر الملائكة بالسجود لآدم عليه السلام ، ورجح كثير من المفسرين أن آدم لم يكن كالقنبل بل كان التواضع في الحقيقة له فوجب أن يكون آدم أفضل منهم لأن السجود نهاية التواضع .

٢ - أن الله تعالى جعل آدم عليه السلام خليفة له دون الملائكة ومعلم أن أعلى الناس منصبا عند الملك من كان قائما مقامه في الولاية والتصرف وكان خليفة له وهذا يدل على أن آدم عليه السلام كان أشرف الخلائق .

(١) كشف الخفا : ج ٢ ص ٨٣ .

- ٣ - أن الله تعالى قد علم آدم عليه السلام الاسماء كلها دون الملائكة وهذا دليل على أنه عليه السلام كان عالما بما لم يكونوا عالمين به والأعلم أفضل .
- ٤ - أن كلمة (المالمين) في هذه الآية مطلقة فتشمل الملائكة ، ولا يعترض عليه بقول الله تعالى * يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ * (١) لأن المقصود بالمالمين هنا ، عالم أهل زمانهم .
- ٥ - ما روى أن جبريل عليه السلام أخذ بركاب الرسول صلى الله عليه وسلم حتى أركبه على البراق ليلة الاسراء والمعراج وهذا يدل على أن محمد صلى الله عليه وسلم أفضل من جبريل بل ومن جميع الملائكة .
- ٦ - واستدلوا من قوله تعالى : * وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ * (٢) بأن الملائكة من جملة المالمين فكان محمد عليه الصلاة والسلام رحمة لهم فوجب أن يكون أفضل منهم صلى الله عليه وسلم .
- ٧ - أن هؤلاء لهم شهوة داعية إلى المصيبة والهلك ليس له ذلك ، والفعل الخيري مع المقاومة أجزل ثوابا من الفطرة عليه .

(١) سورة البقرة : الآية " ٤٧ " .

(٢) سورة الأنبياء : الآية " ١٠٧ " .

ويمكن الرجوع الى ذلك بالتفصيل في الفخر الرازي (١) ،
وهذا نجد ان الانبياء عليهم الصلاة والسلام أفضل من الملائكة
جسما حيث يأتي في مقدمتهم في الأفضلية سيدنا محمد صلى الله عليه
وسلم لقوله : (أنا اول الناس خروجا اذا بعثوا وأنا خطيبهم اذا وفدوا
وأنا مبشرهم اذا أيسوا لواء الحمد يومئذ يمدى وأنا اكرم ولد آدم على
ربي ولا فخر) (٢) رواه الترمذى وقال حديث حسن غريب .

ثم يلي سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم من الأفضلية بقية أولى
العزم وهم سيدنا نوح ، ابراهيم ، موسى ، عيسى ، عليهم افضل
الصلاة والتسليم ثم يلي أولي العزم في الأفضلية بقية الرسل غير أولى
العزم . وأن الرسل من الملائكة كجبريل وميكائيل واسرافيل وعزرائيل
أفضل من عمم البشر لا من الانبياء ثم يلي رؤساء الملائكة في الأفضلية
عوام البشر غير الفساق وهم أولياؤهم غير الانبياء فهو لا أفضل من عوام
الملائكة فالصلحاء من البشر أفضل من الملائكة لأن البشر أكثر ثوابا
لحصول المشقة في عباداتهم بخلاف الملائكة فان جبلتهم الطاعة لهذا
لا يحصل لهم فيها مشقة لذلك لزم أن يكون بنو آدم أفضل من الملائكة .

(١) مفاتيح الغيب ، للفخر الرازي ، ج ٢ ص ٢٣٤ .

(٢) الترمذى باب المناقب : ج ٥ ص ٢٤٥ .

الفصل الثاني

ولادة مريم وتقبل الله لها
نديره بقبول حسن

○ استجابة الحق سبحانه لدعوة امرأة عمران .

○ الخلاف بين العلماء في المسحقة أم
تخييل .

الفصل الثاني

=====

(ولادة مريم وتقبل الله لها نذيره بقبول حسن)

من سنة الله في الكون الزواج ، قال تعالى : * وَمِنْ آيَاتِهِ
أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً * (١)
وقال تعالى : * هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ
مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا * (٢)

وهذه السنة قائمة لتنظيم عبارة الكون عن طريق الانجاب الذي
هو فطرة في النفس البشرية كما أنه أمل الصالحين ، قال تعالى :
* وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا ذُرِّيَّتًا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْ لَنَا
لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا * (٣) .

وذكر في معرض الامتنان على الأنبياء السابقين قوله :
* وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رِسَالًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً * (٤) .

وحكمة الله في الكون أن لا يكون كل زواج موجب الانجاب لأن الأمر
لو كان كذلك لكان هناك منفذ لطاعن يطمعن قائلاً : ان هي الا أرحام
تدفع وأرض تهلع .

(١) سورة الرض ، الآية " ٢١ " .

(٢) سورة الأعراف ، الآية " ١٨٩ " .

(٣) سورة الفرقان ، الآية " ٧٤ " .

(٤) سورة الرعد ، الآية " ٣٨ " .

ولذلك تفاوتت النتيجة عقب الزواج ، فمن الناس من يتزوج

وينجب - اما بنين واما بنات واما بنين وبنات - .

وقد صور القرآن الكريم هذا الوضع أتم تصوير بما يوضح الدلالة

على ملك الله لهذا الكون ، قال تعالى : * لِلَّهِ مَلَكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ ، أَوْ يَزْوَجَهُمْ
ذَكَرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيماً إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ * (١)

وهذا العطاء الالهي قد يتعارض ظاهره مع مراد النفس ،

ولكن لله في خلقه حكمة ، وكل شئ خلقه الله ، خلقه بالحق ونزهه
عن الباطل : * وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ
الَّذِينَ كَفَرُوا قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ * (٢)

وقد رأينا أن التنويع السابق في الآية الكريمة قد وقع للأنبياء

عليهم السلام ، فمنهم من رزق بنات فقط كنبى الله لوط عليه السلام ،

ومعظمهم رزق ذكورا فقط كإبراهيم عليه السلام ويعقوب وزكريا ، ومنهم

من رزق بنين وبنات وهم الأكثر ومنهم من لم يرزق إطلاقا انا لعدم الزواج

كمعيسى عليه السلام أولحكمة علمها الله كيحيى عليه السلام - على أحد

الاقوال في تفسير قوله " وحصورا " .

(١) سورة الشورى ، الايتان * ٤٩ ، ٥٠ .

(٢) سورة ص ، الآية * ٢٧ .

ولما كان الانجاب فطرة في النفس البشرية تشعر بالآلم حالة
فقدانه أو تفضيه فان أنفـس الصالحين وغيرهم تتجه الى الخالق بالدعاء
قائلة : * رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ * (١) ولقد
دعا نبي الله زكريا عليه السلام ربه قائلا : * فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ،
يَرِثُنِي وَيَرِثْ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا * (٢)

يروى بعض المفسرين أن امرأة عمران (٣) كانت جالسة ذات يوم

-
- (١) سورة الفرقان : الآية " ٧٤ "
- (٢) سورة مريم : الآيتان " ٥ ، ٦ "
- (٣) اكفى القرآن الكريم بذلك الحدث دون التسمية ، وقد ذكر
المفسرون أن اسم والدة مريم هو حنة ، وليس لديهم سند من
القرآن أو السنة على هذه التسمية ، وانما هي في الكتاب المقدس
انظر : لوقا : ٣٦/٢ . وفي هذا دلالة على أن القرآن
يتضمن الهداية والاعجاز ، فلو كان كتاب تاريخ لذكر اسمها
وحال البيت وكيفية المميشة وماشابه ذلك . وما ورد من تسمية في
بعض الأحيان فهو في معرض الامتنان . وما أسك عنه القرآن
فان فائدته معدومة أو كما قيل علم لا ينفع وجهل لا يضر .

في ظل شجرة ، وكانت كهيرة السن لم تكد بعد ، حينها هي كذلك ،
رأت طائر يطعم فرخا له فتحركت نفسها للولد وتمنته ، فقالت : اللهم
ان لك عليّ نذرا شكرا ان رزقتني ولدا أتصدق به علي بيت المقدس
فيكون من سدنته وخدمته ، فحملت بحريم ، وهلك عمران وهي حامل .
قال الحسن : انما فعلت ذلك بالهام الله تعالى ، كما ألهم أم موسى
فقدفته في اليم . .

قال الأصم : لم يكن لبني اسرائيل غنيمة ولا سبي وكان في
دينهم أن الولد اذا صار بحيث يمكن استخدامه كان يجب عليه خدمة
الأبوين ، فكانوا بالنذر يتركون ذلك النوع من الانتفاع ويجعلون الأولاد
محررين لخدمة المسجد وطاعة الله تعالى حتى اذا بلغ الحلم كان مخير
فان أبى المقام وأراد أن يذهب ذهب ، وان اختار المقام فلا خيار له
بعد ذلك ، ولم يكن نبي الا ومن نسله محررا لبيت المقدس ، وما كان
هذا التحرير الا في الفلاني لأن الجارية يصيها الحمض والقدر ، ثم
انها نذرت مطلقا ، اما لبناء الأمر على الغرض والتقدير ، واما لأنها
جمعت النذر وسيلة الى طلب الولد الذكر . (١)

واختلف العلماء في المراد من قولها (محررا) ،

فمن الشعبي (محررا) : مخلصا للعبادة وتحرير المبد ،

تخليصه من الرق (٢)

(١) تفسير غرائب القرآن للنيسابوري ، ج ٣ ص ١٧٧ .

(٢) المرجع السابق ، ج ٣ ص ١٧٦ .

وقيل : مخلصا من خدمة الدنيا لخدمة بيت المقدس ان كان
ذكرا وللعبادة (١) .

وقد روى عن وهب بن منه أن المراد من كونه محررا أن يكون
خادما للمتعبدين بالمسجد الأقصى يسقيهم الماء عند الافطار ويحمل
لهم الزاد على رأسه (٢) .

وقد رجح صاحب موجز منتخب لتفسير القرآن أن المراد هو
العتق من رق الأغيار لعبادته سبحانه ، وخدمة بيته أو مخلصا لهذه
العبادة والخدمة لا يشتغل بشيء آخر . (٣)

فتقبل مني ، لأن العبرة ليست بالنذر أو بالأداء وإنما
بالقبول ، وكل عمل لا يقبل لافائدة فيه لصاحبه ، ولعل فراستها ،
أو طاعتها لله ، أو خروجها الى بيت المقدس ووقوفها على الحكم والمواعظ ،
كل ذلك موحيا لها أن تدعورها بأن يقبل هذا النذر . هذا هو
الأمر الأول .

(١) تيسير التفسير للقرآن الكريم ، لمحمد بن يوسف ، ص ٤٩ .

(٢) بدائع الزهور في وقائع الدهور ، ص ٢٢٢ ، المنسوب الى

محمد بن احمد بن اياس الحنفي ،

(٣) موجز منتخب لتفسير القرآن ليحيى احمد الدرديري ،

الأمر الثاني :

ان في القبول للنذر رعاية له وعناية ولعلها أرادت أن يكون مقبولا وموفقا ايضا لما نذرله ، وقد جعلت الشفيح لها صفق النية كما يتجلى ذلك من التنزيل الذي ينم عن علم وحكمة .

انك أنت السميع العليم : وفيه دليل الحكمة التي نالتها امرأة عمران حيث انها استعملت صيغ البالغة في وصف الذات ، كما أنها واثقة من حسن القصد ، لأن خطاب ينم عن المراقبة لله ، فالسمع هو الذي يسمع كل خفي ، والعليم الذي يعلم خائفة الأعين وما تخفي الصدور فان كنت صادقة في نذري فاستجب يارب وان كانت الأخرى فأنت تعلم ، فليس نذري هذا من باب المراء ، أو الباهاة وانما هو خير ما أختتم به حياتي أن اتقرب اليك بأعز ما ملكت نفسي ، وما طال شوقي اليه وأنت السميع العليم .

فنفس امرأة عمران متعلقة بما جرت به العادة - أن يكون المولود ذكرا - لأن له عصبه وفيه قوة ، وه جلد ، ولا يخشى عليه ما يخشى على الأنثى ، كما انه الأمل في خدمة البيت .

ولكن شاءت إرادة الله أن يكون المولود أنثى على غير المراد ولله الحكمة البالغة فيما اراد .

وفي هذا المقام أذكر ما ورد في محاسن التأويل حينما سرى صديق من صديقه حزنه لأنه رزق بأنثى فقال له : أهلا وسهلا بمقبلة النساء وأم الأنبياء وجالبة الأطهار ؟ والبشرة باخوة يتناسقون ونجباء يتلاحقون .

فلو كان النساء كمن فقدن

لفضلت النساء على الرجال

وما التأنيث لاسم الشمس عيب

وما التذكير فخر للهلال (١)

والله تعالى يعرفك البركة في مطلعها ، والسعادة بموقعها ،
فادرع اغتباطا واستأنف نشاطا ، فالدنيا مؤنثة والرجال يخدمونها ،
والذكور يعبدونها والأرض مؤنثة ومنها خلقت البرية ، وفيها كثرت
الذرية ، والسما مؤنثة وقد زينت بالكواكب وحليت بالنجم الثاقب ،
والنفس مؤنثة وهي قوام الأبدان وملوك الحيوان ، والحياة مؤنثة ولولاها
لم تتصرف الأجسام ولا عرف الأنام ، والجنة مؤنثة صها وعد المتقون ، وفيها
ينعم المرسلون ، فهنيئا لك هنيئا بما أوتيت وأوزعك الله شكــــــــــــر
ما أعطيت (٢) (٣)

(١) ديوان أبي الطيب المتنبى بشرح المكبرى : ج ٢ ص ١٨ .

(٢) محاسن التأويل للقا سعي : ٦٠٧٥ الجزء ١٧

(٣) حكى ان عمرو بن العاص دخل على معاوية وعنده ابنة فقال : من هذه
يامعاوية ؟ فقال : هذه تفاحة القلب وريحانة العين وشامة الأنف
فقال : أمطها عنك : قال ولم ؟ قال : لانهن يلدن الأعداء
ويقربن البعداء ويورثن الشحناء ويشرن البهضاء قال : لا تقل ذلك
يامعرو فوالله مامرض المرضي ولا أعان على الزمان ولا أذهب جمش
الأخران مثلهن ، وانك لو اجد خالا قد نفعه بنواخته وأبا قد رفعه
نسل بنيه . فقال يامعاوية دخلت عليك وما على الارض شي ابغض الي
منهن واني لأخرج من عندك وما عليها شي أحب الي منهن .
محاسن التأويل .

ومن هنا يكون الخير فيما يقضى به الله ، وأن خالف مراد النفس التي تتحسر لعدم نيلها المراد ، ولما كانت أم مريم من البشر والفضيلة مشتركة في أكثر الفرائز ، فانها ايضا قد نالها الألم ، لأن المولود غير ما تأمله النفس .

يقول الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمِيتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذَرِّيَّتَهُمَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ (١)

وفي هذا التعبير تحسر واعتذار عن عدم القدرة على الوفاء بالنذر والخوف من أنها لاتقع الموقع الذي يمتد به والتحنن الى ربها والتحسر على خيبة رجائها وعكس تقديرها .

وعن القراء وردت روايتان في ضبط التاء من قوله تعالى :

﴿ وضعت ﴾ * التسكين والضم .

والثانية قراءة أبوبكر وابن عامر بضم التاء واسكان العين ،

وقرأ الباقر بفتح العين . (٢)

وحجة من ضم التاء أنه جعله من كلام أم مريم لاتصال كلامها بما

بعد ذلك وما قبله في قولها ﴿ رب اني وضعتها انثى ﴾ * وقولها :

﴿ وليس الذكر كالانثى ﴾ * ، وقولها : ﴿ واني سميتها مريم ﴾ * ،

وقولها : ﴿ واني أعيذها بك وذريتها ﴾ * فكله من كلام أم مريم .

(١) سورة آل عمران ، الآية " ٣٦ " .

(٢) الكشف عن وجوه القراءات السبع ، ج ١ ص ٣٤٠ .

لأبي طالب القيسي .

فحمل وسط الكلام على أوله وعلى آخره ، وذلك حسن فـي
المطابقة والمجانسة كما تقول : ربي قد أذنبت وأنت أعلم بذلك ، على
طريق التسليم والخضوع .

وفي القراءة بضم التاء معنى التعظيم لله . والخضوع والتنزيه له ،
أن يخفى عليه شيء ، كأن أم مريم لما قالت * رب اني وضعتها أنثى *
أرادت أن تعظم الله ، وتنزهه عن أن يخفى عليه شيء ، فقالت : والله
أعلم بما وضعت ، لا يحتاج إلى أن تخبره بذلك .

وحجة من قرأ باسكان التاء أنه جملة من الله جل ذكره ،
والمعنى : أن الله أعلمنا عن طريق التثبت ، وقال : والله أعلم بما
وضعت أم مريم ، قالت أولم تقله ، ويقوى ذلك أنه لو كان من قول
أم مريم لكان وجه الكلام : وأنت أعلم بما وضعت ، لأنها نادته فـي أول
الكلام في قولها * رب اني وضعتها * والمنادى مخاطب ، فلما
قال : والله أعلم . كان الاخبار عن نفسه أولى فقال : وضعت وهـ
قرأ ابن عباس والحسن وغيرهما . (١)

(١) نقلا عن كتاب الكشف عن وجوه القراءات السبع ، ج ١ ص ٣٤١ .
والطبرى : ج ٦ ص ٣٣٥ ، وصماني القرآن ، ج ١ ص ٢٠٧
وايضاح الوقف والابتداء : ٢٥٧٥ / ، والحجة في القراءات
السبع : ٨٣ ، وزاد المسير : ج ١ ص ٣٧٧ .

* وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى * جملة معترضة ، اما أن تكون من
كلام الحق سبحانه أو من كلامها .

فعلى المعنى الأول يكون المقصود بها معذرتها في التحسر
والتحزن بهيئان فضل الذكر على الأنثى .

ولذا جبلت النفوس على الرغبة فيه دونها لاسيما في هذا المقام ،
أعني مقام قصد اخلاص النذير للعبادة ، فان الذكر يفضلها من وجوه
منها :

أن الذكر يصح أن يستمر على خدمة موضع العبادة ولا يصح ذلك
من الأنثى لمكان الحيض فيه وسائر عوارض النساء .

ومنها أن الذكر يصلح لقوته وشدة للخدمة دون الأنثى فانها
ضعيفة لا تقوى على الخدمة .

ومنها أن الذكر لا يلحقه عيب في الخدمة والاختلاط بالناس ،
وليس كذلك الأنثى .

ومنها : أن الذكر لا يلحقه من التهمة عند الاختلاط ما يلحق
بالأنثى .

فهذه الوجوه تقتضي فضل الذكر على الأنثى في هذا المقام .
وعليه تكون الالم للمهد في (الذكر) و (الأنثى) أي ليس
الذكر الذي طلبته وتخيلت فيه كمالاته ان يكون كواحد من الأعباء
كالأنثى التي وهبت لها فان دائرة علمها وأمنيتها لا تكاد تحيط بما فيها
من جلائل الأمور . (١)

ويحتمل أن تكون عارفة بالله واثقة بأن مآصده عنه فانه يكون خيرا وصوابا .

أنت أعرف وأعلم بحال ما وضعت فلفعل لك فيه سرّا . . لأنك لاتفعل الا ما فيه حكمه ومصلحته .

فعلى هذا اللام في الذكر وفي الأنثى لمعهود حاضر ذهني لكنها في الذكر لحاضر ذهني تقديرا لدلالة (ما في بطني) عليه ضمنا وفي الأنثى لحاضر ذهني حقيقة لتقدم لفظة أنثى (١) .

وقد رجح صاحب تيسير التفسير أن الجملة المعترضة إنما هي من كلام الله ، لا من كلامها وهي معترضة في كلامها دفعا للتحسر وإبطالا لنكران فضل الله في العطاء وما تضمنه من نعمة ويكون المراد . أى ليس الذكر المعهود الذى طلبت كالأنثى المعهودة التى أعطيت ، بل الأنثى التى أعطيت أفضل لمزايا يضمها الله تعالى فيها ، وإن كانت لاتصلح لخدمة البيت .

ويجوز أن يكون من باب القلب ، أى ليس مطلق الأنثى ، أو هذه الأنثى الموضوعة كمطلب الذكر المطلوب ، إذ لاتصلح لخدمة البيت ، فقلب ليفيد نكته هي إيهام التمييز الأول من أن بعض أفراد النساء لكمالها أفضل . (٢)

(١) غرائب القرآن : ج ٢ ص ١٧٧ .

(٢) تيسير التفسير للقرآن الكريم : ج ٢ ص ٥٢ .

ويحتمل أن تكون الجملة المعترضة من كلامها ، ويكون القصد
حينئذ تأكيد الاعتذار ببيان أن الذكر ليس كالأنثى في الفضيلة والمزية
وصلاحية خدمة المتعبدات ، فإنهن بمعزل عن ذلك (١) ،
أو على معنى أن مراد الله أفضل من مرادى تعظما لعظيمته
تعالى (٢)

* واني سميتها مريم * قال المفسرون : وذلك أن أباهما
قد مات عند وضعها فلهذا تولت الأم تسميتها ، ومريم في لغتهم
(العابدة) فأرادت بقولها ذلك التقرب والطلب إلى الله أن يعصمها
حتى يكون فعلها مطابقا لاسمها . (٣)

وقيل مريم : معرب مارية بمعنى جارية في لغتهم (٤)
أما قاموس الكتاب المقدس فقد ذكر أن معنى كلمة مريم (عصيان)
وأشارا إلى أنه اسم عبري (٥)

وقيل : مريم كمقعد التي تحب حديث الرجال ولا تضجر
قال ابو عمر : وهو مفعول من رام مريم .

-
- (١) محاسن التأويل : ج ٤ ص ٨٣٤ .
 - (٢) تيسير التفسير : ج ٢ ص ٥٢ .
 - (٣) غرائب القرآن : ج ٢ ص ١٢٨ .
 - (٤) تيسير التفسير : ج ٢ ص ٥٢ .
 - (٥) قاموس الكتاب المقدس : ص ٨٥٦ .

ومريم اسم ابنة عمران . . . وانما قالوا أنه مفضل لفقد فصيل

في لغة العرب ، وقال قم : هو فعمل كما اشار اليه الشهاب ،
شرح الشفاء وهو مجني على انه عربي ، وقال قم : انه معرب ماريصة
وقيل : هو عجمي على أصله . (١)

وفي هذه الجملة دلالة على أن التسمية من الأم جائزة ، كما
أنها من الأب ، وأن كلمة مريم فيها دلالة على اختيار الاسم الحسن ،
وأن التسمية ليست مشروطة باليوم السابع بل تجوز من اليوم الأول .
وقد ندب الى هذا الاسلام الحنيف .

وكانت امرأة عمران ، كما يدل عليه ظاهر الكلام ذات دراية
قوية بالدين وعلى علم بأحكامه ، ولذلك فأنها بمد ان اختارت الاسم الحسن
عقبت عليه بالدعاء لهذه المولودة قائلة : * وَأَنِّي أَعِزُّهَا بِكَ وَذَرِّتُهَا
مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ * (٢)

انها وحيدة امها . ولم نسمع أو نقرأ أن لها اشقاء ذكور ،
وقد توفي والدها قبل ولادتها والمجتمع الاسرائيلي يروج بالفساد وفتاة
هذه حالتها تكون عرضة للنهب أو السلب فمن يكون لها لا على التأقبت
بل على التأييد ؟ من يدفع عنها كيد المعتدى ان اراد ؟ وعلى فرض
احتمال وجود المجتمع النقي الذي يدرأ الشيطان البشري ، فمن يسدراً
عنها الشيطان الخفي . الذي له من سلطة التمكن كما في قول الله
تمالي : * انه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم * (٣)

(١) تاج الصروس : ج ٨ ص ٣٢٣ .

(٢) سورة آل عمران : الآية " ٣٦ " .

(٣) سورة الأعراف : الآية " ٢٧ " .

والذى توعّد قائلا : * قَالَ فِيمَنْزِلِكَ لِأَغْوَيْنَهُمْ أَجْمَعِينَ * (١)

لذا فإنها اتجهت الى الله سبحانه وتعالى داعية : ان يعيّد

هذه المولودة ومن يأتي منها من الشيطان الرجيم .

قدمتها في الذكر لمزيد اهتمام بها أولاتها موجودة حقيقة

ومن يأتي منها فهو في ضمير الغيب.

والاعادة بالله تكون بالدعاء والرجاء ، وأصل الممان الموثل

واللجأ والمعقل . والمعنى واني غير راجعة عما انتويته من خدمة

مريم ببيت المقدس وان كانت أنش ، فان لم تكن جديرة بسداته فلتكن من

العابدات القلنات (٢)

وتكون الاستعانة بمعنى الاستعانة ايضا ، ولذا فان الاسلام قرر

هذا المبدأ المحمود قال تعالى : * فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ

مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ * (٣) وحكى عن أناس استعانوا بغير الله فكان

عليهم لا لهم ، قال تعالى : * وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعْمُونَ

بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا * (٤)

والشيطان : اسم لكل متعبد من الجن .

والرجيم : بمعنى المرجوم ، أى المطرود .

(١) سورة ص : الآية " ٨٢ " .

(٢) موجز منتخب لتفسير القرآن : ج ٢ ص ٣٧ .

(٣) سورة النحل : الآية " ٩٨ " .

(٤) سورة الجن : الآية " ٦ " .

وذلك استعانة على الصحيح ، وقيل الرجم بمعنى الطرد حقيقة ، ولا يدل لذلك كلام القاموس لأنه يذكر المجاز في معاني الكلمات مثل أن يقول الأسد السبع والشجاع . (١)

والمعنى : أسألك يارب ان تقي مريم ومن يأتي منها من كل داع الى الشر أو باغ أو معتد يقصد غوايتها أو إبعادها عن رحمتك وخصصت مصدر الضلال (الشيطان الرجيم) لأنه معلوم للسابقين أيضا بذلك ويمكن الرجوع الى سفر التكوين : الاصحاح : ٣ ، الايات " ١ - ١٣) ، وان كانت التوراة قد سمت بغير الصفة في هذه الايات فانه ذكر صراحة في سفر أيوب الاصحاح الاول من ٥ : ٧ .

(١) تيسير التفسير : ج ٢ ص ٥٣ .

استجابة الحق سبحانه لدعوة امرأة عمران :

يقول الحق سبحانه : * فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا
نَبَاتًا حَسَنًا * أى تقبل مريم من أمها ورضي أن تكون محررة للانقطاع
لعبادته وخدمة بيته . وهو أبلغ من قبلها ، وزاده مهابة وتأكيذا
وصفه بالحسن ، كأنه قال : فتقبلها ربها بأبلغ قبول حسن (١)

قال في الكشف : معناه : فتقبلها بذى قبول حسن ،
أى بأمر ذى قبول " وهو الاختصاص بأقامتها مقام الذكر في النذر ،
ولم يقبل قبلها أنثى في النذر ، أو بأن تسلمها من أمها عقيب الولادة
قبل أن تنشأ وتصلح للسدانة ، قال : ويجوز أن يكون القبول اسـم
ما يقبل به الشيء .

وميجوز أن يكون معناه فتقبلها فأستقبلها مثل تعجله : بمضى
استعجله وذلك من قولهم استقبل الأمر : اذا أخذه بأوله : أى فأخذها
من أول أمرها حين ولدت بقبول حسن (٢)

والتفعل هنا بمعنى الفعل ، لا للملاج ولا للتأكيد ،
كذا يتبادر ، ولا مانع من كونه للتأكيد وفي ذلك تشبيه النذر بالهدية ،
ورضي الله بقبول الهدية (بقبول حسن) بأن سلمها لخدمة البيت مسن
حين ولدت قبل أن تقدر على الخدمة ، أى تقبلا حسنا ، أو بوجه حسن
تقبل به النذائر ، أى : النذورات (٣)

(١) موجز منتخب لتفسير القرآن : ج ٢ ص ٣٧ .

(٢) الكشف للزمخشري ، ج ١ ص ٤٢٧ .

(٣) تيسير التفسير للقرآن الكريم : ج ٢ ص ٥٣ .

* وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا * أَيْ ، رباها ونماها في خير
ورزقه وعنايته وتوفيقه ، تربية حسنة شاملة للروح والجسد ، كما تربي
الشجرة في الأرض الصالحة ، حتى تنمو وتثمر الشرة الصالحة لا يفسد
طبيعتها شيء ، ولعله عبر عن التربية بالانبات لبيان أن التربية
فطرية لا شاعمة فيها (١) .

وقيل : كانت تنبت في اليوم مثل ما ينبت المولود في عام .
وقيل : المراد نموها في الطاعة والصفة والصلاح والسداد (٢)
والأرجح : أن الله سبحانه وتعالى قد استجاب لها دعوة
أمرها ، ورضي عن هذه الدعوة لحسن القصد وسلامة النية وجبرا لقلب
نزل به مانزل . حين أناء مالم يرد . وأنبت هذه الفتاة نباتا حسنا ،
وهي منة من الله على مريم بأن اختار لها خير مقومات الانبات ، فلا يبد
من الشرة أو البذرة الطيبة ، ولا بد من التربة الطيبة وكذا المناخ الملائم
وكذا مريم عليها السلام ، هي من بذرة طيبة وصفها الله بقوله :
* نَذْرَةٍ مِنْ بَعْضِ وَاللَّهِ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * وتربتها طيبة دل على
ذلك الخصائص التي تمتع بها امرأة عمران من كونها سيدة ذات دين
تتقرب الى الله بأحب الأشياء اليها المولود الذي طالما تآقت النفس
اليه . وأما المناخ المناسب فانه يتأثر بالبيئة التي يقع عليها ، والله
سبحانه وتعالى قد اختار لها خير مناخ * وكفلها زكريا * . وقد

(١) موجز منتخب لتفسير القرآن : ج ٢ ص ٣٧ .

(٢) غرائب القرآن : ج ٢ ص ١٧٨ .

شهد بذلك قوسها ما حين المناخ الأول الذي وجدت فيه مريم
معمرين لها حين عادت بالولد قائلين : * يَا أُخْتُ هَارُونَ مَا كَانَ
أَبُوكَ أَمْرًا سَوًّا وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بِهَفِيًّا * (١)

ومع عطاء الله للسيدة الجليلة (مريم) فان السنة الشريفة قد
وضحت أن الله نزهها من حظ الشيطان .

ففي الحديث الشريف عن المصطفى صلى الله عليه وسلم انه قال :
(ما من مولود يولد الا والشيطان يمسه حين يولد فيستهل صارخا من
من الشيطان اياه الا مريم وابنها) (٢) .

وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال : قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم : كل ولد آدم ينال منه الشيطان يطعنه حين
يقع بالأرض باصبعه ولهذا يستهل الا ما كان من مريم وابنها فانه لم
يصل ابليس اليهما . (٣)

وفي بعض طرق الحديث أنه ضرب بينه وبينها حجاب وأن الشيطان
أراد ان يطعن باصبعه فوقعت الطمعة في الحجاب .

(١) سورة مريم : الآية " ٢٨ " .

(٢) الدر المنثور في التفسير بالمأثور : ج ٢ ص ١٩ .
وانظر : البخاري : ج ١ ص ٤٢ ، كتاب التفسير / باب

سورة آل عمران ، مسند الامام احمد : ج ٦ ص ٢٣٣ .

(٣) كنز العمال : رقم : ٣٢٣٥٥ .

الخلافا بين العلماء في المس حقيقة أم تخييل :

وها نحن نرى أن هذه الروايات بعضها في الصحيح ، ونحن
نعلم أن الحديث أن صح سندا ومتنا كان التسليم به لازما سواء استطاع
العقل تقبله أم لم يستطع ، إلا أن بعض علماء الكلام أنكروا أن يكون هذا
على سبيل الحقيقة ، وإنما حمله على التخمين .

يقول الألويسي : وطعن القاضي عبد الجبار باصبع فكره فسي
هذه الأخبار بأنها خبر واحد على خلاف الدليل ، وذلك أن الشيطان
أما يدعو إلى الشر من له تمييز ، ولأنه لو تمكن من هذا الفعل لجاز أن
يهلك الصالحين وأيضا لم خص عيسى وأمه دون سائر الأنبياء ، وأنه
لو وجد المس أو النخس لدام أثره وليس فليس (١) .

والزمخشري زعم أن المعنى على تقدير الصحة ، أن كل مولى
يطمع الشيطان في اغوائه إلا مريم وابنها فانهما كانا معصومين ، وكذلك
كل من كان في صفتها كقوله تعالى : ﴿ لَا غَوَيْنَهُمُ أَجْمَعِينَ إِلَّا عَمَادُكَ
مَنْهُمْ الْمَخْلَصِينَ ﴾ (٢) واستهلاله صارخا من مسه تخييل وتصوير
لطعمه فيه ، كأنه يحسه ويضرب بيده عليه ونحوه من التخيل قسول
ابن الرومي :

لما تنوءن الدنيا به من صروفها

يكون بكاء الطفل ساعة يولد

(١) روح المعاني للألويسي : ج ٢ ص ١٣٧ .

(٢) سورة ص : الايتان " ٨٢ ، ٨٣ "

وأما حقيقة النخس والمس كما يتوهم أهل الحشوف كلا ، ولو سلب إبليس
على الناس بنخسهم لامتلات الدنيا صراخا وغياطا مما يجلون فيه من نخسه (١) .
وماذب إليه القاضي عبد الجبار مردود فقوله : ان الشيطان لا يطعن الا
من له تمييز بمعنى الدعوة .

اقول : ان الحديث لا يشير الى دعوة الشيطان المولود الى المعصية
وانما أشارت الأحاديث الى المس فقط ، ولا يترتب على هذا المس هلاك لهؤلاء
أولغيرهم ، فمن المسلمات أن الشيطان يرانا ولا نراه : * انه يراكم هو
وقبيله من حيث لا ترونهم انا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون * (٢)
بل أشارت الأحاديث الى ملازمة الشيطان الانسان ومع ذلك لم يهلك
الانسان هلاكاً جسدياً وان كان يقع في المعاصي احياناً .

عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
(ما منكم من احد الا وقد وكل به قرينه من الجن ، قالوا : واياك يا رسول الله
قال : وايأى الا أن الله أعانني عليه فأسلم فلم يأمرني الا بخير) (٣)
وقول القاضي عبد الجبار : ولو كان الأمر كذلك لهلك الصالحون .
اقول : لا يستلزم من المس هلاك الصالحين .

(١) الكشف : ج ١ ص ٤٢٦ .

(٢) سورة الأعراف : الآية " ٢٧ "

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي (١٦) باب تحريش الشياطين ومغشاة
سراره لفتنة الناس وان مع كل انسان قريناً . ج ٤ ، ص ٢٦٨ ،
مسند الامام احمد : ج ١ ص ٣٨٥ .

فالنصوص القرآنية أشارت صراحة الى أنه لا سبيل للشيطان على
الصالحين ، سواء أكانت من اعتراف الشيطان كما ذكر الحق سبحانه
* قَالَ فَمَنْزِلَكَ لِأَغْوَيْنَهُمْ أَجْمَعِينَ ، إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ * (١)
وكانت بالوعد الذي ضمن الله للطائعين به ابعاد الشيطان
عنهم ، قال تعالى : * إِنَّ عِبَادِي لَكِنَّ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ * (٢)
اما اعتراضه بتخصيص مريم وابنها ، فقد أشرت سابقا الى أن لله
ان يصطفى ما يشاء من خلقه .

واذا كانت الأحاديث قد صرحت بهذا وصحت فما علينا الا التسليم
وأعمال العقل في كل نص لا ندرك وجه الحكمة فيه ، فتح لباب من الجدل
قد يصعب غلقه بعد ، ومع ذلك فاذا كانت الأحاديث قد خصت مريم
وابنها ، فان الرسول صلى الله عليه وسلم قد أشار الى بعض آداب يجب
ان يتحلى بها كل زوجين حين الجماع ، وفي اتباعها ابعاد للشيطان
عن المولود ، ففي الحديث الشريف : (لو أن أحدكم اذا أراد أن يأتي
أهله قال : باسم الله اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان مارزقتنا ،
فانه ان يقدر بينهما ولد لم يضره الشيطان أبدا) (٣)

ومن الاسلام المعققة وهي ما يذبح عن المولود ويطعم منه الفقراء
- حتى ينشأ الولد مهراً من حظ الشيطان .

-
- (١) سورة ص ، الآيتان " ٨٢ ، ٨٣ " .
(٢) سورة الحجر ، الآيتان " ٤٣ ، ٤٤ " .
(٣) صحيح البخاري : كتاب الدعوات - باب ما يقول اذا أتى أهله :
ج ٨ ص ١٠٢ .

وفي الحديث الشريف : (الفلام مرتين بمعقيقته ، تذبح عنه
يوم السابع ويخلق رأسه ويسمى) (١)

- وأما قوله : ولومسه الشيطان لكان الأثر باقيا وليس فليس -
أى ليس الأثر موجودا فلا دليل على النخس .

أقول : ليس كل من أونغس يترتب عليه أثر ولعلها من الرحمة
ان لا يكون هناك أثر تكريما للانسان الذى خلقه الله فمدله في أى صورة
ما شاء ركه .

وقد ذهب العلامة الألوسي الى أن الكلام على الحقيقة قائلا :
ولا يخفى أن الاخبار في هذا الباب كثيرة وأكثرها مدون في الصحيح (٢)

- (١) صحيح البخارى شرح فتح البارى : ج ٩ ص ٥٩٣ ،
كتاب المعققة باب اماطة الأذى عن الصبي في المعققة ،
والترمذى : ١٥٢٢ ، المستدرک : ج ٤ ص ٢٣٧ .
- (٢) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ما من مولود الا وقد عصره
الشيطان عصره أو عصرتين الا عيسى ابن مريم ومريم) :
كنز العمال : ٣٢٣٥٦ .
- وقال صلى الله عليه وسلم : (كل بني آدم يطعن الشيطان في
جنبه حين تله أمه الا عيسى ابن مريم ذهب يطعن فطعن في
الحجاب) . كنز العمال : ٣٢٣٤٣ .

والأمر لا امتناع فيه ، وقد أخبر به الصادق عليه الصلاة والسلام : فليتلق بالقبول ، ثم رَدَّ على الزمخشري قائلا :
والتخمين الذى ركن اليه الزمخشري ليس بشئ ، لأن السرباليد
ربما يصلح لذلك ، اما الاستهلال صارخا فلا ، على أن أكثر
الروايات لا يجرى فيها مثل ذلك .

وقوله - اى الزمخشري - لامتلات الدنيا عياطا ، قلنا - هي
مليئة فما من مولود الا يصرخ ، ولا يلزم من تمكنه من تلك النخسة تمكنه
في جميع الأوقات .

وفسر قوله تعالى : * لَهُ مَعْقِبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ * (١)
في أحد الوجوه به .

(١) سورة الرعد : الآية " ١١ " .

وهذا يندفع أيضا قول القاضي من أنه لو تمكن من هذا
الفعل لجاز أن يهلك الصالحين ومقاء الأثر بل وحصوله أيضا ليس
أمرا ضروريا للنس ولا للنفس والحصر باعتبار الأغلب .

والاقتناع على عيسى عليه السلام وأنه إذا بنا باستجابة دعاء
امرأة عمران على أم وجه . . نعم قد يشكل على ظاهرها أن اعادة
ام مريم كانت بعد الوضع فلا يصح حملها على الاعادة من النس الذي
يكون حين الولادة .

وأجيب بأن النس ليس بالانفصال وهو الوضع ومعه الاعادة ،
فايته انه عمر عنه بالمضارع كما أشرنا اليه لقصد الاستمرار فليتأمل (١) .

ويمكن القول هنا : أن من واجب الوالدین عمل الخير لأجل
أولادهم وان لم يوجدوا بعد والتقرب الى الله بالخير من أجل الحفاظ
والبركة للأولاد وأن العمل الصالح من الآباء ينفع الأبناء ،

قال تعالى : * وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا
خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * (٢)

وقال تعالى : * وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي
الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا
أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتَهُ عَنْ أَمْرِي * (٣)

(١) روح المعاني للألوسي : ج ٢ ص ١٣٨ .

(٢) سورة النساء : الآية " ٩ " .

(٣) سورة الكهف : الآية " ٨٢ " .

وعلى من لم ينل مثل هذا الحظ من تقوى الوالدين أو نالسه
أن يتقي ربه ويخلص له ويراقبه فان الانسان ان التزم جانب الطاعة
أصح وليا لله . وأولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون .
قاله سبحانه قد أحاط أولياءه بالحفظ والتأييد وصانهم من
الشيطان وهذا من اللطف الالهي الذي يكون للأولياء والأتقياء .
وقد روى أن من الصحابة الكرام من خصه الله بذلك الفضل
الالهي أمثال أبي بكر وعمر .
وقد روى عن سعد بن أبي وقاص أنه قال : قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم لعمر : والذي نفسي بيده ما ليك الشيطان قط
سالكاً فجاً الا سلك فجاً غير فجك (١)

(١) صحيح مسلم بشرح النووي : ج ١٥ ص ١٦٥ ، كتاب الفضائل
باب فضائل عمر . وورد بمعناه في مجمع الزوائد : ج ٩ ص ٧٠
ونسبه الى الطبراني في الأوسط .



الفصل الثالث

الاختصاص في كفالة مريم

وجعلها الله زكراً عليه

السلام



الفصل الثالث =====

الاختصاص في كفاية مريم وجعلها الله لذكرها عليه السلام :

للنبية الصغرى - البيت - أثر كبير في سلوك الفرد ، ولقد أشار الرسول الكريم الى أثر البيت الذى ينشأ فيه الطفل على عقيدته وسلوكه فقال : * ما من مولود الا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء (١) ثم تلا قول الله تعالى **يُفْطَرَةُ** اللَّهُ الَّتِي فُطِرَ النَّاسَ عَلَيْهَا * (٢)

وقد اعتاد أولو العزم وأصحاب الهم العالية أن يحسنوا تربية اولادهم ، ويختاروا الصفوة ليقوموا بتربية اولادهم ، لأن طبائع السفهاء تعدى .

وانا كان هذا عرف البشر ، فان الله سبحانه قد اختار لمريم عليها السلام خير بيت في زمانها لتكون فيه تمهيدا لما يكون عليه حالها .

- (١) صحيح البخارى بشرح فتح البارى : ج ٨ ص ٥١٤ ،
كتاب التفسير باب لا تبديل لخلق الله : ج ١١ ص ٤٩٣ .
(٢) سورة الرم : الآية " ٣٠ " .

روى المفسرون أن امرأة عمران لفت مريم في خرقه وحملتها إلى
الأحبار في المعبد وهم خدمته .. فقالت دونكم هذه النذيرة ،
فتنافسوا فيها لأنها بنت امامهم وصاحب قربانهم عمران بن ماثان ،
وكان بنو ماثان ملوكا ، وروءسائه في بني اسرائيل ولم يكن عمران نبيا .
قال زكريا : أنا أحق بها لأن خالتها عندي . فقال له الأحبار لو
تركت لأحق الناس بها لتركت لأمتها . بل نقترح فألقوا أقلامهم في
نهر الاردن على أنه من ثبت قلمه على الماء فهو أولى بها . وقيل من ثبت
قلمه ولم يجره الماء فهي له ، وقيل من ثبت قلمه مفروزا ، كأنه غررز
في الطين فثبت قلم زكريا . وعي أقلام من نحاس يكتبون بها التوراة ،
أو مسهام الشباب كتبوا عليها اسماءهم ، وقيل عظاما ، وأمر حبسا من
خدمة بيت المقدس أن يخرج واحدا منها ، فأخرج قلم زكريا ، وقالوا :
لانرضى ، بل نلقي الأقلام في الماء (١)

وهذه القصة منسوبة إلى ابن عباس رضي الله عنه (٢) ومع أن الآية
التي معنا لم تشير إلى الاستهام أو الاقتراع ، إلا أن آية أخرى قد
أشارت إلى هذا صراحة دون تحديد لكيفيته قال تعالى : * وَمَا كُنْتَ
لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ * (٣)

(١) تيسير التفسير للقرآن الكريم : ج ٢ ص ٥٤ ،

روح المعاني : ج ٢ ص ١٣٨ .

(٢) قصص الأنبياء للشمالي : ص ٣٣٣ ، غرائب القرآن :

ج ٢ ص ١٢٨ .

(٣) سورة آل عمران : الآية " ٤٤ " .

وظاهر الآية يدل على أنهم كانوا يلقون الأقلام في شيء على وجه يظهر به امتياز بعضهم عن البعض في استحقاق ذلك المطلوب ، وليس فيها دلالة على كيفية ذلك اللقاء ، إلا أنه روى في الخبر أنهم كانوا يلقونها في الماء بشرط أن من جرى قلمه على خلاف جرى الماء فاليد له .

ثم انه حصل هذا المعنى لذكرها فصار أولى بكفالتها .
وقيل يعرف الكفيل بمرسو الأقلام وارتفاعها .
وعن الربيع أنهم ألقوا عصيهم في الماء الجارى فجرت عصا زكريا على ضد جرية الماء ففلبهم .

وقال أبو مسلم : المراد باللقاء الأقلام ما كانت تفعله الأمم من المساعدة عند التنازع فيطرحون سهما ما . يكتبون عليها أسماءهم ، فمن خرج له السهم سلم له الأمر .

قال تعالى : ﴿ فَسَاءَ مَا كَانُوا مِنَ الْمَدْحَضِينَ ﴾ (١)
وهو شبهه بالقذاح التي يتقاسم بها العرب لحم الجزور .
وانما سميت تلك السهام أقلاما ، لأنها كانت تقلم وتبرى .
قال القاضي : وقوع لفظ الأقلام على هذه الأشياء وإن كان صحيحا نظر إلى أصل الاشتقاق .

إلا أن المعروف الظاهر يوجب اختصاص القلم بهذا الذي يكتب به فوجب حمل اللفظ عليه .

(١) سورة الصافات : الآية " ١٤١ " .

* وما كنت لديهم إذ يختصمون * يتنازعون على التكفل ،
قيل هم خزنة البيت ، وقيل بل العلماء والأخبار ، وكتاب الوحي ،
ولو شبهة في أنهم كانوا من الخواص وأهل الفضل في الدين والطاعة ،
والاختصاص يحتمل أن يكون قبل الاقتراع ، ويحتمل أن يكون بعده ، ويحتمل
الاثنيين مما (١) .

والذى الحظه من هذه الآية الكريمة مايلي :

- ١ - أن أم مريم طلبت لها كافلا .
- ٢ - أن خلافا حدث حين الكفالة .
- ٣ - أن المتخاصمين احتكموا الى القرعة .
- ٤ - أن السهم خرج لتكريا عليه السلام .
- ٥ - اما كون القلم حقيقة أو مجازا ؟ وهل هو سهم أو هي عصا
كُتبت عليها الاسماء ، فهذا ما لا دليل عليه .
لكن الذى تميل اليه النفس ، أن الأقلام حقيقة لا مجاز ،
فنحن نعلم أن الكلام أصله حقيقة ، وأن الألفاظ تحمل على
الحقيقة ما لم تقم قرينة تمنع من ارادة المعنى الحقيقي ، سواء
أكانت قرينة لفظية أو عقلية .
- ٦ - أن القرعة يقرها الاسلام أيضا والاحتكام اليها عند الخلاف الذى
لا يمكن الاحتكام فيه الا بها جائز ولا ضير في هذا .

(١) غرائب القرآن ووقائب الفرقان : ج ٢ ص ١٩٢ .

٧ - أما عن وقت الاقتراع ففيه خلاف ، وللعلماء في ذلك آراء

أرجحها رأيان :

أ - الرأي الأول : أنه كأي حين ولادتها ، وحمد أمها

لها إلى الكنيسة كما سبقت الإشارة إليه .

ب - الرأي الثاني : أنه كان وقت كبرها وعجز زكريا عليه

السلام عن تربيتها .

والأول هو الأرجح وعليه أكثر العلماء والثاني مرجوح فلو

تسعه الآيات ، وهناك رأي واه ضعيف مفاده أن الاقتراع وقع مرتين ،

مرة في حال الصغر ومرة في الكبر (١) .

وقد انتهت نتيجة هذا الاقتراع إلى كفاة زكريا عليه السلام لها .

واختيار الحق سبحانه وتعالى لزكريا عليه السلام كافلا لريسم

فيه الخير ، لكي تقتبس منه علما جما وعملا صالحا ، ولأنه كان زوج

خالتها على ما ذكره ابن اسحاق وابن جرير وغيرهما ، وقيل زوج اختها

كما ورد في حديث الاسراء والمعراج (فإذا أنا بابني الخالة عيسى

ابن مريم ويحيى بن زكريا صلوات الله عليهما) (٢) .

وقد يطلق على ما ذكره ابن اسحق ذلك أيضا توسعا ، فعلى

هذا كانت في حضانة خالتها : وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله

صلى الله عليه وسلم قضى في عمارة بنت حمزة أن تكون في حضانة خالتها امرأة

(١) روح المعاني للألوسي : ج ٢ ص ١٥٩ .

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي : ج ٢ - ص ٢١٢ ، كتاب بدء الوحي

باب الاسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم وفرض الصلوات .

جعفر بن أبي طالب وقال : (الخالة بمنزلة الأم) (١)
عن البراء بن عازب عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :
(الخالة بمنزلة الأم) .

وللعلماء قراءتان في قوله الحق : * وكفلها زكريا *
الأولى : بالتشديد * كفلها زكريا * قرأه الكوفيون .
الثانية : بالتخفيف * كفلها زكريا * قراءة الباقيين .

وحجة من شدد أنه أضاف الفعل الى الله عز وجل في قوله :
* فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبأها * فأخبر عن نفسه تعالى بما فعل
بها ، كذلك يجرى (كفلها) على ذلك ، يخبر عن نفسه بأنه كفلها
زكريا أى ألزمه كفالتها ، وقدر ذلك عليه . ويسر له ، فيكون (زكريا)
المفعول الثاني (كفلها) لأنه بالتشديد يتمدى الى مفعولين .
وحجة من خفف أنه أسند الفعل الى زكريا ، فأخبر الله عنه
أنه هو الذى تولى كفالتها والقيام بها ، بدلالة قوله : * ان يلقون
أقلامهم أيهم يكفل مريم * فأخبر عنهم أنهم تنازعوا في كفالتها ، وتشاجروا
في الدين ، حتى رموا بأقلامهم التي كانوا يكتبون بها الوحي ، واستهموا
بها على كفاة مريم ، فخرج قلم زكريا باذن الله وقدرته ، فكفلها زكريا .
فالفعل مسند اليه ، فيجب تخفيف (كفلها) لذلك وهو الاختيار ،

(١) / تفسير ابن كثير : ج ١ ص ٣٦٠ .

والحديث في صحيح البخارى شرح فتح البارى : ج ٥ ص ٣٠٣ كتاب
الصلح باب كيف يكتب هذا ما صالح فلان بن فلان بن فلان ،
كشف الخفا : ج ١ ص ٣٧٣ رقم ١١٩٣ ، سنن الترمذى :
ج ٣ ص ٢٠٩ أبواب البر والصلة باب بر الخالة ، سنن ابوداود
كتاب الطلاق باب من أحق بالولد : ج ٢ ص ٢٨٥ .

لأن التشديد يرجع الى التخفيف ، لأن الله ان كفلها زكريا ، كفلها
زكريا بأمر الله له ، ولأن زكريا ان كفلها فعن شئقة الله وقدرته وإرادته ،
فعلى ذلك فالقراءتان متداخلتان . (١)

وللعلماء رأيان وفي زمن الكفالة ، هل كانت من لحظة الميلاد ،
أم بعد الرضاعة ؟

الجمهور من المفسرين على أن الكفالة من لحظة الميلاد .
ومن المفسرين من قال : أن الكفالة بعد الفطام ولهم على ذلك
دليلان :

الدليل الأول : أنه تعالى قال : * وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا * ، ثم
قال : * وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا * وهذا يوحي أن تلك
الكفالة كانت بعد ذلك النبات الحسن .

الدليل الثاني : أنه تعالى قال : * وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا
زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا
قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ * (٢)

وهذا يدل على أنها فارقت الرضاع وقت تلك الكفالة .
أما أصحاب الرأي الأول (الجمهور) فقد قالوا أن الواو
لا توجب الترتيب فلعل النبات الحسن وكفالة زكريا حصلوا معا . (٣)

(١) الكشف عن وجوه القراءات السبع : ج ١ ص ٣٤٢ .

(٢) سورة آل عمران : الآية " ٣٧ " .

(٣) مفاتيح الغيب للفخر الرازي : ج ٨ ص ٢٩ .

الفصل الرابع

إكرام الله لمريم برزق من عنده وهي في المحراب
وأثر ذلك في طلب زكريا عليه السلام
من الله ذرية طيبة

- آراء العلماء في الكرامة والمراد منها .
- الأدلة على كرامات الأولياء .
- أثر مشاهدة زكريا للرزق الحسن في طلبه
الولد من الله تعالى .

الفصل الرابع

=====

اكرام الله لمرم برزق من عنده وهي في المحراب
وأثر ذلك في طلب زكريا عليه السلام من الله نذرية طيبة

وكان زكريا عليه السلام كلما دخل عليها المحراب وجد عندها رزقا .

قال مجاهد وعكرمة وسميد بن جبير وأبو الشعثاء وإبراهيم النخعي
والضحاك وقتادة والربيع بن أنس وعطية العوفي والسدي : يعني وجد عندها
فاكهة الصيف في الشتاء وفاكهة الشتاء في الصيف .

وعن مجاهد (وجد عندها رزقا) أي علما أو قال صحفا فيها

علم (١)

وعن سفيرة من إبراهيم : فاكهة في غير حينها .

وعن محمد بن اسحاق قال : كفلها بعد هلاك أمها ، فضعها إلى
خاليتها أم يحيى حتى إذا بلغت أدخلوها الكنيسة لنذر أمها الذي نذرت
فما ، فجعلت تنبت وتزيد قال : ثم أصابت بني إسرائيل أزمة وهي على ذلك
من حلها ، حتى ضعف زكريا من حملها فخرج على بني إسرائيل فقال :

يا بني إسرائيل تعلمون والله لقد ضعفت من حمل ابنة عمران ، فقالوا :

ونحن لقد بدنا وأصابنا من هذه السنة ما أصابكم فتدافعوها بينهم ، وهم
لا يرون لهم من حلها بدا ، حتى تقارعوا بالأقلام . فخرج السهم بحملها
على رجل من بني إسرائيل نجاريقال له جريج ، قال : فمرفت مريم فسي
وجهن شدة مؤونة ذلك له ، فكانت تقول له : يا جريج أحسن بالله
الصن فان الله سيرزك ، فجعل جريج يرزق بمكانها فيأتيها
كل يوم من كسبه بها لحها فإذا أدخله عليها وهو في الكنيسة

(١) تفسير ابن كثير : ج ١ ص ٣٠ ، غرائب القرآن : ج ٢ ص ١٢٩ .

أنما الله وكثره ، فيدخل عليها زكريا فبرى عندها فضلا من الرزق ليس
بقدر ما يأتيها به جريج فيقول يا مريم أنى لك هذا فتقول : هو من
عند الله ان الله يرزق من يشاء بغير حساب * (١)

ومع كثرة الآثار في ذلك الا أننا نرجح التعميم دون التخصيص ،
فالله سبحانه أشار الى وجود رزق ، سواء كان في غير حينه أم في حينه
ولكنه أتى بغير الطريقة المعتادة ، والاطلاق أولى فيكون أوسع في معنى
الآية وخاصة ان زكريا عليه السلام لم ترد عنه آثار تشير الى نوع الرزق .
وما ذهب اليه ابن اسحاق لا دليل عليه ، وهو ما انفرد به ، والتذييل
في الآية يدل على سعة عطاء الله ، سواء كان قوله سبحانه * ان الله
يرزق من يشاء بغير حساب * من كلامه جل في علاه أو من كلام مريم ،
فان كان من قوله سبحانه فيكون خيرا من الله أنه يسوق الى من يشاء رزقه
بغير احصاء ولا عدد يحاسب عليه عبده ، لأنه جل ثناؤه لا ينقص سوقه
ذلك اليه . كذلك خزائنه ولا يزيده اعطاؤه اياه ومحاسبته عليه في ملكه
وفيما لديه شيئا ، ولا يعزب عنه علم ما يرزقه ، وانما يحاسب من يعطى
ما يعطيه من يخشى النقصان من ملكه ودخول النفاذ عليه بخروج ما خرج من
عنده بغير حساب ومن كان جاهلا بما يعطى على غير حساب (٢) .

وفي التعبير من المدح أنه غير خائف نفاذ خزائنه فيحتاج الى
حساب ما يخرج منها ، اذا كان الحساب من المعطي ، انما يكون ليعلم

(١) تفسير الطبري : ج ٦ ص ٣٥٣ ، ٣٥٨ .

(٢) تفسير الطبري : ج ٦ ص ٣٥٩ .

قدر العطاء الذى يخرج من ملكه الى غيره لكلا يتجاوز في عطاياه التى
ما يحجب به ، فهنا تبارك وتعالى غير خائف نفاذ خزائنه ولا انتقاص
شئ من ملكه بمطائه ما يعطى عباده ، فيحتاج الى حساب ما يعطى
واحصاء ما يقبى فذلك المعنى الذى فى قوله : (والله يرزق من يشاء
بغير حساب) (١)

ويمكن أن يكون تذييل الآية من كلام مريم عليها السلام ايماناً بها
بسعة رزق الله وعظم ملكه ، وطلاقة قدره وظلان الاسباب والمسببات ان
أراد ذلك .

(١) تفسير الطبرى : ج ٤ ص ٢٧٥ .

آراء العلماء في الكرامة والمراد منها :

لقد أشارت الآية الكريمة الى أن أمرا خارقا للعادة قد ظهر
على يد مريم عليها السلام وخوارق العادات التي تظهر على يد فرد
من الأفراد اما أن تكون مقرونة بالتحدي بأن يتحدى من ظهرت على يده
الناس أن يأتوا بمثل ذلك أم لا .

فان تحدى ولم يستطع البشر مثل ذلك وأعلن أنه نبي فما ظهر
فهو آية صدقه على نبوته .

وان ظهرت خوارق العادات على يد فرد من الأفراد ، فغير
مقرونة بالتحدي ، فاما أن تكون على يد عبد ظاهر الصلاح ، أو مستور
أو فاسد سعي السلوك فان ظهرت على يد الأول فهي كرامة ، وان ظهرت
على يد الثاني فهي معونة وان ظهرت على يد الثالث فهي استتدراك
ومهانة .

وما ظهر على يد مريم عليها السلام ، انما هو من باب الكرامة
يقول الامام الفخر الرازي في تفسيره : ووجه الاستدلال أنه
تمالى أخبر أن زكريا كلما دخل عليها المحراب وجد عندها رزقا قال
يا مريم أنى لك هذا ، قالت : هو من عند الله .

فحصول هذا الرزق عندها اما ان يكون خارقا للعادة أولا يكون ،
فان قلنا انه ليس خارقا للعادة فهو باطل من خمسة أوجه :

الوجه الأول :

أن على هذا التقدير لا يكون حصول ذلك الرزق عند مريم دليلاً على علو شأنها وشرف درجتها وامتيازها عن سائر الناس بتلك الخاصية .
ومعلوم أن المراد من الآية هذا .

الوجه الثاني :

انه تعالى قال بعد هذه الآية * هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ
قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً * .
والقرآن دل على أنه كان آيساً من الولد بسبب شيخوخته
وشيوخة زوجته ، فلما رأى انخراق العادة في حق مريم طمع فسي
حصول الولد فيستقيم قوله * هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ * .
أما لو كان الذي نشاهده في حق مريم غير خارق للعادة لم
تكن مشاهدة ذلك سبباً لطمعه في انخراق العادة بحصول الولد من
المرأة الشبيخة العاقر .

الوجه الثالث :

أن التنكير في قوله تعالى : * وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا * يدل على
تعظيم حال ذلك الرزق كأنه قال : رزقا : أى رزق غريب عجيب ،
وذلك انما يفيد الفرض اللائق لسياق الآية لو كان خارقاً للعادة .

الوجه الرابع :

أنه تعالى قال : * وجعلناها وابنها آية للعالمين *
ولولا أنه ظهر عليهما من الخوارق فاصح ذلك ، فان قيد : لم لا يجوز
أن يقال : المراد من ذلك هو أن الله تعالى خلق لها ولدا من غير
ذكر ؟ قلنا : ليس هذا بآية ، بل يحتاج تصحيحه الى آية ، فكيف
نحمل الآية على ذلك بل المراد من الآية ما يدل على صدقها وطهارتها
وذلك لا يكون الا بظهور خوارق المعاديات على يدها كما ظهرت على يد
ولدها عيسى .

الوجه الخامس :

ما تواترت به الروايات أن زكريا عليه السلام كان يجد عندها فاكهة
الشتاء في الصيف وفاكهة الصيف في الشتاء ، فتبين أن الذي ظهر فكل
حق مريم عليها السلام كان فعلا خارقا للعادة فنقول : اما أن يقال :
انه كان معجزة لبعض الأنبياء أو ما كان كذلك ، والأول باطل لأن النبي
الموجود في ذلك الزمان هو زكريا عليه السلام ، ولو كان ذلك معجزة له
لكان هو عالما بحاله وشأنه ، فكان يجب أن لا يشتبه أمره عليه وان لا يقول
لمريم * أنى لك هذا * وأيضا قوله : * هنالك دعا زكريا ربه *
مشمع بأنه لما سألها عن أمر تلك الأشياء ، ثم أنها ذكرت له أن ذلك من
عند الله فهناك طمع في انخراق العادة في حصول الولد من المرأة العقيمة
الشيخة المعاقرة .

وذلك يدل على أنه ما وقف على تلك الأحوال إلا باخبار مريم ،
ومتى كان الأمر كذلك ثبت أن تلك الخوارق ، ما كانت معجزة لزكريا
عليه السلام ، فلم يبق إلا أن يقال ، أنها كانت كرامة لمعيسى عليه
السلام ، أو كانت كرامة لمريم عليها السلام ، وعلى التقديرين فالمقصود
حاصل ، وهذا هو وجه الاستدلال بهذه الآية على كرامات الأولياء .

اعتراض الجبائي على هذا الكلام : (١)

اعترض ابو علي الجبائي على هذا الكلام ، وقال : لم لا يجوز
أن يقال أن تلك الخوارق كانت من معجزات زكريا عليه السلام ، وهما
من وجهين :

الوجه الأول :

أن زكريا دعا لها على الاجمال أن يوصل الله اليها رزقا وأنه
ربما كان غافلا عن تفاصيل ما يأتيها من الأرزاق من عند الله تعالى ، فاذا
رأى شيئا بمصينه في وقت معين قال لها : * أنى لك هذا قالت هو
من عند الله * فعند ذلك يعلم أن الله تعالى أظهر بدعائه تلك
المعجزة .

(١) غرائب القرآن و رغائب الفرقان : ج ١ ص ١٨٠ ،

الفخر الرازي : ج ٨ ص ٣١ .

الوجه الثاني :

يحتمل أن يكون زكريا يشاهد عند مريم رزقا معتادا الا أنه كان يأتيها من السماء ، وكان زكريا يسألها عن ذلك ، حذرا من أن يكون يأتيها من عند انسان يعمد اليها فقالت : هو من عند الله لا من عند غيره .

الوجه الثالث :

انا لانسلم - أى الجبائي - أنه كان قد ظهر على مريم شيء من خوارق العادات ، بل معنى الآية : أن الله تعالى كان قد سبب لها رزقا على أيدي المؤمنين الذين كانوا يرغبون في الاتفاق على الزاهدات العابرات ، فكان زكريا عليه السلام اذا رأى شيئا من ذلك خاف أنه ربما يأتيها ذلك الرزق من وجه لا ينبغي ، فكان يسألها عن كيفية الحال ، هذا مضمون ما قاله الجبائي .

الرد على الجبائي :

وهذا في غاية الضعف ، لأنه لو كان معجزا لزكريا عليه السلام ، كان ما دوننا له من عند الله في طلب ذلك ومتى كان ما دوننا في ذلك الطلب كان عالما قطعا بأنه يحصل واذا علم ذلك امتنع أن يطلب منها كيفية الحال ، ولم يبق نفيا لقوله : * هنالك دعا زكريا ربه * فائدة .

هذا هو الجواب بعينه عن الوجه الثاني .

وأما سؤاله الثالث (الوجه الثالث) ففي غاية الركاسة لأن هذا التقدير لا يبقى فيه وجه اختصاص لمريم ، بمثل هذه الواقعة ، وايضا فان كان في قلبه احتمال أنه ربما أتاعها هذا الرزق من الوجه الذي لا ينبغي فبمجرد أخبارها كيف يعقل زوال تلك التهمة ، فعلما سقوط هذه الأسئلة .

أما المعتزلة : فقد احتجوا على امتناع الكرامات بأنها دلالات صدق الأنبياء ، ودليل النبوة لا يوجد مع غير الأنبياء ، كما أن الفصل المحكم لما كان دليلا على العلم لا جرم لا يوجد في حق غير العالم .

والجواب من وجوه :

الوجه الأول :

أن ظهور الفعل الخارق للعادة دليل على صدق الدعي ، فان ادعى صاحبه النبوة فذلك الفعل الخارق للمادة يدل على كونه نبيا ، وان ادعى الولاية فذلك يدل على كونه وليا .

الوجه الثاني :

قال بعضهم : الأنبياء مأمورون بأظهارها والأولياء مأمورون بإخفائها .

الوجه الثالث :

وهو أن النبي يدعي المعجز ويقطع به ، والولي لا يمكن أن يقطع به .

الوجه الرابع :

أن المعجزة يجب انفكاكها عن المعارضة والكرامة لا يجب
انفكاكها عن المعارضة (١) .

ومن هنا تكون الآية دليلا على كرامة الصالحين واکرام الله لهم
حال حياتهم وبعد مماتهم .

وقد ورد في السنة ما يدل على أن ما حدث انما هو كرامة لمريم
عليها السلام ، كما أن كرامة مثلها قد وقعت لفاطمة بنت محمد عليه الصلاة
والسلام وكذا لكثير من الصحابة .

روى جابر بن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أقام
أياما لم يطعم طعاما حتى شق ذلك عليه فطاف في منازل أزواجه
فلم يصيب في بيت أحد منهم شيئا ، فأتى فاطمة رضي الله عنها ، فقال
يا بنية هل عندك شيء ؟ آكل فاني جائع ؟ فقالت : لا والله بأبي أنت
وأمي - فلما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من عندها بعثت اليها
جارة لها برغيفين مضعه لحم ، فأخذته منها ووضعت في جفنه وغطت
عليه وقالت : لأوثرن بها رسول الله صلى الله عليه وسلم على نفسي ومن .
عندى وكانوا جميعا محتاجين الى شبعة من طعام ، فبعثت حسنا وحسنا
الى جدهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فرجع اليها فقالت : بأبي أنت
وأمي يا رسول الله قد اتانا الله بشيء فخبأت لك قال : فهلبي به
فأتي به فكشف عن الجفنة فاذا هي ملوثة خبزا ولحما فلما نظرت اليه

(١) التفسير الكبير ، للفخر الرازي : ج ٨ ص ٣٠ - ٣٢ .

بهتت وعرفت أنها بركة من الله فحمدت الله تعالى ، وصلت على نبيه ، فقال عليه الصلاة والسلام (١) من أين لك هذا يا بنيتي ؟ قالت : هو من عند الله ان الله يرزق من يشاء بغير حساب ، فحمد الله رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : الحمد لله الذي جعلك شبيهة بسيدة نساء بني اسرائيل فانها كانت اذا رزقها الله رزقا حسنا فسللت عنه ؟ قالت هو من عند الله ان الله يرزق من يشاء بغير حساب ، وحدث رسول الله صلى الله عليه وسلم الى علي رضي الله عنه فأتى فأكل الرسول وعلي وفاطمة والحسن والحسين وجميع أزواج النبي عليه الصلاة والسلام . . حتى شبعوا صقيت الجفنة كما هي ، قالت فاطمة رضي الله عنها : وأوسعت منها علي جميع جيرانني ، وجعل الله فيها بركة وخيرا كثيرا .

وكان أصل الجفنة رغيفين مضمة لحم والباقي بركة من الله

تعالى . (٢)

وهذا نص على أن هذه كرامة لفاطمة ، وما في الآية كرامة لمريم عليها السلام ، لا معجزة لسيدنا محمد في هذا ، : وذكرنا في الآية والحق أن هذا كرامة وهي ثابتة للأولياء الصالحين من الأحياء كما ذكرنا .

(١) قصص الأنبياء للثعالبي : ص ٣٣٥ ، غرائب القرآن

ورغائب الفرقان : ج ٢ ص ١٢٩ .

(٢) تيسير التفسير : ص ٥٥ - ٥٦ ، قصص الأنبياء للثعالبي :

ص ٣٣٤ - ٣٣٥ .

قال التاج السبكي في سياق حجج منكرى جواز وقوع الكرامات
في طبقات الشافعية :

الحجة الأولى :

قالوا : لو جازت الكرامة لأشتبهت بالمعجزة فلا تدل المعجزة
على نبوت النبوة .

والجواب منع الاشتباه بقرن المعجزة بدعوى النبوة دون الكرامة
فهي إنما تقتزن بكمال اتباع النبي من الولي ، وأيضا فالمعجزة يجيب
على صاحبها الاشتهار والكرامة منها على الاخفاء ، ولا تظهر الا من
الندرة والخصوص لا على الكثرة والعمم ، وأيضا فالمعجزة يجوز أن تقع
بجميع خوارق المعاديات والكرامة تختص ببعضها . .

الحجة الثانية :

قالوا : لو جاز ظهور خوارق المعاديات على أيدي الصالحين
لما أمكن أن يستدل على نبوة الأنبياء بظهورها على أيديهم لجواز أن
تظهر على يد الولي سرا ، فان من أصول معظم جماعتكم أن الأولياء
لا يظهرون الكرامات ولا يدعون بها ، وإنما تظهر سرا وراء ستور ،
ويتخصص بالاطلاع عليها آحاد الناس ، ويكون ظهورها سرا مستمرا
بحيث لا يتحقق بحكم المعتاد ، فإذا ظهر نبي وتحدى بمعجزة جاز
أن تكون ما اعتاده أولياء عصره من الكرامات فلا يتحقق في حقه خرق
المعاديات ، فكيف السبيل الى تصديقه مع عدم تحقق خرق الموائد
في حقه ؟ وأيضا تكرر الكرامة يلحقها بالمعتاد في حق الأولياء وذلك
بصددهم عن تصحيح النظر في المعجزة اذا ظهر نبي في زمنهم .

وقال في الجواب - أى التاج السبكي - لأئمتنا وجهان :

الأول : منع توالي الكرامات واستمرارها حتى تصير في حكم العوائد

وانما يجوز ظهورها على وجه لا تصير عادة فلا يلزم ما ذكره .

الثاني : أنه يجوز توالي الكرامات على وجه الاختفاء بحيث لا يظهر

ولا يسمع ولا يعتاد لئلا تخرج الكرامات عن كونها كرامات .

يقول السيد رشيد رضا معقبا على هذا الكلام :

وأقول أن المحققين من الصوفية يوافقون علماء الكلام والأصول

على منع توالي الكرامات وتكرارها ومنع اظهارها .

قال الشيخ محي الدين بن العربي : أن ما يتكرر لا يكون كرامة

لأنه يكون عادة وانما الكرامة من خوارق العادات .

وقال الشيخ احمد الرفاعي : أن الأولياء يستترون من الكرامة

كما تستتر المرأة من دم الحيض ، وصرحوا بأنها ليست بشرط للولاية

ولا دليل عليها . (١)

والحق أن ما ذهب اليه المعتزلة وبعض أهل السنة متناقض

مع الآيات القرآنية الناطقة بكرامات الصالحين ، وكذلك مع السنة المطهرة

بعض أحداث الصحابة والتابعين وما يقع في عصرنا الحالي من هذا النوع

من الصالحين ، والا فكيف يمكن تفسير هذه الأحداث :

(١) الوحي المحدث ، محمد رشيد رضا : ص ٢١٤ ، ٢١٥ .

الآية على كرامات الأولياء :

١ - قصة احضار الذي عنده علم من الكتاب لعرش بلقيس وهو جالس

بين يدي سليمان عليه السلام ، قال تعالى في كتابه الكريم :

* قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي
مُسْلِمِينَ * قَالَ عَفَرْتُ مِنَ الْجِنَّ أَنَا أَتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ
مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٍّ أَمِينٌ * قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ
أَنَا أَتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ
هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ
لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّيَ عَنِّي كَرِيمٌ * (١)

٢ - قصة أهل الكهف واقامتهم مدة من الزمان في داخل الكهف

ذكرها الله في كتابه بقوله : * وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ
سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا * (٢)

٣ - وفي عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وعده وقعت كرامات

لكثير من الصحابة وصل الأمر ببعضهم انه لم يكن يدرك الحدث
وانه كرامة .

من ذلك ما كان من أسيد بن حضير حينما كان يقرأ سورة من القرآن

فنزل من السماء مثل الظلة فيها أمثال السرج وهي الملائكة نزلت لقراءته .

(١) سورة النمل : الآيات " ٣٨ - ٤٠ " .

(٢) سورة الكهف : الآية " ٢٥ " .

كما جاء في الحديث الصحيح عن اسيد بن حضير قال :
(بينما هو يقرأ من الليل سورة البقرة وفرسه مريوط عنده ان
جالت الفرس فسكتت فقرأ فجالت الفرس فسكتت وسكتت الفرس ثم
قرأ فجالت الفرس فانصرف وكان ابنه يحيى قريباً منها فأشفق أن
تصيبه فلما اجتاز رفع رأسه الى السماء حتى ما يراها فلما أصبح حدث
النبي صلى الله عليه وسلم فقال : اقرأ يا ابن حضير اقرأ يا ابن حضير
قال فأشفقت يا رسول الله أن تطأ يحيى وكان منها قريباً فرفعت رأسي
فانصرفت اليه فرفعت رأسي الى السماء فإذا مثل الظلة منها أمثال
المصابيح فخرجت حتى لا أراها قال وتدرى ماذا قال : لا ،
قال : تلك الملائكة دنت لصوتك ولو قرأت لأصبت ينظر الناس اليها
لاتتواري منهم) (١)

وكانت الملائكة تسلم على عمران بن حصين (٢) .

(١) صحيح البخارى : ج ٦ ص ٢٣٤ ، كتاب فضائل القرآن ،

باب نزول السكينة والملائكة عند قراءة القرآن .

(٢) هو عمران بن حصين بن عبيد بن خلف .

روى عن النبي صلى الله عليه وسلم وكان اسلامه عام خير ، ذكر عن
نفسه أنه كان يسلم عليه ، وان ابن زياد أمرني فاكتويت فاحتبس عني
حتى ذهب أثر الكي وكان في مرضه تسلم عليه الملائكة فاكتسوى
ففقد التسليم ثم عادت اليه .

(الاصابة : ج ٤ ص ٧٠٥ ، ٧٠٦) .

وعباد بن بشر (١) وأسيد بن حضير خرجا من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم في ليلة مظلمة وإذا نور بين أيديهما حتى افترقا فتفرق النور معهما .

فلما افترقا افترق الضوء معهما . (٢)

وخبيب بن عدي (٣) كان أسيرا عند المشركين بمكة وكان يوثق بمنب يأكله وليس بمكة عنب .

(١) هو : عباد بن بشر بن وحش بن زغبة ، شهد بدرا واستشهد باليمامة وهو ابن ٤٥ سنة .

(الاصابة : ج ٣ ص ٦١٢) .

(٢) صحيح البخاري ، شرح فتح الهاري : ج ٧ ص ١٢٥ ، كتاب مناقب الأتصار - باب منقبة أسيد بن حضير وعباد بن بشر رضي الله عنهما .

(٣) خبيب بن عدي بن مالك : شهد بدرا واستشهد في عهد النبي صلى الله عليه وسلم .

وقصة قطف المنب مروية عن أبي نجيح عن ماوية بنت خبيب وكانت قد أسلمت فذكرت القصة .

كتاب الاصابة : ج ٢ ص ٢٦٣ .

كما جاء في الحديث الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال :
بعث النبي صلى الله عليه وسلم بسرية عينا وأمر عليهم عاصم بن ثابت وهو
جد عاصم بن عمر بن الخطاب فانطلقوا حتى إذا كان بين غسفان ومكة
ذكروا لحى من هذيل يقال لهم : بنو لحيان فتبعوهم بقريب من مائة
رام فاقتصوا آثارهم حتى أتوا منزلا نزله فوجدوا فيه نوى تمر تزودوه من
التدنية فقالوا : هذا تمر يثرب فتبعوا آثارهم حتى لحقوهم فلمّا
انتهى عاصم وأصحابه لجأوا الى فدند وجاء القوم فأحاطوا بهم فقالوا
لكم العهد والميثاق ان نزلتم إلينا أن لا نقتل منكم رجلا فقال عاصم أما
أنا فلا أنزل في ذمة كافر الله أخبر عنا نبيك فقاتلوهم حتى قتلوا عاصما
في سبعة نفر بالنبل وقي خبيب وزيد ورجل آخر فأعطوهم العهد
والميثاق فلما أعطوهم العهد والميثاق نزلوا اليهم فلما استمكنوا منهم
حلوا أوتار قسيهم فربطوهم بها فقال الرجل الثالث الذى معها هذا
أول الفدر فأبى أن يصحبهم فحرروه وعالجوه على أن يصحبهم فلم
يفعل فقتلوه وانطلقوا بخبيب وزيد حتى باعوهما بمكة فاشتري خبيبا
بنو الحارث بن عامر بن نوفل وكان خبيب هو قتل الحارث يوم بدر فكث
عندهم أسيرا حتى إذا أجمعوا قتله استعار موسى من بعض بنات الحارث
استنجد بها فأعارته قالت : ففعلت عن صبي لي فدرج اليه حتى أتاه
فوضعه على فخذه فلما رأيته فزعت فزعة عرف ذاك مني وفي يده الموسى
فقال : أتخشين أن أقتله ما كنت لأفعل ذاك ان شاء الله وكانت تقول
مارأيت أسيرا قط خيرا من خبيب لقد رأيته يأكل من قطف عنب وما بمكة
يومئذ ثمرة وأنه لموث في الحديد وما كان الا رزق رزقه الله ، فخرجوا به

من الحرم ليقتلوه فقال : دعوني أصلي ركعتين ثم انصرف اليهم فقال :
لولا أن تروا أن ما بي جزع من الموت لذدت ، فكان أول من سنّ الركعتين
عند القتل هو ، ثم قال : اللهم احصهم عددا ، ثم قال :

ما أبالي حين أقتل مسلما

على أي شيء كان لله مصرعي

وذلك في ذات الاله وان يشأ

بيارك على أوصال شلومزع

ثم قام اليه عقبه بن الحارث فقتله ومثت قريش الى عاصم ليؤموا
بشيء من جسده يعرفونه وكان عاصم قتل عظيما من عظمائهم يوم بدر
فميت الله عليه مثل الظلّة من الدبر فحمته من رسلهم فلم يقدرُوا منه
على شيء . (١)

وعامر بن فهيرة (٢) قتل شهيدا فالتمسوا جسده فلم يقدرُوا

عليه .

وكان لما قتل رفع قرآن عامر بن الطفيل وقد رفع .

(١) صحيح البخاري : ج ٥ ص ١٣٢ - ١٣٣ .

(٢) عامر بن فهيرة التميمي مولى أبي بكر اشتراه واعتقه فكان حسن
الاسلام ، استشهد في بدر معونة ، قال ابن اسحاق في
روايته عن عامر بن الطفيل كان يقول : من رحل منكم لما قتل
رأيته رفع بين السماء والأرض ؟ فقالوا : عامر بن فهيرة .

(الاصابة : ج ٣ ص ٥٩٥) .

كما جاء في الحديث الصحيح عن أبي اسامة قال : قال هشام
ابن عروة فأخبرني أبي قال : لما قتل الذين بيثر معونة وأسير عمرو بن
أمية الصخري قال له عامر بن الطفيل من هذا فأشار الى قتيل فقال
له عمرو بن أمية هذا عامر بن فهيرة فقال لقد رأيته بعدما قتل رفع
الى السماء حتى اني لا أنظر الى السماء بينه وبين الأرض ثم وضع فأتى
النبي صلى الله عليه وسلم خبرهم فنعاهم فقال : ان أصحابكم قد
أصيبوا وانهم قد سألوا ربهم فقالوا : ربنا أخبرنا بما رضينا
عك ورضيت عنا فأخبرهم عنهم . . . (١)

وخرجت أم ايمن (٢) مهاجرة وليس معها زاد ولا ماء فكادت

(١) صحيح البخارى : ج ٥ ص ١٣٦ كتاب المفازى باب غزوة

الرجيع وذكوان وثر معونة . . .

(٢) أم ايمن : مولاة النبي صلى الله عليه وسلم وحاضنته .

اسمها بركة ، ورثها عن أمه تزوجت عبيد بن زيد فولدت لسه
ايمن ، روى انها لما هاجرت است بالمنصرف دون الروحاء
فعطشت وليس معها ماء وهي صائفة فأجهدتها العطش فدلني
عليها من السماء دلون ماء بوشاء أبيض فشربت حتى ارتوت .

(الاصابة : ج ٨ ص ١٦٩ - ١٧٠) .

تموت من العطش فلما كان وقت الفطر وكانت صائمة سمعت حساً على رأسها فرفعته فإذا دلو معلق فشربت منه حتى رويت . .

والبراء بن مالك (١) كان إذا أقسم على الله تعالى أبر قسمه ، وكان الحرب إذا اشتد على المسلمين في الجهاد ، يقولون يا براء أقسم على ربك ، فيقول يارب أقسم عليك لما منحتنا أكتافهم فيهنم العدو فلما كان يوم القادسية قال : أقسمت عليك يارب لما منحتنا أكتافهم وجعلتني أو شهيد فمنحوا أكتافهم وقتل البراء شهيدا وقد شرب خالد بن الوليد (٢) السم ، حين تناول القدح من يد الخصم وأمسكه بيده قائلا : بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء ثم شرب السم فشرب فلم يضره .

(١) البراء بن مالك بن النضر الانصاري ، شهد مع الرسول صلى الله عليه وسلم المشاهد كلها الا بدر ، استشهد في خلافة عمر سنة عشرين .
روى الترمذي * (ربأشمت أغبر لو أقسم على الله لأبره منهم أنس بن مالك *)

الاصابة : ج ٢ ص ٢٧٩ ، ٢٨٢ .
(٢) خالد بن الوليد بن المغيرة سيف الله ، أحد اشراف قريش في الجاهلية اسلم سنة سبع بعد خيبر شهد غزوة مؤتة مع زيد بن حارثة واسندت اليه الراية في النهاية قال عنه الرسول صلى الله عليه وسلم انه سيف من سيوف الله . الكامل : ج ٢ ص ٣٩١ .

كما أن عمر بن الخطاب (١) قد أرسل جيشا وأمر عليهم أحد جنوده ، وكان يسمى سارية حينما عمر يخطب جمع ينادى على المنبر ياسارية الجبل ، ياسارية الجبل ، ولما قدم رسول الجيش قال لمصر : يا أمير المؤمنين لقينا عدونا فهزمونا ، فإذا بصائح ياسارية الجبل فأسندنا ظهورنا بالجبل فهزمهم الله .

والعلاء بن الحضرمي كان عامل رسول الله صلى الله عليه وسلم على البحرين ، وكان يقول في دعائه " ياعليم يا حليم يا علي يا عظيم فيستجاب له " (٢)

وغير ذلك بما لا يمكن حصره كثير ، ويمكن الرجوع الى كتاب حلية الأولياء لأبي نعيم ، وكتاب الرسالة القشيرية كتاب حاشية المرجاني على شرح جلال الدين الوداني وكذا كتب السيرة المعطرة للوقوف على الكثير من هذا ،

ونخلص ما سبق ما يلي :

-
- (١) عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى كان اسلامه نصرا للمسلمين استجابة لدعوة الرسول صلى الله عليه وسلم " اللهم أيد الاسلام بأحد العمرين " لقبه الرسول بالفاروق .
الاصابة : ج ٤ ص ٥٨٨ ، ٥٩١ .
- (٢) حاشية المرجاني على شرح جلال الدين الوداني : ج ١ ص ٩ .

- ١ - أن الرزق الحسن كان كرامة لمريم عليها السلام .
- ٢ - أنها شاركت بهذه الكرامة كثيرين ممن أجرى الله على أيديهم كرامات .
- ٣ - الكرامة لا تقرن بالتحدي ولا تستمر بين يدي صاحبها غالبا .
- ٤ - لم يكن هذا الرزق ^{لها} رهاصا ليلاد عيسى عليه السلام أو الحمل به .
- ٥ - هذا الرزق ليس معجزة لذكرها كما ذهب الى ذلك البعض مدعين أنه من باب تخفيف المؤونة عنه لشدة الفقر وضيق الحال .
- ٦ - ان الكرامات باقية ولا يمكن نفيها وما ذهب اليه المعتزلة انما دفعهم اليه حسن النية وخشيتهم من الوقوع في اللبس بين الكرامة والمعجزة .
- ٧ - ما يجب على المؤمنين انما هو الايمان بوجود رزق بين يدي مريم عليها السلام بصرف النظر عن نوعه ومقداره ، لأن العلم به لا ينفع والجهل به لا يضر .
- ٨ - يفرق بين الكرامة والسحر بمثل ما ذكره الشيخ الباقمي رحمه الله وغيره من المحققين . الفارق بينهما كون السحر يظهر على يد الفاسق والزنديق والكافر الذين هم على غير شريعة واتباع ، وأما الكرامة فلا تقع الا على يد من بالغ في اتباع للشريعة حتى بلغ الفاية فهذا هو الفارق بينهما (١) .

(١) النشر الطيب شرح الشيخ الطيب : ص ١٠٢ ، ١٠٣ .

٩ - وجوب بذل الجهد قدر الطاقة في طاعة الله حتى يصل الفرد الى مرتبة الولاية وعندها يكون الأمان المطلق له لقول الحسيق سبحانه وتعالى : * أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ * (١)

(١) سورة يونس : الآيتان " ٦٢ ، ٦٣ " .

أثر مشاهدة زكريا عليه السلام للرزق الحسن في طلبه الولد من الله سبحانه وتعالى :

لقد توجه زكريا عليه السلام الى ربه بكل كيانه ، بكل ماله فيه من يقين وثقة في رحمته سبحانه بعد أن عاين العجب وشهد الكرامة ، رزقا ينزل الى مريم من غير حساب وفي غير الزمان والأوان ، مما أيقظ فيه الأمل الذي كان كثيرا ما يراوده ويتمنى لو يكون له عقب يرث خصال الخير وتبعة الريادة لبني اسرائيل الذين لا يصلحون بغير نبي ، والحق أن الأبوة شعور ملح على الانسان بعد زواجه ، وتكون غريزة الوالدين وحب الهناء لدى الانسان في الأيام الأولى من حياته الزوجية ، فإذا امتد الزمن كانت هوارق الأمل باعثة على الطلب لدى الانسان وخاصة اذا شاهد حدثا خارقا ، أو أمرا غير متوقع ربما يرى فيه أن لو كان له مثله من الخوارق ليرى الشوق داخله وهكذا كان الشوق الى الولد لدى زكريا عليه السلام .

ان الكافل لمريم والقائم على أمرها ، ومع ذلك يدخل على مريم فيرى عجا ويتكرر ذلك فيخرج عن حد المصادقة ، انه يجد فاكهة الصيف في الشتاء وفاكهة الشتاء في الصيف ، وطعاما وشرابا ليس في بيته ،

ويسألها سواء العتجب (أنى لك هذا) فتجيبه في طمانينة وقوة يقين * هو من عند الله ان الله يرزق من يشاء بغير حساب * ، واجابة مريم عليها السلام فيها الكثير ما يفتح الأمل أمام كل راغب . لقد ذكرت أن الله يرزق ، وكلمة الرزق تشمل المال ، والولد ، والصحة ، والعلم ، وغير ذلك . وهذا العطاء غير محدد ولا مقدر بقدر ، بل هو بغير حساب ، لأن قدرته مطلقة وعطاءه غير محدود .

وفي الاجابة مايولد لدى زكريا عليه السلام الرغبة القوية في القرية الطيبة الى ربه قائلا : * رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ * (١) .

وقد أكدت سورة مريم أن هذا الدعاء كان بعد بلوغ زكريا عليه السلام قدرا من السن وصار جسمه الى حالة يصعب معها مثل ذلك ، ولكن الأمل القوي والمشهد الذى رآه يمه على الطلب ، قال تعالى : * ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا * إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا * قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْئًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا * (٢)

وهن العظم شئى عن الضعف الجسمي فاذا كان العظم وهو أقوى مافي البدن ، هل وأساسه قد أصابه الوهن فمن باب أولى بقيصة البدن وشيب الرأس الذى عم شعره كله أكبر دليل على ضعفه الظاهر .

(١) سورة آل عمران : الآية " ٣٨ " .

(٢) سورة مريم : الآيات " ٢ ، ٣ ، ٤ " .

وأما ما تعود من الكرم الذي لم يتخلف قط فهو قوله :

* ولم أكن بدعائك رب شقيا * .

فهذا يعني أنه لم يكن مردود الدعاء من قبل ، لو أنه رتب بعد ذلك فانه يكون محيطا للأنعام الأول ، والمنعم لا يسمى لأحياء أنعامه كما أن مخالفة العادة شاقة على النفس ، بل ان الجفاء من يتوقع منه الانعام من أشق الأشياء على النفس (١)

وقد استجاب الله دعاء زكريا عليه السلام وكانت الاجابة محسنة

استغراب ولم يكن الاستغراب بالنسبة للقدرة وطلاقتها ، بل لأن

النفس لم تألف مثل هذا ، وانما هي مكرمة لزكريا عليه السلام ، يصور

القرآن الكريم هذا الحدث في قول الحق سبحانه وتعالى : * فَنَادَتْهُ

الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يَصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ

مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ * قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي

غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ اللَّهُ يَفْعَلْ مَا يَشَاءُ * (٢)

وقد بينت سورة مريم أن الله سبحانه قد يسر على نفس زكريا

التلقي بضرب المثل ولفته الى خلقه قال تعالى : * قَالَ كَذَلِكَ قَالَ

رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكْ شَيْئًا * (٣)

(١) تفسير الفخر الرازي : ج ٢١ ص ١٨٢ .

(٢) سورة آل عمران : الآية " ٤٠ " .

(٣) سورة مريم : الآية " ٩ " .

ثم ذكر الدليل على الاعلام بالحمل هو امساك لسانه عن الحديث ثلاثة ايام وكان الدليل هذا بناء على طلبه أيضا * قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تَكَلَّمَ النَّاسُ كَلَامَ لَيْالٍ سَوِيًّا * (١)

وللمفسرين في سبب طلب الآية أقوال منها :

١ - أنه طلب الآية للتمصرف على وقت الطلوع ، فان البشارة سيقب

اليه مطلقة من غير تحديد لوقتها ، وهذا من الأمور الخفية ،

فطلب الآية لتحديد الوقت قال بذلك زاده في حاشيته ورجحه

الرازي وكذا رجحه الألوسي ونسبه للزجاج . (٢)

٢ - قال ابن الانباري : وجه ذلك أن نفسه تافت الى سرعة الأمر

فسأل الله آية يستدل بها على قرب ذلك . (٣)

وقال الشربيني : ولما تافت نفسه الى سرعة البشر به

قال رب اجعل لي آية (٤)

٣ - أراد أن يطلعه الله ليتلقى تلك النعمة الجليلة بالشكر حين

حدوثها ولا يؤخره الى أن تظهر ظهورا معتادا . (٥)

(١) سورة مريم : الآية ١٠ .

(٢) تفسير الفخر الرازي : ج ٢١ ص ١٨٩ ، الألوسي : ج ١٦ ص ٢٠

وحاشية زاده : ج ١٣ ص ٢٨١ .

(٣) فتح البيان : ج ٦ ص ٩ ، فتح القدير : ج ٣ ص ٣٣٤ .

(٤) السراج المنير : ج ٢ ص ١١٥ .

(٥) روح المعاني للألوسي : ج ١٦ ص ٢٠ ،

روح البيان : ج ٥ ص ٣١٢ .

٤ - طلب الآية ليطمئن قلبه وتستقر نفسه وعجالة ابن كثير (أى علامة ودليلا على وجود ما وعدتني لتستقر نفسي ويطمئن قلبي بما وعدتني كما قال ابراهيم عليه السلام : * رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولَئِمُ تُؤْمِنُونَ قَال بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي * (١) وقد رضى ذلك القرطبي وقال به أبو حيان (٢) .

ومع تعدد هذه الآراء فأننا نرجح استبعاد وقوع شك لزكريا عليه السلام لأنه يعلم مصدر البشرى ، وأنها هبة الله وأن وعد الكريم لا يتخلف ، ومن هنا يكون طلب الدليل من أجل طمأنينة القلب واليقين أبعد عن المعنى .

أما كونه طلب ذلك ليشكر ربه من لحظه علمه ذلك ، فهو أقرب الى معنى الآية .

ويؤخذ من ذلك مايلي :

- ١ - أن هذا الدعاء كان أثر مشاهدته عليه السلام للرزق الحسن .
- ٢ - أن زكريا عليه السلام الذى ورد ذكره في هذه الآيات هو والد يحيى وهو الذى كفل مريم عكس ما يزعمه أهل الكتاب أن زكريا الكافد لمريم غير زكريا والد يحيى عليه السلام .

(١) سورة البقرة : الآية " ٢٦٠ " .

(٢) تفسير ابن كثير : ج ٣ ص ١١٢ ، البحر المحيط : ج ٦ ص ١٢٦

القرطبي : ج ١ ص ١٢٣ .

٣ - ان فتح باب الأمل واجب وأن الأسباب والمسببات قد تخرقها القدرة اذا اقتضت الارادة ذلك .

فهاهي مريم تعبد ربها في محرابها وقد أرصدت الأبواب دون أى اتصال . ومع ذلك كان الرزق الحسن يأتيها .

فاتجف زكريا الى ربه عقب مشاهدته مكرمة مريم بطلبه هذا ومع ذلك كانت الأسباب الظاهرة والسنن المعروفة لدى البشر مفقودة لأنه وهن عظمه ، وشاب رأسه وكانت امرأته عاقرا ، ومع ذلك كانت البشرى وتحققها بيحيى عليه السلام .

وكذلك ابراهيم عليه السلام حين بلغ سن الشيخوخة وكانت امرأته عقيما ومع ذلك كانت البشارة لدرجة أنها حين سمعت البشارة * فَصَكَتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ * (١) وفي سورة هود بيان لوجه المعجب حيث قالت : * يَا وَيْلَتَى أَلَيْدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْثَلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ * (٢)

(١) سورة الذاريات : الآية " ٢٩ " .

(٢) سورة هود : الآية " ٧٢ " .

الفصل التاسع

فصل مريم من واقع الآيات والأحاديث

- فصل مريم من واقع القرآن الكريم .
- فصل مريم من واقع السنة المطهرة
- زواج الرسول صلى الله عليه وسلم بمريم في الجنة والرأى فيه .

البحث الخامس

=====

فضل مريم من واقع الآيات والأحاديث

تعريف الفضل :

- الفضل : ضد النقص والنقيصة ، والجمع : فضول .
والفضيلة : الدرجة الرفيعة في الفضل .
وفضّله : مزّاه .
والتفاضل بين القوم : أن يكون بعضهم أفضل من بعض .

ويقال : فضل فلان على غيره اذا غلب بالفضل عليهم (١)

قال تعالى : * وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ
وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا
تَفْضِيلًا * (٢)

(١) لسان العرب : مادة (فضل) : ١ ص ٥٢٤ .

(٢) سورة الاسراء : الآية " ٧٠ "

والبشر خلق الله ، ولله أن يفضل من يشاء ، وقد يكون التفضيل بين بني البشر بالمال ، وقد يكون بالولد ، وقد يكون بالرزق بالمعنى العام الذي تتضمنه الكلمة .

وقد أشار القرآن الكريم الى بعض البشر الذين فضّلهم الله سبحانه وتعالى سواء أكانوا أنبياء ، كما سبق في قول الحق سبحانه وتعالى :
* إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَالْإِسْمَاعِيلَ عَلَى الْعَالَمِينَ * (١)
أو كانوا من الصالحين ، كالخضر عليه السلام * قَوَّجَدَّا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَعِلْمَنَاهُ مِّنْ لَّدُنَا عِلْمًا * (٢)

وكذا لقمان عليه السلام ، وآسياه امرأة فرعون ، وغير هؤلاء .
ومن الذين فضّلهم الله سبحانه وأعلى منزلتهم (مريم) عليها السلام وقد اختصت بما لم يختص به أحد من النساء (وهو الحمل بدون زواج) ، وقد تحدث القرآن عنها بما لم يتحدث عن سيدة من النساء اللاتي خلقهن الله سبحانه وتعالى ، وذلك لخصوصيات عدة اختصت بها دون غيرها ، وهذه الخصوصيات ان دلت فانما تدل على فضل مريم عليها السلام .

(١) سورة آل عمران : الآية " ٣٣ " .

(٢) سورة الكهف : الآية " ٦٥ " .

ويمكن معايشة القرآن الكريم لبيان فضل مريم من خلال الآيات الشريفة وكذا السنة المطهرة وموقفها من العذراء مريم عليها السلام .

أولا - فضل مريم من واقع القرآن الكريم :

تشير سورة آل عمران الى مايلي :

١ - ان مريم من سلالة طيبة ونسل كريم وهي سليلة بيت النبوة وآباؤها كرام ثم ذكرهم بوضوح في الآية الكريمة * إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ * (١)

٢ - أنها نذر تقرب به الى الله : وهو نذر الطاعة وهو من النذر الطيب لأن قبولها منذورة لله دليل طيب معدنها ، وفي الحديث عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (أيها الناس ان الله طيب لا يقبل الا طيبا وان الله أسر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال : * يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا اني بما تعملون عليم * وقال : * يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم * الحديث (٢)

(١) سورة آل عمران : الآية * ٣٣ *

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي : ج ٢ ص ١٠٠ كتاب الزكاة

باب كل نوع من المعروف صدقة .

٣ - ولا يعترض بأن كثيرا من النساء يذرن أولادهن لله ولطاعته
وذلك فان مريم لا خصوصية لها في هذا ، لأن حالها لا يعدو
أن يكون مثل حال هؤلاء .

نقول : أن المشاركة في النذر قاسم مشترك حقا ، ولكن
الاخبار الصادق بأن النذر قد قبل فهو من الخصوصية التي
اختصت بها مريم عليها السلام .

قال تعالى : * فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا
حَسَنًا * (١)

٤ - أن الله سبحانه وتعالى قد اختار لها النبت الحسن فهي
بذر رجل صالح في تربة طيبة صالحة ، وقد تربت على يد
نبي من الأنبياء .

٥ - أن الملائكة بشرتها باصطفاء الله لها * وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ
يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ * (٢)
وفي معنى الاصطفاء الأول يقول ابن السعدي : حيث تقبلتك
من أمك بقبول حسن ولم يتقبل غيرك أنتى ، ورباك في حجر
زكريا عليه السلام ورزقك من رزق الجنة وخصك بالكرامات السنية" (٣)

(١) سورة آل عمران : الآية " ٣٧ "

(٢) سورة آل عمران : الآية " ٤٢ " .

(٣) تفسير ابوالسعود : ج ٢ ص ٣٦ .

ويقول الامام النيسابوري : ولا يجوز أن يكون الاصطفاة ان
بمعنى واحد للتكرار الصرف ، فحمل المفسرون الاصطفاة الأول
على ما اتفق لها من الأمور في أول عمرها ، منها قبول تحريرها
مع كونها انثى ، ومنها ما قاله الحسن : ما غذتها اسنانها طرفة
عين بل ألقنها الى زكريا وكان رزقها من عند الله ومنها تغريفها
للعباداة ، ومنها اسماها كلام الملائكة شفاها ، ولم يتفق ذلك
لأنثى غيرها ، الى غير ذلك من أنواع اللطف والهداية والمعصية
في حقها (١) .

ويقول الامام الطبري : (اصطفاك) أى : اختارك
واجتباك لطاعته وما خصك به من كرامته (٢) .

٦ - أن الملائكة اخبرتها بالطهارة بعد الاصطفاة . وقد ذكر
الجصاص بعض المراد من الطهارة فقال : قال الحسن ومجاهد
طهرت من الكفر بالايان ، ثم عقب على هذا المعنى بقوله :
هذا سائغ كما جاز اطلاق اسم النجاسة على الكافر لأجل الكفر
في قوله تعالى : * إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ * (٣) .
والمراد بنجاسة الكفر ، فذلك يكون وطهرت بطهارة
الايان ، وهو يعني نجاسة الكفر.

-
- (١) غرائب القرآن ورفاء الفرقان : ج ٢ ص ١٩٠ .
(٢) تفسير الطبري : ج ٦ ص ٣٩٣ ، تحقيق : أحمد شاكر .
(٣) سورة التوبة : الآية ٢٨ .

كما في الحديث عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم
لقيه في بعض طريق المدينة وهو جنب فأنجست منه ، فذهب
فاغتسل ، ثم جاء فقال : أين كنت يا أبا هريرة ؟ قال : كنت جنباً
فكرهت أن اجالسكم وأنا على غير طهارة ، فقال : (سبحان الله ان
المسلم لا ينجس) (١)

(١) صحيح البخارى شرح فتح البارى : ج ١ ص ٣٩٠ ، كتاب
الفصل ، باب : عرق الجنب وأن المسلم لا ينجس .

وهو كقوله تعالى : * إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا * (١) والمراد طهارة الايمان والطاعات .

وقيل : المراد طهرك من سائر الانجاس من الحيض والنفاس (٢) .

أما الامام الرازي فقد ذكر أن التطهير يحتمل وجوه منها :

- ١ - أنه تعالى طهرها عن الكفر والمعصية فهو كقوله تعالى فسيحق أزواج النبي صلى الله عليه وسلم * وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا * (٣)
- ٢ - أنه طهرها من ميسم الرجال .
- ٣ - طهرها عن الحيض ، قالوا : كانت مريم لا تحيض .
- ٤ - طهرها من الأفعال الذميمة والحادات القبيحة .
- ٥ - طهرها عن مقالة اليهود وتهمتهم وكذبهم (٤) .

وقد نقل هذه المعاني الامام النيسابوري في تفسيره دون اشارة الى مصدر النقل (٥)

-
- (١) سورة الأحزاب : الآية " ٣٣ " .
 - (٢) أحكام القرآن للجصاص : ج ٢ ص ٢٩٣ .
 - (٣) سورة الأحزاب : الآية " ٣٣ " .
 - (٤) الفخر الرازي : ٨ ص ٤٣ .
 - (٥) غرائب القرآن و رغائب الفرقان : ج ٢ ص ١٩٠ .

وإذا صح المعنى الأول والثالث والرابع في معنى الطهارة ، فإن
المعنى الثاني والخاص لا يستقيمان فليس كل مسيس من الرجال دليل عسدم
الطهارة ، لأن المسيس على وجه الحل لا غبار عليه .
ومن هنا يمكن حمل الطهارة من مسيس الرجال أى في الحرام
لأن المسيس في الحل سنة الأنبياء والمرسلين والمعنى الخاص بعيسى
عن مراد الآية لأن البشارة كانت قبل الحمل بعيسى ، إلا أن يحصل
المعنى على أنه تعبير عن المستقبل بالماضي لتحقيق الوقوع وهو بعيد
ايضا .

وقد عر الامام أبو السمود عن مفهوم التطهير بقوله : أى
ما يستقذر منه من الأحوال والأفعال . (١)
وقال الامام البيضاوى : وطهره من الرذائل (٢)

وخلاصة هذه الأقوال :

أن الآية الكريمة أفادت طهارة مريم وهذه الطهارة تحتل مايلي :

- ١ - طهارتها من الحيض والنفاس وانها لازمت المحراب للمعبادة .
- ٢ - طهارتها من كل ما يستقبح وتهيئتها لكل صالح وتحييها فسي
الفضائل وتجنبيها الرذائل .

(١) تفسير أبو السمود : ج ٢ ص ٣٦٠ .

(٢) أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوى : ج ٢ ص ١٨ .

تفسير القرآن لعلي بن أحمد : ج ١ ص ١١١ .

٣ - رزقها الايمان وأبعد عنها الشيطان ، ويمكن حمل الطهارة على

تنزيهها عن حظ الشيطان كما سبق في الحديث الشريف :

" ما من مولود يولد الا ويستهل صارخا من نخسة الشيطان

الا ابن مريم وأمه " (١)

٧ = أن الله اصطفاهما على نساء العالمين ، وفي هذا الاصطفاء

خلاف بين المفسرين أذكره ثم أعقب عليه ان شاء الله تعالى .

أولا : الفخر الرازي قال : وأما الاصطفاء الثاني فالمراد أنه تعالى

وهب لها عيسى عليه السلام من غير أب ، وأنطق عيسى حال

انفصاله منها حتى شهد بما يدل على براءتها عن التهمة ،

وجعلها وابنها آية للعالمين ، فهذا هو المراد من هذه

الالفاظ الثلاثة ...

وقول من قال : المراد أنها مصطفاة على عالمي زمانها

فهذا ترك للظاهر (٢) .

ثانيا : أبو السعود قال : على نساء العالمين ، بأن وهب لك عيسى

من غير أب ولم يكن ذلك لأحد من النساء وجعلكما آية للعالمين ،

وقيل : المراد بالاصطفائين واحد والتكرار للتأكيد (٣)

(١) صحيح البخاري : ج ٦ ص ٤٢ ، كتاب التفسير ، باب سورة

آل عمران .

(٢) تفسير الفخر الرازي : ج ٨ ص ٤٤ .

(٣) تفسير أبو السعود : ج ٢ ص ٣٦ .

ثالثا : القرطبي قال في الاصطفاة الثاني : واصطفاك لولادة عيسى

على نساء العالمين ، يعني عالمي زمانها .

عن الحسن وابن جريج وغيرهما : وقيل على نساء العالمين

أجمع الى يوم الصور وهو الصحيح على ما بينته وهو قول الزجاج

وغيره ، وكرر الاصطفاة لان معنى الأول لعبادته ، ومعنى الثاني

لولادة عيسى (١) .

رابعا : الامام النيسابوري قال : وأما الاصطفاة الثاني : فهو ما اتفق

في آخر عمرها من ولادة عيسى بغير أب ، وشهادته ببراءتها

عما قزفتها اليهود .

قيل : المراد اصطفاؤها على نساء عالمي زمانها ،

لما روى في الحديث الصحيح (١) أنه صلى الله عليه وسلم قال :

"كفل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء الا مريم بنت عمران

وآسية امرأة فرعون وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على

سائر الطعام " (٢) .

خامسا : الطبري قال : يعني اختارك على نساء العالمين في زمانك

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : ج ٤ ص ١٨٢

(٢) رغائب القرآن وخرائب الفرقان : ج ٢ ص ١٩٠ ،

والحديث في البخاري : ج ٤ ص ١٩٣ ، كتاب المناقب باب

قول الله تعالى : * وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون

... الى قوله : وكانت من القانتين *

مسند الامام أحمد : ج ٤ ص ٣٩٤ ، الترمذي : ١٨٣٤ .

بطاعتك اياه ففضلك عليهن ، كما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : (خير نساءها مريم بنت عمران وخير نساءها خديجة) (١)

وفي رواية للترمذى : (خير نساءها خديجة بنت خوليد وخير نسائها مريم بنت عمران) (٢)

سادسا : العلامة محمد بن يوسف أطقيش قال : (واصطفاك) بأن وهب لك عيسى من غير أب وجعلك آية للعالمين ، وجعل ابنك آية ، وانطأقه في السهد ببراءتك . . . وذهب الى أن المراد بالعالمين عالمي زمانها ، والا ففاطمة افضل منها وكذا خديجة (٣) واختاره البعض أن مريم أفضل النساء على الإطلاق .

قال صلى الله عليه وسلم : (فضلت خديجة على نساء أمتي كما فضلت مريم على نساء العالمين) (٤)

(١) تفسير الطبرى : ج ٦ ص ٣٩٣ ،
والحديث في البخارى : ج ٤ ص ٢٠٠ ، كتاب المناقب ،
باب وان قالت الملائكة يا مريم ان الله اصطفاك وطهرك واصطفاك
على نساء العالمين . . .) .

(٢) سنن الترمذى : ج ٥ ص ٣٦٧ ، أبواب المناقب ، باب
فضل خديجة رضي الله عنها .

(٣) تيسير التفسير للقرآن الكريم للعلامة محمد بن يوسف أطقيش
ج ٢ ص ٦٤ .

(٤) تيسير التفسير للقرآن الكريم : ج ٢ ص ٦٤ ، الدر المنثور : ج ٢ ص ٢٣ ،
والحديث في الطبرى : ج ٣ ص ١٨١ .

وكما جاء في شرح فتح الباري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : افضل نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد ومريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون (وله شاهد من حديث أبي هريرة في الأوسط والطبراني (فاطمة سيدة نساء أهل الجنة الا ما كان من مريم) (١) واسناده حسن

سابعاً : العلامة الألويسي جمع الرايين وذكر دليل كل رأى ، ثم ذهب الى أن فاطمة افضل النساء المتقدمات والمتأخرات من حيث انها بضعسة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بل ومن حيثيات أخرى ايضاً . . . ثم قال : وعندى بين مريم وفاطمة توقف نظر للأفضلية المطلقة (٢)

الخلاصة :

- ١ - أن الآية اشارت الى اصطفايين لمريم عليها السلام : الأول : اصطفاء المنزلة والمكانة وما نالها من خير . والثاني : اصطفاء لولادة عيسى من غير أب .
- ٢ - اصطفاؤها على نساء العالمين لا يعني افضليتها المطلقة على نساء ولد آدم لأن أكثر روايات الحديث قد ساوت بين أربع : آسية ، ومريم ، وفاطمة ، وخديجة ، وفي بعض الروايات : عائشة بدلا من خديجة فيكون العدد خمسة .
- ٣ - أنها من حيث ولادتها عيسى مصطفىة على نساء العالمين من حيث تقواها وعبادتها مصطفىة على نساء أهل زمانها .
- ٤ - ذهب الامام القرطبي وابن حزم في كتاب الجامع لأحكام القرآن والفصل في الملل والنحل الى القول بنسبة مريم وسوف نناقش ذلك بعد ان شاء الله .

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري : ج ٦ ص ٤٤٧ ، كتاب الانبياء باب قول الله تعالى : * وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون . . الى قوله . . وكانت من القانتين * سورة التحريم : الآية "١١" .

(٢) روح المعاني : ج ٢ ص ١٥٥ ، ١٥٦ .

ثامنا : من فضائل مريم الأمر لها مباشرة عن طريق الملائكة ،
يقول الحق : * يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ
الرَّاكِعِينَ * (١)

ومع أن مريم عليها السلام وجدت في بيت زكريا وهي مأمورة
باتباعه وكل خطاب لنبي من الأنبياء أو رسول من الرسل إنما هو خطاب
لأمته إلا ما اختص به هذا الرسول أو ذاك النبي ، إلا أن مريم عليها السلام
قد أمرتها الملائكة بمزيد من الطاعة بكافة صورها .

فهي مأمورة بالقنوت وهو اطالة القيام في الصلاة ،
قال مجاهد : أو ادامة الطاعة ، قاله قتادة ، واليه ذهب
الراغب أو الاخلاص في العبادة ، قاله سعيد بن جبير (٢)

وفي اضافة الرىومية اليها مزيد عناية ودليل رعاية وفيه لفظة لكل
ناظر الى أن الذى رباها هو الله فوجب عليها أن تقابل ذلك بمزيد شكر،
وأمرت ثانية بالسجود والركوع مع الراكعين .

يقول الامام الفخر الرازى : يحتمل أن يكون المراد من ذلك
كله الأمر بالصلاة إلا أنه أمرها سبحانه بها بذكر أركانها مبالغة في ايجاب
المحافظة عليها لما أن في ذكر الشئ تفضيلا تقريراً ليس في الاجمال .
ولعل تقديم السجود على الركوع لأنه كذلك في صلاتهم (٣) .

(١) سورة آل عمران : الآية " ٤٣ " .

(٢) روح المعاني للألوسي : ج ٢ ص ١٥٦ .

(٣) والدليل على ذلك ماورد في المزمور رقم ٩٥ آية ٦ (علم نسجد ونركع
ونجشوا أمام الرب خالقاً) الكتاب المقدس .

وقيل : لأنه أفضل أركان الصلاة وأقصى مراتب الخضوع
وفي الخبر (أقرب ما يكون المبد من ربه وهو ساجد) (١) أول للتنبيه
على أن الواو لا توجب ترتباً . (٢)

ومع ذكر هذه الوجوه فقد انتقدتها الألويسي قائلا : وكل من هذه
الأوجه لا يخلو عن دغدة ، لأن القيام ليس بأفضل من السجود ، وأما
على أن الواو لا تفيد ترتباً فلأن خطاب القرآن مع من يعلم لغة العرب
لا مع من يتعلم منه اللغة .

ثم ذكر ثانياً أن المراد بالسجود هو الصلاة ، فانها بمنزلة
عنها بالسجود كما في قوله تعالى : * وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ
السُّجُودِ * (٣)

ويكون من باب المجاز وعلاقته الجزئية ، ويراد بالركوع الخشوع
والتواضع وكأن أمرها بذلك حفظاً لها من الوقوع في مهابى التكبر
والاستعلاء بما لها من علو الدرجة .

وقد ذهب الألويسي الى أن مريم كانت تصلي بغير سجود ،
وكانت هذه صلاة شرعية عندهم ، وعندهم من الصلاة أيضاً ما يسجد فيها
فأمرت بالسجود في الصلاة ، واستشهد لذلك بما أخرجه ابن جرير عن
الأوزاعي قال : كانت مريم تصلي حتى ترم قدمها .

(١) صحيح البخارى ، شرح فتح البارى :

كتاب الدعوات باب الدعاء في

الصلاة ، مسند احمد : ج ٢ ص ٤٢١ ، مجمع الزوائد :

ج ٢ ص ١٢٧ ، البيهقي ، ج ٢ ص ١١٠ ،

(٢) مفاتيح الشيب : ج ٨ ص ٤٤ .

(٣) سورة ق : الآية ٤٠ .

والأمر بالركوع مع الراكعين ، إشارة الى وجوب صلاتها مع الجماعة ، لأنها كانت دأبة الصلاة في محرابها (١) .

ولا يعترض عليه بأن ذلك مخالف للشرائع، لأننا لم نتيقن كراهة خروج الأجنبية في شرع من قبلنا (٢) ، ولعله والله أعلم قد أراد الحق منها أن تصلي جماعة مع محاربيها الذين اختصوا فيها وقت الكفالة ، أو لتيقن حد الفتنة لكبر سن هؤلاء مع وجود زكريا معهم ، كما أن الركوع معهم لا يشترط فيه أن تكون وسط الصف أو فيه ، بل الوقوف خلفه جائز ، والتعبير بالراكعين دون الراكعات (٣) إما للتغليب ، لأن اللفظ أولا للمذكر ويندرج تحته المؤنث ، وأما لعدم صلاة الجماعة في حق الرجال وقتلتها من النساء ، وأما لأن هؤلاء كانوا سدنة بيت المقدس وكلهم رجال فأمرت أن تصلي معهم ، أولأن الاقتداء بالرجال أفضل .

يقول الألويسي : وادعى بعضهم أن في التعبير بذلك مدحاً ضمنيًا لحريم عليها السلام ، ولم يقيد الأمرين الآخرين بما قيد به الأمر الأول اكفاءً بالتقييد من أول وهلة .

(١) روح المعاني : ج ٢ ص ١٥٧ ، الفخر الرازي : ج ٨ ص ٤٤ .

(٢) يمكن الرد على الألويسي بأن ذلك من الأمور المشتركة في التشريع كما أن رسالة بولس الى أهل كورنثوس الأولى قد تضمنت ما يفيد ذلك ، اصحاح : ١٤/٣٥ (ولكن ان كن يردن ان يتعلمن شيئاً فليساألن رجالهن في البيت لأنه قبيح بالنساء ان تتكلم في الكنيسة) .

(٣) الفخر الرازي : ج ٣ ، ص ٤٤ ، تفسير الخازن : ج ١ ص ٣٤٧ .

وقد يطلق الفرج على معناه المجازي

يقول الامام الطبري : أحصنت فرجها ، أى : منعت جيب وزعمها جبريل عليه السلام ، وكل ما كان في الدرع من خرق أو فتق فأنسه يسمى فرج (١) .

وقيل : أحصنت أى تكلفت في عفتها ، والمحصنة العفيفة (٢) وقد صارت مريم عليها السلام مضرب مثل في الطهر والنقاء حتى لنساء هذه الأمة ، فالحق سبحانه وتعالى حين ختم سورة التحريم ختمها بضرب مثلين : أحدهما للكافرين ، والآخر للمؤمنين ، وقد ذكرت حالتان استحققت كل منهما أن تكون قدوة للنساء .

الأولى منهما : امرأة مسلمة وقعت تحت يد رجل مشرك فأدت حق ربها ولم يستطع هذا المشرك بقوة وجبروته ان يحملها على ما حمل عليه أمة جمعاء من الشرك والكفر .

وأما المثل الثاني والذي نحن بصدده الآن ، فقد قال فيه يحيى ابن سلام ، وفي ضرب المثل للمؤمنين بمريم اعتبار آخر وهو أنها لم يضرها عند الله شيء ، قذف أعداء الله اليهود لها ، ونسبتهم إياها وابنها السى ما برأها الله عنه ، مع كونها الصديقة الكبرى المصطفاة على نساء العالمين ، فلا يضر الرجل الصالح قدح الفجار والفساق فيه وفي هذا تسلية لعائشة ، وإن كانت السورة قد نزلت بعد قصة الافك وتوطئهن أنفسها على ما قاله فيها الكاذبون ، ان كانت قبلها .

(١) تفسير الطبري : ج ٢٧ ص ١١٠ .

(٢) الفخر الرازي : ج ٣٠ ص ٥٥ .

ولذلك فان اليهود لما ادعوا نسبة مريم الى الفاحشة لعنهم الله ،
وحكم عليهم بالكفر ، قال تعالى : * صَكَّرَهُمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بَهْتَانًا
عَظِيمًا * (١)

يقول الامام الرازي : اعلم انهم لما نسبوا مريم الى الزنا لانكارهم
قدرة الله تعالى على خلق الولد من دون الأب ومنكر قدرة الله تعالى على
ذلك كافر لأنه يلزمه أن يقول : كل ولد ولد فهو مسبوق بوالد لا السي
أول ، وذلك يوجب القول بقدوم العالم والدهر ، والقدر في وجود
الصانع المختار ، فالقم لاشك أنهم :

أولا : انكروا قدرة الله تعالى على خلق الولد من دون الأب .
ثانيا : نسبوا مريم الى الزنا ، فالمراد بقوله : صَكَّرَهُمْ ، هو انكارهم
قدرة الله تعالى وقوله * وقولهم على مريم * نسبتهم اياها الى
الزنا ، ولما حصل التخيير حصل العطف وانما صار هذا الطعن
بهتانا عظيما ، لأنه ظهر عنه ولادة عيسى عليه السلام من
الكرامات والمعجزات ما دل على براءتها من كل عيب نحو قوله
تعالى : * وهزى اليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا *
ونحو كلام عيسى عليه السلام حال كونه طفلا منفصلا عن أمه . فان
كل ذلك بدلائل قاطعة على براءة مريم عليها السلام من كل
ريسة فلا جرم وصف الله طمئن اليهود بأنه بهتان عظيم (٢)

(١) سورة النساء : الآية " ١٥٦ "

(٢) تفسير الفخر الرازي : ج ١١ ص ٩٨ .

ويقول الامام القرطبي : والبهتان العظيم رميها بيوسف النجار
وكان من الصالحين منهم والبهتان هو الكذب المفرط الذي يتعجب منه (١) .

وتفسير البهتان العظيم أنه الرمي بالزنا ، هو ما ذهب اليه
ابن عباس والسدي وجوير ايضا (٢) وهم من أئمة المفسرين وقد زاد
ابن كثير في رواية محمد بن اسحق عنه : أنهم رموها وابنها بالمطائم
فجعلوها زانية وقد حملت بولدها من ذلك . . . وهي حائض فعلمهم
لعائن الله المتابعة الى يوم القيامة (٣) .

ومن هذه الآيات السابقة نرى أن مريم عليها السلام كانت مضرب
المثل في العفة ، وأن عيب ذوي العفاف انما هو غاية في الجرم
والشناعة ، يوجب على صاحبه اللعنة كما قال تعالى : * وَإِنَّ الَّذِينَ
يُرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ
عَظِيمٌ * (٤)

عاشرا : ومن فضائل مريم عليها السلام ، وصفها بكونها صديقة ،
قال تعالى : * سَمَّا الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ
الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ * (٥)

(١) الجامع لاحكام القرآن للقرطبي : ج ٦ ص ٨٠

(٢) الطبري : ج ٩ ص ٣٦٧ .

(٣) تفسير ابن كثير : ج ١ ص ٥٧٣ .

(٤) سورة النور : الآية " ٢٣ " .

(٥) سورة المائدة : الآية " ٧٥ " .

وقد جمعت هذه الآيات بين أمرين :

الأمر الأول : المدح لكل منهما .

الأمر الثاني : بيان حقيقة كل منهما ذرا للمغالاة وتحذيرا

منها .

يقول السيد رشيد رضا : ما بال المسيح وما شأنه ؟ هل يعد فردا من أفراد المخلوقات ولا يمتاز عليها بالذات ولا بالصفات ؟ وهل تعد أمه كسائر النساء ؟ أجاب الله تعالى عن هذه الأسئلة التي يوردها من أكبروا المسيح أن يكون بشرا ، فبدأ بذكر خصوصيته التي امتاز بها على أكثر الناس ، ثم شنى ببيان حقيقته التي يشارك بها كل فرد من أفرادهم . . .

وأما أمه فهي صديقة من فضليات النساء ، فمرتبتها في الفضل والكمال تلي مرتبة الأنبياء ، وأما حقيقتها الشخصية والنوعية فهي مساوية لحقيقة غيرهما من أفراد نوعها وجنسها بدليل أنها كانتا يأكلان الطعام ، وكل من يأكل الطعام فهو مفتقر الى ما يقيم بنيته ويمد حياته فلا يخل بدنه وتضعف قواه فيهلك (١) .

أما القرطبي فقد استشهد بوصف الصديقة مع بقية الصفات الأخرى بأن مريم عليها السلام نبيه ورت على الجمهور قائلا : وقد استدل من قال : أن مريم عليها السلام لم تكن نبيه بقوله تعالى :
* وأمه صديقة * .

قال : قلت وفيه نظر فانه يجوز أن تكون صدقة مع كونها نبيية
كأدريس عليه السلام ، وانما قيل لها صدقة لكثرة تصديقها بآيات ربها
وتصدقها ولدها فيما أخبرها به وهذا مروى عن الحسن وغيره . (١)

وللملأمة في كونها صدقة معاني عدة ، غير ما سبق منها :
أ - أنها صدقت بكلمات ربها ، بمعنى عيسى عليه السلام ، قاله
مقاتل ويدل عليه قراءة الحسن (بكلمة ربها) بالافراد وسمي
عيسى كلمة الله في مواضع عدة من القرآن وجمعت تلك الكلمة
هنا .

ب - قال أبو علي الفارسي : الكلمات الشرائع التي شرع لها دون
القول :

فكان المعنى صدقت الشرائع وأخذت بها وصدقت الكتب
فلم تكذب . (٢)

والقراءة المشهورة (بكلمات) بالجمع فهي قراءة الجمهور
تحتل أن يكون المراد بها الصحف المنزلة على أدريس عليه السلام وغيره
وسماها كلمات لقصدها ، ويكون المراد بكتبه الكتب الأربعة ويحتل أن
يكون المراد بالكلمات ما كلم الله تعالى به ملائكته وغيرهم ، وكتبه جميع
ما يكتب في اللوح وغيره واحتل أن تكون الكلمات ما صدر في أمر عيسى عليه
السلام . (٣)

- (١) القرطبي : ج ٦ ص ٢٥١ .
- (٢) تفسير الفخر الرازي : ج ٣٠ ص ٢٧ .
- (٣) تفسير البحر المحيط : ج ٨ ص ٢٩٥ .

ويمكن القول أن الآية تحتل هذه المعاني : فمرم عليها السلام
مؤمنة ، ولا يتحقق الايمان الا بتصديق جميع الانبياء والكاتب المنزلة
عليهم ، وقد خاطبتها الملائكة فصدقت واستجابت كما أنها آمنت بقدرة الله
في عيسى عليه السلام وأنه ولدها الذي قدر الله أن يكون منها بنو نوح ،
فاستحقت بتصديقها لذلك كله أن توصف بالصدق معبرا عن الوصف
بالمبالغة لما أثر عنها ؛

١١ - أن الله سبحانه وتعالى رعاها ، وحفظها بكيفية لا يعلمها الا هو
قال تعالى : * وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ
ذَاتِ قُرَارٍ وَهَيْمٍ * (١)

ومن خلال هذه الآيات السابقة نرى مدى ماتعت به مريم
عليها السلام من مكانة سامية لدرجة أن الله سبحانه وتعالى جعل
في خلقها وتربيتها وعفافها آية للمؤمنين قال تعالى : * وَالَّتِي
أَحْصَيْنَا فَرْجَهَا فَنَنْفَخُنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً
لِّلْمُؤْمِنِينَ * (٢)

(١) سورة المؤمنون : الآية " ٥٠ " .

(٢) سورة الانبياء : الآية " ٩١ " .

فضل مريم عليها السلام من واقع السنة المطهرة :

وإذا كان القرآن الكريم قد مدح مريم عليها السلام فإن السنة المطهرة قد أشارت إلى كمالها عليها السلام .
ولما كانت بعض الروايات ضعيفة ، وبعضها مقول فيه ، رأيت أن أذكر هذه الروايات حتى ينجبر الضعيف منها بالقوى ، كما هو متفق عليه لدى علماء الحديث :

أولا : تنزيها من الشيطان : قال أبو هريرة رضي الله عنه ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (ما من بني آدم مولود إلا يمسسه الشيطان حين يولد ، فيستهل صارخا من من الشيطان غير مريم وابنها) (١) ثم يقول أبو هريرة : * وَإِنِّي أَعِذُّهَا بِكَ وَذَرِيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ * (٢)
ثانيا : أنها من خيرة النساء : عن علي رضي الله عنه قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : (خير نساءها مريم ابنة عمران ، وخير نساءها خديجة) (٣)

(١) صحيح البخارى : ج ٤ ص ١٩٩ ، الكتاب بدء الخلق ،

قول الله تعالى : * واذكر في كتاب مريم ... * .

الطبرى : ج ٣ ص ١٦٢ ، البغوى : ج ١ ص ٣٤٠ .

(٢) سورة آل عمران : الآية " ٣٦ " .

(٣) صحيح البخارى : ج ٤ ص ٢٠٠ كتاب المناقب باب * إذ

قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء

العالمين *

ثالثا : عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : (فضل عائشة على سائر النساء كفضل الشريف على سائر الطعام .

كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا مريم ابنة عمران وآسية امرأة فرعون) (١)

رابعا : (حسبك من نساء العالمين مريم بنت عمران وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد وآسية امرأة فرعون) (٢)

قال الحاكم في المستدرك عن أنس رضي الله عنه : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (حسبك من نساء العالمين أربع : مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد) (٣)

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : بحسبك من نساء العالمين أربع : فاطمة بنت محمد ، وخديجة بنت خويلد ، ومريم بنت عمران ، وآسية بنت مزاحم .

-
- (١) صحيح البخارى بشرح فتح البارى : ج ٦ ص ٤٧٢ كتاب أحاديث الأنبياء باب قول الله تعالى (٤٥ - ٤٨ آل عمران) * أن قالت الملائكة يا مريم .. الى قوله : فانتما يقول له كن فيكون *
(٢) سنن الترمذى : ج ٥ ص ٣٦٧ - باب المناقب باب فضل خديجة رضي الله عنها .
(٣) المستدرك على الصحيحين : ج ٣ ص ١٥٧ كتاب معرفة الصحابة .

قال في مجمع الزوائد رواه الطبراني في الأوسط وفيه

سليمان الشاذكوني وهو ضعيف (١)

خامسا : عن عمار بن ياسر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

لقد فضلت خديجة على نساء أمتي كما فضلت مريم على نساء

العالمين (وهو حديث حسن الاسناد . (٢)

قال في مجمع الزوائد : رواه الطبراني والمزار وفيه

أبويزيد الحمير ولم أعرفه ، وثقة رجاله وثقوا (٣)

سادسا : عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

سيدات نساء أهل الجنة مريم بنت عمران ثم فاطمة بنت محمد ثم

خديجة ثم آسية امرأة فرعون .

قال في مجمع الزوائد : رواه الطبراني ، وفيه محمد بن

الحسن بن زهال وهو متروك (٤) .

سابعها : وعن فاطمة أنها قالت للنبي صلى الله عليه وسلم : أين أنا

خديجة ، قال في بيت من قصب لا لغوفيه ولا نصب بين مريم

وآسية ، قالت من هذا النصب ، قال لا ، بل من القصب المنظوم

(١) مجمع الزوائد : ج ٩ ص ٢٢٣ .

(٢) فتح الباري بشرح صحيح البخاري : ج ٧ ص ١٣٥ كتاب مناقب

الانبياء باب تزويج النبي صلى الله عليه وسلم خديجة وفضلها ،

(٣) مجمع الزوائد : ج ٩ ص ٢٣٣ ، كنز العمال : ٣٤٣٤٧ .

(٤) مجمع الزوائد : ج ٩ ص ٢٠١ ، كنز العمال : ٣٤٤٠٩ ،

بالدر واللؤلؤ والمياقوت ، رواه الطبراني في الأوسط ،

قال في مجمع الزوائد : وروى عن طريق مهاجر بن ميمون عنها .

ولم أعرفه ولا أظنه سمع منها والله أعلم بحقيقة رجاله ثقات . (١)

ثامنا : عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه

وسلم : (الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة وفاطمة

سيدة نساءهم إلا ما كان لمریم بنت عمران) (٢)

تاسعا : عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(سيدات نساء أهل الجنة بعد مریم بنت عمران فاطمة وخديجة

ثم آسية بنت مزاحم امرأة فرعون)

رواه الطبراني في الأوسط والكبير بنحوه إلا أنه قال :

وآسية ورجال الكبر رجال الصحيح (٣)

عاشرا : اخرج الشيخان عن أبي هريرة قال : سمعت رسول الله صلى الله

عليه وسلم يقول : (خير نساء ركبين الأهل نساء قريش

احتاه على طفل وأرقاه على زوج في ذات يده ، يقول أبو هريرة

على أثر ذلك ولم تركب مریم بنت عمران بصير قط . (٤)

(١) مجمع الزوائد : ج ٩ ص ٢٣٤ .

(٢) مجمع الزوائد : ج ٩ ص ٢٠١ .

(٣) مجمع الزوائد : ج ٩ ص ٢٠١ .

(٤) صحيح البخاري : ج ٤ ص ٢٠٠ ، كتاب بدء الخلق ،

باب وقوله تعالى : * أن قالت الملائكة .. إلى قوله فانسا

يقول له كن فيكون *

حادى عشر : عن فاطمة رضي الله عنها قالت : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنت سيدة نساء أهل الجنة الا مريم البتول (١)

بهذه الأحاديث الشريفة التي يجبر القوى منها الضعيف ، نرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد مدح مريم عليها السلام ، وقصده نالت المدح كما في الأحاديث ببعض منزلتها في الدنيا والآخرة ،

أما في الدنيا فقد وصلت الى درجة الكمال ، والكمال هنا المراد به البالغة في الطاعة ومراقبة الله سبحانه وتعالى ، واشتغالها بالطاعة لدرجة أنها وصفت بأنها من القانتين . وفيه لفظة طيبة الى كل فتاة وسيدة أن باب الطاعة مفتوح ، وأن الكمال ليس قاصر على الرجال ، بل أن المرأة قد تشارك الرجل في هذا الكمال ، وما أعظم هذا المنهج لو سلكته الفتاة منذ الصبا ، كما سلكت مريم عليها السلام هذا المسلك منذ النشأة ، لأن النساء جرت عاداتهن ألا يتعبدن الا بعد تقدم الزمن بهن ولو فعلن سن اليأس ، ولذلك فإن مريم قد خالفت هذا المنهج ، واتجهت الى الطاعة على غير عادة بني جنسها ولازمت بهت العبادة ، بدليل التمهير المفيد لذلك : * ^{وَكَا} كَمَا دَخَلَ عَلَيْهَا ^{وَكَا} زَكْرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا * (٢) ولذلك فإن الله سبحانه وتعالى قد لفت نظر النساء الى وجوب الطاعة وأنه لا يضيع أجر من أحسن عملاً كما وصلت مريم عليها السلام الى درجة الكمال .

(١) الطبرى : ج ٣ ص ١٨١ ، الدر المنثور : ج ٤ ص ٢٣ .

(٢) سورة آل عمران : الآية " ٣٧ " .

قال تعالى : * فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أَضِيعُ عَمَلٌ عَامِلٍ
مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْشِئَ بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ
وَأُودُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ... (١) الآية .

وقوله تعالى : * إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ
وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ
وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصِدِّقِينَ وَالْمُتَصِدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ
فِرْعَوْنَهُم وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً
وَأَجْرًا عَظِيمًا * (٢)

أما إكرام الله تعالى لمرم عليها السلام ، وفيه إشارة إلى
منزلتها ، فهي أنها في أعلى مراتب الجنة ، ومن أفضل نساءها ، كما
دلت على ذلك الأحاديث الشريفة ، وماورد من ترتيب يتضمن سبق مرهم
على سائر النساء كما في رواية ابن عباس في الحديث رقم ستمة فقد ثبت
أن فيه محمد بن الحسن بن زهاله وهو متروك . (٣)

(١) سورة آل عمران : الآية " ١٩٥ " .

(٢) سورة الأحزاب : الآية " ٢٥ " .

(٣) انظر ص (١٠٦) من هذه الرسالة .

زواج الرسول صلى الله عليه وسلم بحريم نبي الجنة والرأى فيه :

وردت بعض الأحاديث في كتب السنة تشير الى أن الرسول
صلى الله عليه وسلم سوف يتزوج السيدة مريم في الجنة ، أذكرها وآراء
العلماء فيها :

الحديث الأول :

أخرجه الطبراني في الكبير قال : حدثنا عبد الله بن ناجية
حدثنا محمد بن سعد العوفي حدثنا أبي حدثنا عبيد الله بن يونس بن
نفع عن سعد بن جنادة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه
وسلم : أن الله زوجني في الجنة مريم بنت عمران وامرأة فرعون وأخست
موسى (١) .

وهذا الحديث ضعفه السيوطي (٢)

وقال في مجمع الزوائد فيه من لم أعرفهم (٣) .

وقال العلامة المناوي في فيض القدير بعد ذكره الحديث :

ان المراد الاضافة الى زوجاتي اللاتي تزوجتهن في الدنيا وأوقع الماضي
موضع المستقبل لتحقيق الوقوع

(١) الطبراني في الكبير : رقم ٥٤٨٥ ، ج ٢ ؛

ج ٦ ص ٦٤ .

(٢) فيض القدير : ج ٢ ص ٢٣٧ .

(٣) مجمع الزوائد : ج ٩ ص ٢١٨ .

قال الحرالسي : خلصني الله من الاصطفاء الأول المبراني
الى اصطفاء عربي عليّ حتى أنكحهن من محمد النبي العربي ، وهو هؤلاء
الثلاثة مشرعات في الفضل على هذا الترتيب ، فأفضلهن مريم اتفاقاً لأنه
قبل بنيتها ، فآسية فأخت موسى ، لأنه لم يذهب الى القول بنيتها
احد ، والظاهر أن وقوع التزوج في الجنة .
قال الهيثمي: فيه من لم أعرفه (١)

الحديث الثاني :

ماروى عن أبي أمانة رضي الله عنه قال : سمعت النبي صلى الله
عليه وسلم يقول لمائشة : أما شعرت أن الله عز وجل قد زوجني في
الجنة مريم بنت عمران وكلثم أخت موسى وامرأة فرعون (٢) .
وأورد في مجمع الزوائد بلفظ : (أشعرت أن الله عز وجل) الخ
قال في مجمع الزوائد : وفيه خالد بن يوسف السني وهو
ضعيف (٣)

وأخرجه ابو الشيخ في التاريخ بسند صحيح عن أبي الربيع السني
حدثنا عبد النور بن عبد الله بن سنان عن يونس بن شعيب عن أبي امامة
مرفوعاً : يا عائشة أما تعلمين أن الله زوجني . . . الخ

-
- (١) فيض القدير: ج ٢ ص ٢٣٧ .
(٢) الطبراني : ج ٩ ص ٩١٨ .
(٣) مجمع الزوائد : ج ٩ ص ٢١٨ .

وذكر عن المقيلي قال : يونس بن شعيب حديثه غير محفوظ
قال البخاري : منكر الحديث . وقال في اللسان : هذا الحديث هو
الذي أنكره عليه البخاري ، والراوى عنه قال فيه الذهبي كذاب ،
واتهمه بوضع الحديث (١) .

الحديث الثالث :

حديث أبي رواه رضي الله عنه قال : دخل رسول الله صلى الله
عليه وسلم على خديجة رضي الله عنها في مرضها الذي توفيت فيه فقال
لها : بالكروه مني الذي أرى فيك يا خديجة ، وقد يجعل الله في الكره
خيرا كثيرا ، أما علمت أن الله عز وجل زوجني معك في الجنة مريم بنت
عمران ، وامرأة فرعون ، وكلثم أخت موسى ، قالت : وقد فعل الله ذلك
يارسول الله ، قال صلى الله عليه وسلم : نعم ، قالت : بالرفاء والبنين .
قال في مجمع الزوائد : رواه الطبراني وهو منقطع الاستنباد
وفيه محمد بن أبي الحسن بن زبالة وهو ضعيف (٢)

الحديث الرابع :

عن عائشة رضي الله عنها قالت : دخل علي رسول الله صلى الله
عليه وسلم مسرورا فقال يا عائشة : أن الله عز وجل زوجني مريم بنت عمران
وآسية بنت مزاحم في الجنة قالت قلت بالرفاء والبنين يارسول الله (٣)

(١) لسان الميزان : ج ٦ ص ٣٣٢ .

(٢) مجمع الزوائد : ج ٩ ص ٢١٨ .

(٣) أخرجه ابن السني رقم ٥٩٧ ص ١٩٣ .

ونخلص من هذا الى أن هذه الأحاديث كلها ضعيفة ،
بعضها مقول فيه ، والزواج في الجنة من الغيبات التي لا يمكن
القطع بها الا بحديث صحيح عن الرسول صلى الله عليه وسلم أو نص
من كتاب الله ، فاذا لم يصح لدينا حديث ولم ترد آية كانت هذه
النصوص باقية على ما هي عليه وحملها على غير ظاهرها ليس بمستطاع
والله أعلم .

الفصل الثاني

الفول بنوة مريم
ومناقشته

• آراء بعض العلماء في نبوة
مريم عليها السلام والرد عليهم

الفصل السادس

=====

القول بنهية مريم ومناقشته

خلق الانسان في هذه الحياة لحكم يعلمها الله تعالى ،
ومن رحمة الخالق سبحانه أنه ركب في الانسان عقلا كاملا يدرك به
النافع من الضار اذا سلم من المؤثرات الخارجية ، ولكن قدرة العقل
أمام العلم بذات الله محدودة ، كما أن تصور العقل للمخالق قد يكون
على الوجه الذي يخالف مراد الله ، ومن هنا تجلت يد الكريم على نبي
البشر أن يكون من بينهم رسل يملفون رسالات الله ، لئلا يكون للناس
على الله حجة بعد الرسل ، والجمهور على أن قوما لم تصلهم دعوة
نبي أو رسول غير معذبين مصداق ذلك قول الله تعالى : * وَمَا كُنَّا
مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا * (١) وذلك كان رأى الجمهور فسي
أعمل الفترة ومن على شاكلتهم .

والنبوة أو الرسالة تخضع للاصطفاء المحض ، وليس للاجتهاد
فيها نصيب على وجه الاطلاق ، لأنها مما قضى الله وقدره في علمه القديم
* إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ * (٢)
ولما ذكر الحق سبحانه الأنبياء في سورة مريم قال : * أُولَئِكَ
الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن
ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَاجَرْنَا وَاجْتَبَيْنَا .. * (٣)

(١) سورة الاسراء : الآية " ١٥ " .

(٢) سورة آل عمران : الآية " ٣٣ " .

(٣) سورة مريم : الآية " ٥٨ " .

ومع أن الاجتهاد لا مدخل له في الاصطفاء للنبوّة أو الرسالة إلا أن الله سبحانه قد شمل المصطفين من لحظة ميلادهم ، بل اختار لهم النسب الذي يرضى عنه حتى لا يكون هناك مطعن لطاعن في سلوك النبي أو الرسول بعد دعوته الى الله .

قال تعالى في شأن موسى عليه السلام * وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي * (١)
وفي شأن صالح ذكر قول قومه : * قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا
قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا .. * (٢)

وفي شأن الرسول صلى الله عليه وسلم ذكر الحق سبحانه قوله
* وَالضُّحَىٰ * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ * (٣)

وقد : أتت السورة شرح الرعاية والعناية وعدم التخلي عن الرسول
صلى الله عليه وسلم في قول الحق * أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ * وَوَجَدَكَ
ضَالًّا فَهَدَىٰ * وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ * (٤)

من هذه الآيات وغيرها نرى :

١ - أن الله اصطفى رسلا من الناس الى بني جنسهم تكليفا والى
غيرهم تكليفا او تشريفا .

٢ - أن هذا الاصطفاء مقدر في علم الله القديم .

-
- (١) سورة طه : الآية " ٣٩ " .
(٢) سورة هود : الآية " ٦٢ " .
(٣) سورة الضحى : الآيات " ١ - ٣ " .
(٤) سورة الضحى : الآيتان " ٦ - ٨ " .

- ٣ - أن وسيلة اخبار النبي أو الرسول هي مذكرها الله في كتابه
في قول الحق سبحانه : * وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا
أَوْ مِنْ قَرَاءٍ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيُّ
حَكِيمٌ * (١) .
- ٤ - لا بد من اخبار النبي أو الرسول أنه رسول الله سواء أكان هذا
الاخبار مشافهة أو عن طريق الملك .
- ٥ - ليس كل احياء دليل النبوة أو الرسالة ، فقد يكون الوحي
الى بعض الخلق عن طريق الملك أو بالالهام دون أن يكون الموصى
اليه نبيا أو رسولا .
- ٦ - ليس كل من كلمه ملك من الملائكة بنبي أو رسول ، لأن السنّة
قد حدثتنا بالكثير من هذا دون الاخبار بأن المتحدث معهم
أنبياء أو رسل .
- ٧ - هناك اشراقات طيبة للأنفس المغلصة ، قد تصدق مع الزمن
لا يترتب عليها كون صاحبها نبيا أو رسولا ، بل أن الرؤيا
الصادقة قد تظهر لغير المسلمين رحمة بالخلق ، كافي رؤيا
ملك مصر وتفسير يوسف عليه السلام لها عاد على صالح شبيب
مصر والمناطق المجاورة له بالخير .

(١) سورة الشورى : الآية " ٥١ " .

ومع ما سبق ذكره نجد أن القرآن الكريم قد أشار إلى أن
الرسول السابقين كانوا جميعاً من الرجال ، يدل على ذلك أسلوب الحصر
في قول الحق سبحانه : * وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ
مِنْ أَهْلِ الْقُرَى * أَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَنَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ
قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ * (١)

وقال تعالى : * وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ
فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ * (٢)

وهذه الآيات قد أشارت إلى أن المرسلين جميعاً من الرجال ،
ومع هذا فقد اختلف العلماء في نبوة بعض النساء كحواء ، وسارة ،
وأم موسى ، ومريم رضي الله عنهن ،
ومن ذهب إلى القول بنبوة مريم الامام ابن حزم في كتابه :
الفصل في الملل والنحل .

والقرطبي في كتابه الجامع لأحكام القرآن .

واني أورد الرأيين أولاً ثم أسوق الردَّ عليهما إن شاء الله تعالى
من خلال القرآن وآراء أئمة التفسير ورأي علماء العقيدة والله المستعان .

(١) سورة يوسف : الآية " ١٠٩ " .

(٢) سورة النحل : الآية " ٤٣ " .

آراء بعض العلماء في نبوة مريم عليها السلام والرد عليهم

أولا - رأى الامام ابن حزم :

يقول بشأن نبوة مريم : هذا فصل لانعله حدث التنازع العظيم فيه عندنا بقرطبة ، وفي زماننا ، فان طائفة ذهبت الى ابطال كون النبوة في النساء جملة وبدعت من قال ذلك .
وذهبت طائفة الى القول بأنه قد كانت في النساء نبوة ،
وذهبت طائفة الى التوقف في ذلك .

قال أبو محمد بن حزم : وهذا أمر لا ينازعون فيه ، قصر الرسالة على الرجال ، ولم يدع أحد أن الله تعالى أرسل امرأة ، وانما الكلام في النبوة دون الرسالة فوجب طلب الحق في ذلك بأن ينظر في معنى لفظة النبوة في اللغة التي خاطبنا الله عز وجل بها . فوجدنا هذه اللفظة مأخوذة من الإنباء وهو الاعلام ، فمن الله عز وجل بما يكون قبل أن يكون ، أو أوحى اليه منبئا له بأمر ما فهو نبي بلا شك ، وليس هذا من باب الالهام الذي هو طبيعة كقول الله عز وجل : * وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ * (١) ولا من باب الظن والتوهم الذي لا يقطع بحقيقة الا مجنون ولا من باب الكهانة التي هي من استراق الشياطين السمع من السماء ...

وفيه يقول عز وجل : * شَيَاطِينُ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا * (٢) وقد انقطعت الكهانة بمجىء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا من باب النجم التي هي تجارب تتعلم ،

(١) سورة النحل : الآية " ٦٨ "

(٢) سورة الأنعام : الآية " ١١٢ "

ولا من باب الرؤيا التي لا يدري أصدقت أم كذبت ، بل الوحي الذي هو النبوة قصد من الله تعالى الى اعلام من يوحى اليه بما يعلمه به ويكون عند الوحي به اليه حقيقة خارجة عن الوجوه المذكورة ، يحدث الله عز وجل لمن أوحى به اليه علما ضروريا بصحة ما أوحى به ، كعلمه بما أدرك بحواسه وهدية عقله سواء ، لامجال للشك في شيء منه ، اما بمجيء الملك به اليه ، واما بخطاب يخاطب به في نفسه ، وهو تعليم من الله تعالى لمن يعلمه دون واسطة .

فإن أنكروا معنى النبوة فليعرفونا مامعناها ، فإنهم لا يأتسون بشيء أصلا وقد جاء القرآن بأن الله عز وجل أرسل ملائكته بالنساء فأخبروهن بوحي حق من الله تعالى ، فبشروا أم إسحاق عن الله تعالى ، قال عز وجل : ﴿ وَأَمْرًا قَائِمَةً فَضَحِكْتُمْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَمْقُوبَ ۚ قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ۚ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةُ اللَّهِ وَكَرَاهَتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ ۖ ﴾ (١)

فهذا خطاب الملائكة لأم إسحاق عن الله عز وجل بالبشارة لها بإسحاق ثم يمقوب ، ثم يقولهم لها : أتعجبين من أمر الله ، ولا يمكن البتة أن يكون هذا الخطاب من ملك لغير نبي بوجه من الوجوه .

(١) سورة هود : الآيات ٧١ - ٧٤ .

ووجدناه تعالى قد أرسل جبريل الى مريم أم عيسى عليهما
السلام يخاطبهما ، وقال لها : * إِنَّا أَنَا رَسُولُ رَبِّكَ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا
زَكِيًّا * (١)

وهذه نبوة صحيحة بوحى صحيح ، ورسالة من الله تعالى اليها ،
وكان زكريا عليه السلام يجد عندها من الله تعالى رزقا واردا تمنى من
أجله ولدا فاضلا .

ووجدنا أم موسى عليهما السلام قد أوحى الله اليها بالقاء
ولدها في ألم (٢) وأعلمها أنه سيرده اليها ، وجعله نبيا مرسلا ،
فهذه نبوة لاشك فيها ، وضرورة العقل يدري كل ذى تمييز صحيح
أنها لو لم تكن واثقة بنبوة الله عز وجل لها لكانت بالقائها ولدها في ألم
برؤيا تراها أو بما يقع في نفسها أو قام في هاجستها في غاية الجنون
والمراد الهائج ، ولو فعل ذلك أحدنا لكان غاية الفسق وفي غاية
الجنون . . فصح يقينا أن الوحي الذى ورد لها في القاء ولدها في ألم
كالوحي الوارد على ابراهيم في الرؤيا في ذبح ولده (٣)

- (١) سورة مريم : الآية " ١٩ " .
(٢) إشارة الى قوله تعالى : * وأوحينا الى أم موسى أن أرضعيه
فإذا خفت عليه فألقه في ألم ولا تخافي ولا تحزني أنا رادوه اليك
وجاعلوه من المرسلين * سورة القصص : الآية " ٧ " .
(٣) إشارة الى قول الحق سبحانه في شأن اسماعيل : * فلما بلغ معه
السنى قال يا بني انى أرى في المنام أنى اذبحك فانظر
ماذا ترى * قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني ان شاء الله
من الصابرين * فلما أسلما وظلوا للجبین ونادىناه أن يا إبراهيم
قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين *
سورة الصافات : الآيات " ١٠٣ - ١٠٥ " .

فإن إبراهيم عليه السلام ، لو لم يكن نبيا وأثقا بصحة الوحى والنبوة الواردة عليه من ذبح ولده ، لكنه ذبح ولده لرويا رآها أو ظن وقع في نفسه لكان بلا شك فاعل ذلك من غير الأنبياء فاسقا في نهاية الفسق أو مجنونا في غاية الجنون ، وتنزه إبراهيم عليه السلام عن ذلك ، ومن هنا تكون قد صحت نبوتهم : مريم ، سارة ، أم موسى بيقين ، ووجدنا الله تعالى قد قال : وقد ذكر من الأنبياء عليهم السلام في سورة (مريم) ، اسم مريم في جملتهم ثم قال عز وجل : * أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ... * (١)

وهذا هو عموم لها معهم ، لا يجوز تخصيصها من جملتهم ، وليس قوله عز وجل : * مَا التَّسْبِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُوَّهُ صَدِيقَةٌ * يمنع أن تكون نبية .

فقد قال تعالى : * يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ ... * (٢) وهو ومع ذلك نبي رسول وقد الحق ابن حزم آسية امرأة فرعون بهولا وجعلها أيضا نبيه واستشهد بحديث الرسول صلى الله عليه وسلم (كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون ومريم بنت عمران . .) الحديث (٣)

(١) سورة مريم : الآية " ٥٨ " .

(٢) سورة يوسف : الآية " ٤٦ " .

(٣) صحيح البخارى ج ٤ ص ١٩٣ ، باب قوله تعالى : * وضرب الله مثلا للذين آمنوا ... * كتاب بدء الخلق ؛ مسلم :

فضائل الصحابة ، باب ١٢ رقم ٧٠ ؛ فتح البارى : ١٠٦/٧

مسند أحمد ؛ ج ٤ ص ٣٩٤ ؛ الترمذى : ١٨٣٤ .

ثم يعقب ابن حزم على هذا الحديث بقوله : والكمال فسي الرجال لا يكون الا لبعض المرسلين عليهم الصلاة والسلام لأن من دونهم ناقص عنهم بلا شك ، وكان تخصيصه صلى الله عليه وسلم مريم وامرأة فرعون تفضيلا لهما على سائر من أوتيت النبوة من النساء بلا شك ، ومن بعض من منزلة آخر ولو بدقيقة فلم يكمل ، فصح أن هاتين المرأتين كملتا كمالا لم يلحقهما فيه امرأة غيرهما أصلا وان كن بنصوص القرآن نبيات . . (١)

ثانيا - رأى الامام القرطبي :

ومن ذهب الى القول بنبوة مريم عليها السلام الامام القرطبي ، الا أنه أبطل نبوة آسية ورأى انها صديقة فقط ، ذكر رأيه هذا وهو يتناول قول الله تعالى : * وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَأِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ * (٢) فبين مدلول الكلمات حديث الرسول صلى الله عليه وسلم (كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء الا مريم ابنة عمران وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون) (٣) ثم قال : قال علماءنا رحمة الله عليهم : الكمال هو التناهي والتمام ، ويقال في ماضيه كمل بالفتح والضم في الميم ، ويكمل في مضارعها بالضم وكمال كل شئ بحسبه والكمال المطلق إنما هو لله تعالى خاصة ، ولا شك أن أكمل نوع الانسان الأنبياء ثم يليهم الأولياء من الصديقين والشهداء والصالحين ، وإذا تقرر هذا فقد قيل : ان الكمال المذكور في الحديث يعني به النبوة ، فيلزم

- (١) الفصل في الملل والنحل : ج ٣ المجلد الثالث : ص ١٦ - ١٧ .
 (٢) سورة آل عمران : الآية " ٤٢ " .
 (٣) صحيح البخارى : ج ٤ ص ١٨٣ كتاب بدء الخلق باب وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون الى قوله وكانت من القانتين . مسند الامام احمد : ج ٤ ص ٣٩٤ .

عليه أن تكون مريم آسية نبيهين وقد قيل بذلك .
والصحيح أن مريم نبيهة لأن الله تعالى أوحى اليها بواسطته
الملك كما أوحى إلى سائر النبيين حسب ما تقدم وأما آسية فلم يرد
ما يدل على نبوتها دلالة واضحة ، بل على صديقتها وفضلها . . .
ثم أورد بعض الأحاديث السابقة في فضل مريم عليها السلام وعقب
عليها بقوله : فظاهر الآيات والأحاديث يقتضي أن مريم أفضل من جميع
نساء العالمين ، من حواء إلى آخر امرأة تقوم عليها الساعة ، فإن الملائكة
قد بلغت الوحي عن الله عز وجل بالتكليف والأخبار والبشارة كما بلغت
سائر الأنبياء .

فهو إذن : نبيهة ، والنبي أفضل من الولي ، فهي أفضل من
كل النساء الأوليين والآخرين مطلقا . . . وقد خص الله مريم بمالم يؤتمنه
أحد من النساء ، وذلك أن روح القدس كلمها وظهر لها ، ونفخ في
درعها ودنا منها للنفخة ، فليس هذا لأحد من النساء وصدقت بكلمات
ربها ولم تسأل آية عندما بشرت كما سأل زكريا عليه السلام من الآية ،
ولذلك سماها الله في تنزيهه صديقة فقال : * وَأَمَّا صَدِيقَةٌ * (١) ،
وقال : * وَصَدَقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُنْهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ * (٢) فشهد
لها بالصديقة وشهد لها بالتصديق بكلمات البشري ، وشهد لها بالقنوت ،
وإنما بشر زكريا بفلام فلحظ إلى كبر سنه وعقامة رحم امرأته فقال : * أَنَّى
يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا * (٣) فسأل به آية .

(١) سورة المائدة : الآية " ٧٥ " .

(٢) سورة التحريم : الآية " ١٢ " .

(٣) سورة مريم : الآية " ٨ " .

وشرت مريم بالسلام فلحظت أنها بكر ، ولم يمسهها بشر ،
ف قيل لها : * كذلك قال ربك * فأقتصرت على ذلك وصدقت بكلمات
ربها ولم تسأل آية من يعلم كنه هذا الأمر .

ومن لامرأة في جميع نساء العالمين من بنات آدم مالها من هذه
المناقب ، ولذلك روى أنها سبقت السابقين مع الرسل الى الجنة
وهي لم تنل شهادة الله في التنزيل بالصدقة والتصديق بالكلمات الا لمرتبة
قريبة دانيه ، ومن قال لم تكن نبيه : قال : أن رويتها للملك كما
روى جبريل عليه السلام في صفة وجهه الكبي حين سؤاله عن الإسلام
والإيمان والإحسان ، ولم تكن الصحابة بذلك أنبياء .

والأول أظهر وعليه الأكثر . (١)

ثالثا - رأى بعض الأشعرية :

ذهب بعض الأشعرية

الى جواز كون النبي أنثى " وتمسكوا بما لا يدل على مدعاهم
وهو ما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم كمل من الرجال كثير ولم يكمل من
النساء الا مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون (٢)

من خلال الآراء السابقة نرى أن هؤلاء الأئمة الاعلام قد تمسكو
بنبوة مريم عليها السلام ، ولم يقولوا برسالتها ، وهم مفرقون بين النبوة والرسالة
ولذا يستلزم بيان الصلة بين النبي والرسول حتى يمكن الفصل من وجهته
نظري في القول بنبوة مريم عليها السلام .

(١) مختصر عن الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : ج ٤ ص ٨٢ * ٨٣ .

(٢) حاشية المرجاني على شرح جلال الدين الوداني : ص ٩ / .

أولا - تعريف الرسول : هو انسان حر ذكر من بني آدم أوحى اليه
بشرع وأمر بتبليغه سواء كان له كتاب نزل عليه ليتبليغه ناسخا
لشرع من قبله أو غير ناسخ له أو على من قبله . . . ولذلك كثرت
الرسل وقلت الكتب ، فالرسل ٣١٣ وأشهر الكتب التوراة
والانجيل والزبور والقرآن وصحف آدم وشيث وادريس وابراهيم .
ثانيا - تعريف النبي : هو انسان حر ذكر من بني آدم أوحى اليه
بشرع وان لم يؤمر بتبليغه (١) .

وفي القاموس الاسلامي : الرسول في اللغة هو المرسل لقضاء
أمر طلب منه .

وفي العقيدة الاسلامية : يقصد به النبي عليه الصلاة والسلام
صاحب الرسالة (٢)

وفي كتاب النبوة والانبياء للصابوني فرق بين النبي والرسول
كما يلي :

النبي ، هو : انسان من البشر أوحى اليه تعالى بشرع ولكنه لم
يكلف بالتبليغ .

الرسول ، انسان من البشر اوحى تعالى اليه بشرع وأمر بتبليغه .

(١) فتح المبين شرح الأريمين : لابن حجر ، ص ١١
طبعة الحلبي .

(٢) القاموس الاسلامي / احمد عطية : ج ٢ ص ٥٢٣ .

فالرسالة اذن أعلى مرتبة من النبوة ، لأن كل رسول نبي ، وليس كل نبي رسولا .

يقول صاحب العقيدة الطحاوية : (فالرسول أخص من النبي ولكن الرسالة أعم من جهة نفسها ، فالنبوة جزء من الرسالة إذ الرسالة تتناول النبوة وغيرها ، بخلاف الرسل فانهم لا يتناولون الأنبياء وغيرهم ، بل الأمر بالعكس ، فالرسالة أعم من جهة نفسها وأخص من جهة أهلها) (١) وعدد الأنبياء لا يحصى إذ يزيد عددهم على ما جاء في بعض الآثار مائة وعشرين ألفا .

أما الرسل فهم قلة : (روى الامام احمد عن أبي ذر رضي الله عنه أنه قال قلت يا رسول الله : أى الأنبياء كان أول ؟ قال : آدم ، قلت يا رسول الله ، ونبي كان ، قال : نعم ، نبي مكلم ، قلت يا رسول الله كم المرسلون ؟ قال : ثلاثمائة وضعة عشر جما غفيرا ، وفي رواية أبي امامة قال ابو ذر قلت يا رسول الله كم وفاء عدة الأنبياء : قال مائة الف وعشرون الفا الرسل من ذلك ثلاثمائة وخمسة عشر جما غفيرا " (٢)

ونستنتج مما سبق أن للعلماء رأيين في الصلة بين النبي والرسول :
الرأى الأول : أن النبي غير الرسول وبينهما عموم وخصوص .
والرأى الثاني : أن النبي والرسول بمعنى واحد .

(١) شرح العقيدة الطحاوية : ص ١٦٢ لابن أبي العز.

(٢) النبوة والأنبياء للاستاذ محمد علي الصابوني : ص ١٣ ،

والحديث في مسند الامام احمد : ج ٥ ص ٢٦٥ .

واستدل أصحاب الرأي الأول بقول الله تعالى : * وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ * (١)
 إن لو كان مساويا أو أعم لما عطف على الرسول لأن نفي أحد المتساويين يستلزم نفي الآخر وكذا نفي الأعم يستلزم نفي الأخص بخلاف العكس.

وكذلك استدلوا بالحدِيث الذي أجاب فيه الرسول صلى الله عليه وسلم عن عدد الأنبياء فقال : مائة ألف وأربعة وعشرون الفا ، وسئل عن عدد المرسلين فقال : ثلاثمائة وثلاثة عشر وما كان أفراد أكثر فهو أعم مطلقا . (٢)

واستدل أصحاب الرأي الثاني : النبوة والرسالة بمعنى واحد بما يلي :

أولا : أن الآيات أشارت الى اقتران الارسال بالنبي كما هو مفسرون بالرسول .

قال تعالى : * وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ * (٣)

* وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ * (٤)

وصف كثيرا من الأنبياء ، بالرسالة والنبوة معا .

قال تعالى : * وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا * (٥)

(١) سورة الحج : الآية " ٥٢ " .

(٢) حاشية الكليني على شرح جلال الدين الدواني : ج ١٠ ص ٧ .

(٣) سورة الأعراف : الآية " ٩٤ " .

(٤) سورة الزخرف : الآية " ٦ " .

(٥) سورة مريم : الآية " ٥١ " .

وقال تعالى : * وَإِذْ كُنَّا فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ
الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا * (١)

والذى أرجحه وأميل اليه أن النبي والرسول مهمتهما واحدة ،
وهي تبليغ شرع الله الى البشر ، والتفريق بينهما قد يحمل على اختصاص
الرسول بكتاب والنبي بيوءمر بالاتباع مع الابهاء اليه وأمره بالتبليغ .

ومن هنا كان ماذهب اليه الجمهور من أن النبي غير مأمور
بالتبليغ مردود والأفما الحكمة من كونه نبيا ، وهل يعقل أن يرسل وحشي
بشرع الى نبي دون أن يكلفه الله بالتبليغ . وإنما لعلامة أنه نبي فقط .
أن آيات القرآن الكريم تشير الى أن الأنبياء جميعا بلغوا كما
بلغ الرسل ، قال تعالى : * وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ وَمَا يَأْتِيهِمْ
مِّنْ نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ * (٢)

والآية الثانية تشير الى أن هؤلاء الأنبياء بلغوا أقوامهم وأن
أقوامهم قد استهزؤوا بهم وفيه دليل التبليغ وهو بمعنى الإرسال .
والحوار الذى دار بين الملأ من بني اسرائيل ونبيهم ،
واجابة النبي عليها مع نسبة الإجابة الى الله دليل على أن النبي يوحى اليه
وانه يبلغ ، وأن ماذهب اليه البعض من أن النبوة إعلام فقط لاسند له
إلا إذا أريد المعنى اللغوى وه لا يفرق بين النبي الموحى اليه وبين النبي

(١) سورة مريم : الآية " ٥٤ " .

(٢) سورة الزخرف : الايتان " ٦ ، ٧ " .

بمعنى النبي ، لأن الوحي هو الفارق بين الأول والثاني ، وهذه الآيات دليل على أن النبي يبلغ . وأنه يسأل وتأتيه الاجابة ما يشير الى عدم الفرق في الأمر بالإبلاغ ، قال تعالى : * أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَأِ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لَنَبِيِّ لَهُمْ أَهْمَتَ لَنَا مُلْكًا تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ : هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَالُنَا إِلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَفَدَّ أَخْرَجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَانَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ . وقال لهم نبيهم : إِنْ أَلَّ اللَّهُ فَدَّ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مُلْكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنْ أَلَّ اللَّهُ أَصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً مِنَ الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مَلَكًا مِنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * وقال لهم نبيهم : إِنْ آتَاكُمْ آيَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّبِعُوا فِيهَا سَكِينَةً مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةً مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ عَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنْ فِي ذَلِكَ لَايَةٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * (١)

بل ان القرآن الكريم أشار الى أن الأنبياء قاتلوا : والقتال

لا يكون الا من أجل تبليغ الدعوة وهي نفسها مهمة الرسل ، قال تعالى : * وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيِّ قَاتَلَ مَعَهُ رَبُّهُ كَثِيرًا فَهَارَوا وَلَمَّا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا يَصْطِفُونَ * وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ * (٢)

ومن هنا يكون النبي والرسول كل منهما موحى اليه وأمور التبليغ ،

وعلى هذا يمكن تمييز كل منهما بأنه انسان ذكر حراً ووحى اليه بشريع وأمر بتبليغه .

(١) سورة البقرة : الآيات " ٢٤٦ - ٢٤٨ " .

(٢) سورة آل عمران : الآية " ١٤٦ " .

أما كونه انسان فلمهم الآيات والأحاديث ، ولأن البشر لا يتحملون
إلا دعوة رجل من بني جنسهم ، قال تعالى : * وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ
مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يَنْظُرُونَ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا
وَلَلْبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَائِيَّاتُونَ * (١)

وأما كونه ذكر فلمهم الآيات ، قال تعالى : * وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ
قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا
كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ * (٢)
وقوله تعالى : * وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ فَسَئَلُوا
أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ * (٣)

ولما طلب المشركون ملكا مع الرسول ليعلمهم أنه رسول الله أخبر
الحق سبحانه أنه لو أُرْسِلَ ملكا لَجَعَلَهُ فِي صُورَةِ رَجُلٍ وَالتَّصْمِيمُ بِرَجُلٍ يَشِيرُ
إِلَى ذِكْرِيَّتِهِ .

وأما كونه حر فلأن العبد لا يتمكن من الأداء والتبليغ والايحاء
بالشرع شرط ، لكي يخرج الايحاء بالبشرى كما في بشرى مريم بالمنزلة أو بالحمل
أو بصفات المولود ، وكذلك بشرى سارة بالحمل بأسحق ، وكذا يخرج
الالهام كما في الايحاء إلى أم موسى عليه السلام .

(١) سورة الأنعام : الآيتان ٨ ، ٩ .

(٢) سورة يوسف : الآية ١٠٩ .

(٣) سورة النحل : الآية ٤٣ .

والأمر بالتبليغ فرض ، فكتم العلم بوجوب اللعنة فكيف يكون
نبي أو رسول يتلقى وحياً من الله ثم لا يبلغه وأن لم يؤمر بتبليغه
والله سبحانه ذكر في كتابه قوله * إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ
وَالْهُدَىٰ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ لَلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ
اللَّاعِنُونَ * (١)

وهذا الذي ذهبت إليه من بطلان نبوة مريم هو رأي الجمهور
فالامام الباجوري وهو يعرف النبي قال في شرح التعريف : " خرج بالذكر
الأنثى ، بناء على أنه يقال لها انسان على الأرجح ، وعليه فتكون الأنثى
خرجت من الانسان ، والقول بنبوة مريم وآسية امرأة فرعون وحواء وأم موسى ،
وهاجر وسارة فهو مرجوح .

قال صاحب بدء الامالي : وما كانت نبوة أنثى . . ولا عبد وشخص
ذو مقال (٢)

وقال مؤلف القول المفيد ، شرح وسيلة العبيد :
وليس في النساء من نبوة ولا الذي صفاته دنية .
يريد أنه لم يوجد من النساء نبوة ولا من الأشخاص الذين تكون صفاتهم
خسيسة . (٣)

(١) سورة البقرة : الآية " ١٥٩ " .

(٢) حاشية الباجوري على جوهرة التوحيد : ص ٦ .

(٣) القول المفيد شرح وسيلة العبيد : ص ٨ .

وفي النشر الطيب قال الشريف ادريس الوزاني : قال في الكواكب :

واختلف في خضر أهل النقول ... وقيل لي ونهي ورسول
لقمان ذي القرنين حواء مريم ... والمنع في الجمع رأى المعظم
ثم شرح هذين البيتين قائلا : حواء مريم تقدم أنه لم تقع النبوة
في جنس النساء والاجماع على عدم رسالتهن . (١)

وقوله الاجماع على عدم رسالتهن غير مسلم لما سبق ما ذكرته من رأى
ابن حزم والقرطبي وبعض الاشعرية وكان الأولى أن يقول والجحيم .
ومن ذهب الى عدم نبوة النساء الشيخ الطيب في كتابه النشر
الطيب ، وكذا الشريف ادريس الوزاني في تهيمشه للنشر الطيب .
يقول الشيخ الطيب في حق الأنبياء : الواجب كونهم عليهم
الصلاة والسلام ، على أكمل الأحوال خلقا وخلقا وأحوالا وأفعالا . يستحيل
أن يلحقهم نقص من جهة الخلقة كالأنوثة والصم ، لأنه لا معنى للنبوة
إلا الوحي ، فكيف تعطل حاسته ويسد بابه . (٢)

وقيل في عامشه : حزم هنا باشتراط الذكورة في النبي وهو الصواب
ثم أن ما ذكره هنا من شروط للنبوة ، قال السيد في شرح النسخة :
النبوة مشروطة بالذكورة ، وكمال العقل ، وقوة الرأى ، والسلامة عن

(١) النشر الطيب للشريف ادريس احمد الوزاني : ج ٢ ص ٣٤١ .

(٢) متن الطيب : ج ١ ص ١٦٨ .

المنفردات كزنا الآباء وعهر الأمهات والفظاظة ومثل الجذام والحسرة
الدينية . وكل ما يخل بالمروءة .

وأشار له سيدى العربي القاسي في مرصده بقوله :

وللنبي تشترط الذكورة

وقوة الرأي وعقلا كاملا

قال ابن الهمام في المسيرة

وخالف بعض أهل الظواهر

والحديث في الذكورة حتى حكموا بنبو مريم عليها السلام ، وفي كلامهم

ما يشعر بأن الفرق بين الرسول والنبي بالدعوة وعدمها .

وعلى هذا لا يعد ما ذهبوا إليه من نفي اشتراط الذكورة فيمن هو

نبي غير رسول الله ، لأن اشتراط الذكورة لكون أمر الرسالة مبنيا على

الاشتهار والاعلان والتردد الى المجمع للدعوة ، والنسوة مبنى حالهن

على التستر والقرار في البيوت .

وأما على ما ذكره المحققون من أن النبي انسان بعثه الله لتبليغ

ما أوحى اليه وكذا الرسول ، فلا فرق ، أى بينهما بل بمعنى واحد

بزيادة من الكمال .

قال الشيخ زين الدين قاسم في حاشيته على المسيرة مانصه :

قال الامام جلال الدين جاد الله ، اتفق أهل السنة والجماعة على أن

الذكورة شرط النبوة ، خلافا للأشعرى .

واحتجوا بأن من شرط النبوة كمال العقل والدين وهما معدومان

في النساء لقوله صلى الله عليه وسلم : (ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب
للب الرجل الحازم من أحدكن . .) (١)

ولقوله تعالى : * وما أرسلنا من قبلك الا رجالا نوحى اليهم * (٢)
ويقول علي رضي الله عنه : لو كانت الخلافة تصلح لامرأة لكانت عائشة
رضي الله عنها تستحق الخلافة .

قال الصابوني : النهوة خاصة بالرجال ولا تكون للنساء ابدا والحكمة
من ذلك أن النبوة عبء ثقيل وتكليف شاق لا تتحملة طبيعة المرأة الضعيفة
لأنه يحتاج الى مجاعده ومصابرة ، ولهذا كان جميع الرسل في محنة قاسية
مع أقوامهم وابتلوا ابتلاء شديدا في سبيل دعوة الله (٣) .

قال تعالى : * فاصبر كما صبر أولي العزم من الرسل * (٤)

واحتج الأشعرى بقوله تعالى : * واذكر في الكتاب مريم * (٥)
لأنه تعالى ذكرها في عدد الأنبياء ، وأرسل اليها جبريل ، قال تعالى :
* فأرسلنا اليها روحنا * (٦)

والجواب : أن هذا لا يستلزم المطلوب قطعا ، وتقدم قول سيدي
عبد العزيز الدباغ أن الله تعالى لم يجعل النبوة في جنس النساء (٧) .
قال الجصاص : وقد اختلف في وجه تطهير الملائكة لمريم وان لم تكن نبيه
لأن الله تعالى قال : * وما أرسلنا من قبلك الا رجالا نوحى اليهم * (٨)

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري : ج ١ ص ٤٠٥ ، باب ترك

الحائض الصوم ، كتاب الحيض ، مسند احمد : ج ٢ ص ٦٧ .

(٢) سورة يوسف : الآية " ١٠٩ "

(٣) النبوه والأنبياء للصابوني : ص ١٠ .

(٤) سورة الأحقاف : الآية " ٣٥ "

(٥) سورة مريم : الآية " ١٦ "

(٦) سورة مريم : الآية " ١٧ "

(٧) هامش النشر الطيب شرح الشيخ الطيب للشريف ادريس بن احمد

الوزاني : ج ١ ص ١٦٧ / ١٦٨ .

(٨) احكام القرآن للجصاص : ج ٢ ص ٢٩٣ .

وقال الامام النيسابوري : واعلم أن مريم ما كانت من الأنبياء
لقوله تعالى : * وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجَالًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ * (١) ،
فارسال جبريل اليها : اما أن يكون كرامة لها عند من يجوز كرامات الأولياء ،
واما أن يكون ارهاصا لميسى وهو جائز عندنا . وعند الكسبي من المعتزلة ،
أو معجزة لذكريا وهو قول جمهور المعتزلة . (٢) .

من خلال العرض السابق للآيات الشريفة ، وآراء العلماء الكرام
يمكن القول بأن مريم لم تكن نبيه ، وجمهور العلماء على أن النبوة مقصورة
على الرجال . وأنه لم تحمل واحدة من النساء بأعما النبوة التي هي من
المسئولية بمكان بحيث لتفوق قدرة المرأة وطاقاتها ، ويمجز كاهلها عند
تحمل عبئها وثقلها * إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا * (٣)

فالنبي والرسول كلا منهما يبلغ الأحكام ، فالرسول يبلغ الأحكام
ويكون معه كتاب ، والنبي يكون مقررا ومبلغا * إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا
هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا .. * (٤)
والتقرير انما هو لمن سبق تبليغهم والتبليغ لمن يسبق تبليغهم .

والمرأة لا تستطيع القيام بأعما النبوة التي هي تقرير الأحكام لمن
سبق تبليغهم وتبليغ الأحكام لمن لم يسبق تبليغهم ، ولم نعرف ان امرأة
قررت احكاما ، أو بلفت احكاما أوحى الله بها اليها ، وما حكى القرآن
الكريم شيئا من ذلك ولا السنة المطهرة .

(١) سورة يوسف : الآية " ١٠٩ " .

(٢) غرائب القرآن وغرائب الفرقان : ج ٢ ص ١٩٠ .

(٣) سورة المزمل : الآية " ٥ " .

(٤) سورة المائدة : الآية " ٤٤ " .

وكل ما صرحت به الآيات أن الملائكة قد خاطبت بعض النساء .
ولم يكن هذا الخطاب اعلاما لهن بالنبوة بل بشاره ، أو طمأنينة ،
أو اذعابا لرؤس ،

وما ذهب اليه ابن حزم والقرطبي والأشقرى بنبوة مريم مستشهدين
بقول الله لها على لسان الملائكة : * وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ
أَصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ * (١) لا يسعفهم وقد
سبق بيان أن الاصطفاء الأول مراد به قبولها نذيره حين سائر النساء
في ذلك الزمان .

وكفالة زكراها لها ووجود الرزق الحسن عندها والطهارة إنما هي
من الرجس والدنس وكل ما يسوء فعله أو يستقيح .

والاصطفاء الثاني في اختيارها أم المولود بدون أب ، وأنطقه بين
يديها ببرامجها وجعلها بذلك وابنة آية للعالمين .

وكل صور الخطاب التي دارت بين الملائكة هيئتها لا تخرج عن
إطار الاعلام بالمكانة والمنزلة أو الأمر لها بالطاعة أو البشارة بالحمائل
بميسى ، أو الالهام الى الخروج من الضائقة حين سوءها عن ولدها ممن
أين هو ؟ .

ولم تر آية واحدة تأمرها بالتبليغ أو تقرر أحكاما مضت فتوى
الناس في فعلها أو تدعو الى احكاما جديدة تبلغها لمن لم يسبق لهم
العلم بها .

(١) سورة آل عمران : الآية " ٤٤ " .

وما ذهب اليه ابن حزم من نبوة سارة ، هو في غاية الضراصة ،
 أن الملائكة أتت ابراهيم عليه السلام ، فأكرمهم فلم يتناولوا شيئا مما قدم
 اليهم ، لأن طبع الملائكة غير طبع البشر ، وتعجب ابراهيم من عدم
 تناولهم الطعام * فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَشَرَوْهُ بِثَلَاثِ مِائَةِ
 دِينَارٍ فَأَمْرَآهُ فِي سِرٍّ فَصَكَ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ * (١) ،
 وقد فسرت سورة هود هذا الحدث بأن سارة بعد البشارة تمجبت
 وقالت : * يَا وَيْلَتَى أَلَيْسَ الْأَمْرُ بِالْعَاجِزِ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ
 عَجِيبٌ . قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةُ اللَّهِ وَكَرَاهَتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ
 إِنَّهُ حَسِيدٌ حَاقِدٌ * (٢)

فهل مجرد تبشير الملائكة سارة باسحاق يجعلها نبية ؟ وأين
 الأحكام التي أوحى الله بها اليها لتقررعا ، وتبلغها للناس ، وهل مجرد
 البشارة مرة واحدة ثم انقطاع الملائكة بعد ذلك دليل النبوة .
 أن أى نبي إنما يتردد عليه الوحي مرات ومرات ، ليوافيه بما
 يلزم لنفسه وللناس معرفته ، والعمن به ولم نسمع لها أمة أنت بهما
 أو بلغتهم ، أو دعاهم الى الله فأعرضوا فما هو دليل النبوة ؟ .
 والنسبة لأم موسى فالجمهور على أنه كان وحي الهام شأنه شأن
 الهام النمل الى رشد ها ، وليس هو الوحي الذى يوحى به الى الأنبياء .
 ووحى الالهام هذا يحصل للنبي ولغير النبي .

(١) سورة الذاريات : الآية " ٢٩ " .

(٢) سورة هود : الآية " ٧٢ - ٧٣ " .

والهام أم موسى بما تفعله وما سيحصل بشأن مولودها موسى عليه السلام ، لا يلزم منه أن تكون نبيه .

ومن العلماء من قال : أن ذلك كان رؤيا في منامها ، والرؤيا المنامية الصادقة لا تقتضى بالنبى ، فقد يراها المؤمن العادى ، بل قد يراها الكافر لمصلحة تعود على الناس كما رأى ملك مصر سبع بقرات سمان يأكلن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وآخر يابسات كما ذكر ذلك القرآن الكريم : * وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ افْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبِرُونَ * (١)

ومع أنها رؤيا وقعت في قلب مشرك وظهرت على لسانه إلا أن يوسف عليه السلام ، قد فسرهما بأن الناس في مصر سيتعرضون لسنوات سبع ذات غصب ونماء وزيادة في الزرع ، وهذا تأتى سنوات سبع جذب ثم يأتى عام غصيب ومع ذلك لم يكن الملك نبيا ولا وليا . وما ذهب إليه أن الملائكة قد كلمتها وبشرتها فمردود فليس كل من كلمته الملائكة أو بشرته ، نبيا فلقد أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : أن الملائكة قد حدثت كثيرا من السابقين من غير الأنبياء ، ومع ذلك لم يقل بنيتهم أحد على وجه الإطلاق .

عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول :
 أن ثلاثة من بني اسرائيل ، أبرص ، وأقرب ، وأعرجي أراد الله أن
 يبتليهم ، فبعث اليهم ملكا فأتى الأبرص فقال : أى شيء أحب
 اليك ؟ قال : لون حسن وجلد حسن ويذهب عني الذي تذرني في
 الناس ، فمسحه ، فذهب عنه قدره ، وأعطى لونا حسنا قال فأى المال
 أحب اليك ؟ قال الابل : وقال البقر (شك الراوى) فأعطي ناقه
 عشرة فقال : بارك الله لك فيها .

فأتى الأقرب فقال : أى شيء أحب اليك ، قال شعر حسن ،
 ويذهب عني هذا الذي تذرني الناس ، فمسحه فذهب عنه ، وأعطى شعرا
 حسنا ، قال : فأى المال أحب اليك ؟ قال : البقر : فأعطي بقرة
 حاملا وقال : بارك الله لك فيها . فأتى الأعرجي فقال : أى شيء
 أحب اليك ؟ قال : أن يرد الله إليّ بصرى فأبصر الناس فمسحه ،
 فرد الله اليه بصره ، قال : فأى المال أحب اليك . ؟ قال : الفم ،
 فأعطي شاة والد فأنجب هذان وولد هذا . . الحديث . (١)

فهذه مخاطبة الملك لهؤلاء الثلاثة تجعلهم أنبياء ؟ لم يقل
 بهذا أحد ، كذلك لم يقل أحد بنهوض الرجل الذي أخبره الملك أن الله
 يحبه ، فقد روى الامام احمد في مسنده ، عن أبي هريرة عن النبي صلى الله
 عليه وسلم خرج رجل يزور أخاه في قرية أخرى فأوصد الله عز وجل بدرجته

(١) البخارى : ج ٤ / ٢٠٨ ، باب ما ذكر عن بني اسرائيل ، كتاب بدء
 الخلق . . . صحيح مسلم بشرح النووي : ج ١٨ ص ٩٧ كتاب
 الزهد ، البيهقي : ج ٧ ص ٢١٩ .

ملكاً فلما مر به قال : أين تريد ، قال : أريد فلانا ، قال : لقراءة
قال : لا ، قال : فلنعمه له عندك تربيها ، قال : لا . غيـسر
أنى أحبته في الله ، قال : فإني رسول الله إليك بأن الله قد أحبك
كما أحبته فيه (١)

وما ذهب إليه ابن حزم من نبوتها لأنها ذكرت ضمن الأنبياء
في سورة مريم فغير صريح الدلالة ، لأن اسم الإشارة * أُولَئِكَ الَّذِينَ
أَنعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ
إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَنَبْنَا إِذَا تَتَلَوْا عَلَيْهِمْ آيَاتِ الرَّحْمَنِ
خَرُّوا سُجَّدًا وَسُكُوتًا * (٢)

يعود اسم الإشارة على أقرب مذكور وهو الأنبياء السابق
ذكرهم عليهم السلام ، كما أن ذكر النبيين يخرج مريم عليها السلام
وعلى فرض التسليم جدلاً بأن اسم الإشارة يعود عليها معهم فإنه قد
تطرق إليه الإحتمال ، والدليل إذا تطرق إليه الاحتمال مسقط بـه
الاستدلال .

وما ذهب إليه ابن حزم في قوله : . مانعاً للمانعين من
ذلك (نبوة النساء) حجة أصلاً إلا أن بعضهم نزع في ذلك بقوله
تعالى : * وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِيَ إِلَيْهِمْ * (٣) وهذا
أمر لا يتنازعون فيه ، ولم يدع أحد أن الله أرسل امرأة وإنما الكلام في النبوة
دون الرسالة .

-
- (١) مسند الإمام أحمد : ج ٣ ص ٢٩٢ ، ٤٠٨ ، ٢٦٢ ، ٥٠٨ .
(٢) سورة مريم : الآية ٥٨ .
(٣) سورة يوسف : الآية ١٠٩ .

قوله هذا مردود بأن الرسالة والنبوة واحد قال تعالى :

١ - * وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيِّ فِي الْأَوَّلِينَ * وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيِّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ * (١) .

ب - * وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْأَسَاءِ وَالضَّرَائِعِ * (٢) .

ج - كذلك اقتران النبوة بالرسالة في كثير من الآيات .

كما أنه لا يعقل كما سبق أن يكون كل من خطوب عن طريق ملك نبيا وفيما يبدو لي أنه لابد من توافر الشروط الثمانية لكي يدرك الفرد أنه نبي .

- ١ - خطاب الوحي إلى الفرد .
- ٢ - إعلانه أنه نبي الله أو رسوله .
- ٣ - اقتران الخطاب بشرع أساسه متفق مع السابق وقد يكون فيه تجديد في بعض الأحكام .
- ٤ - وجود معجزة تدل على أنه نبي أو رسول .
- ٥ - إخباره بوجوب التبليغ إلى البشر .
- ٦ - تبليغه لكي يخرج من دائرة المسئولية .

(١) سورة الزخرف : الآيتان " ٦ ، ٧ " .

(٢) سورة الأعراف : الآية " ٩٤ " .

وهذه الشروط هي كل لا يتجزأ يضاف اليها ما اشترط العلماء من السلامة من المنفر وكل ما يخرم المروءة أو يقدح في دعواه ، فإذا افتقد شيء من هذا بطل كون المخاطب نبيا أو رسولا ، ولنا أن نسأل :

- أ - أى نص أخبرت به مريم أنها نبية ؟
 - ب - ماهو الشرع الذى أوحى اليها به ؟
 - ج - ماهي المعجزة التي تحدث بها مجاهرة قوسها ؟
 - د - ماهو النص الذى ألزمها الله فيه بالتبليغ ؟
 - هـ - الى من بلغت ؟
- انها امتنعت عن الاجابة حين السؤال وتركت وليدها يجيب امثالاً لأمر الله سبحانه وتعالى .
- و - هل يستقيم كونها امرأة مع ملاقاتها الرجال ومناقشتها لهم ومناقشتهم لها شأن النبوة أو الرسالة ، وهل طبيعتها كأنثى كونت بحيث تتلقي الوحي ليلاً أو نهاراً ، وهل سلمت مما يمتري بنات جنسها .

انها أسئلة تبحث عن اجابة ، ان أقصى ما يمكن القول به أن مريم عليها السلام ماهي الا وليدة من أولياء الله الذين أحبهم الله ، فرضي عنهم ورضوا عنه ، وكرمها كما يكرم سائر من يحب ، وأقصى ما وصلت اليه كونها صديقة ، والصديقين في الدرجة الثانية بعد النبوة ، قال تعالى :

* فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا * (١)

وأما ما ذهب إليه القرطبي من نبوة مريم وآسية فهو مردود ،
واستشهاده بحدِيث (كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا مريم
بنت عمران وآسية امرأة فرعون) (١) فهو مردود ، لأن الكمال لا يستلزم
النبوة ، ويكفي أن الجمهور أطبق على أن آسية ليست نبوة ومصرهم ابن
حزم أيضا .

وأما دعواه نبوة مريم لأن الملائكة خاطبتها فهو مردود بما
سبق بيانه من أنه لا يثبت على خطاب الملائكة لبشر ما كونه نبيا .
وتفضيلها على نبي الله زكريا ، لأنه طلب آية على حمل زوجته
وهي لم تطلب آية مردود فطلبه الآية لأجل أن يتوجه بالشكر إلى ربه
من لحظة حمل زوجته ، أو لأنه شأن غيره من البشر يعتره ما يعترى البشر ،
إلا أن يكون نقصانا فلا يدركه ، فطلب الدليل من هذه الزاوية مع تفضيله
بالرسالة .

وأما الكمال فقد ثبت لكثير من النساء منهم مريم وآسية وفاطمة
بنت محمد وخديجة بنت خويلد وعائشة بنت أبي بكر . فهل كل هؤلاء
نبيات .

أن الأرجح عدم نبوة مريم ، ولم يعرف التاريخ نبوة على وجه
الاطلاق ، لدرجة أنه بعث الأنبياء من الرجال دون النساء كانت أمرا
معروفا عند العرب حتى أن سجاح لما ادعت النبوة أنكر عليها دعواها
أهل الفطنة ومن هؤلاء قيس بن عاصم الذي قال فيها :

(١) صحيح البخارى : ج ٤ ص ١٩٣ ، كتاب المناقب باب قوله
تعالى : * وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون . . الى
قوله : وكانت من القانتين * .

أُصْحَتْ نَبِيَّتُنَا أُنْثَىٰ نَطُوفُ بِهَا
وَأَصْبَحَتْ أَنْبِيَاءُ اللَّهِ ذَكَرَانَا
فَلَعْنَةُ اللَّهِ وَالْأَقْوَامِ كُلِّهِمْ

على سجاح ومن باللم أغراننا (١)

ويكون أسلوب القصر في الآية حجة لكل من ذهب إلى بطلان
نبوة النساء .

يقول الامام الشوكاني عقب قوله تعالى : * وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ
قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِيْ اِلَيْهِمْ * (٢) فالله تعالى لم يرسل رسولا
ولا نبيا الا من الرجال ، وعلى هذا فلم يرسل امرأة لا برسالة ولا نبوة (٣)
ويقول العلامة ابن كثير : يخبر تعالى في هذه الآية انه
انما ارسل رسله من الرجال لا من النساء ، وهذا قول جمهور العلماء ،
كما دل عليه سياق الآية الكريمة ، أن الله تعالى لم يوح إلى امرأة
من بنات بنى آدم وحي تشريع .

وما زعمه بعضهم من أن سارة امرأة الخليل ، وأم موسى ومريم
بنت عمران نبيات ، واحتجوا ببشارة الملائكة لسارة ومشرى الملائكة
لمريم بميسى ، والهام أم موسى .

نقول : ان هذا القدر حاصل لهن ، ولكن لا يلزم من هذا أن
يكن نبيات بذلك .

(١) فتح القدير : ج ٣ ص ٦٠ .

(٢) سورة يوسف : الآية " ١٠٩ " .

(٣) فتح القدير : ج ٣ ص ٦٠ .

فان أراد القائل بنبوتهن هذا القدر من التشريف فهذا
لا شك فيه ، ويبقى الكلام معه في أن هذا هل يكفي في الانتظام
في سلك النبوة بمجرد أم لا ؟

ثم ذكر أن الذي عليه أهل السنة والجماعة أنه ليس في النساء
نبيات وإنما فيهن صديقات ، كما قال تعالى مخبرا عن أشرفهن مريم بنت
عمران حيث قال تعالى : * مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ
قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ * (١)

فوصفها في أشرف مقاماتها بالصديقة ، فلو كانت نبيمة لذكر
ذلك في مقام التشريف والاعظام فهي صديقة بنص القرآن الكريم . (٢)

(١) سورة المائدة : الآية " ٧٥ " .

(٢) مختصر عن تفسير ابن كثير : ج ٢ ص ٤٩٦ .

الباب الثاني

مريم وابنها آية للعالمين

ويشتمل على الفصول الآتية

الفصل الأول : مريم تبشرها الملائكة بعيسى عليه السلام
وتوضح لها صفات المبعث به .

الفصل الثاني : النفخ في مريم من روح الله . وحملها
بعسى عليه السلام وولادتها .

الفصل الثالث : اتهام مريم بالقاحشة
ونطق عيسى في المهد بدواءتها .

الفصل الرابع : هجرة السيدة مريم عليها السلام .
وفاة السيدة مريم عليها السلام .

الفصل الأول

مریم تبشرها الملائكة بعيسى عليه السلام
وتوضح لها صفات المبعث به

○ موقفها من جبريل عليه السلام -

○ صفات المبعث به -

- * الصفة الأولى : أنه كامة الله .
- * الصفة الثانية : تحديده اسمه .
- * الصفة الثالثة : أنه وجهًا في الدنيا والآخرة .
- * الصفة الرابعة : أنه من المقربين .
- * الصفة الخامسة : أنه يكلم الناس في المهدي وكرهًا .
- * الصفة السادسة : أنه سيكون من الصالحين .
- * الصفة السابعة : أنه سوف يُعَلِّم الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل .
- * الصفة الثامنة : أنه رسول إلى بني إسرائيل .

الفصل الأول

=====

مريم تبشرها الملائكة بميمى عليه السلام

وتوضح لها صفات العُشْر به

تجلت منزلة مريم عليها السلام فيما سبق ، من اصطفاؤه الله لها كخادمة لبيت المقدس ، وانباتها نباتا حسنا ، وكفالة زكريا عليه السلام لها ، فكانت هذه السيدة الفاضلة مثلا أعلى في العبادة حيث لازمت المحراب لم تبرحه متفرغة لعبادتها متقربة الى ربها .

ومينما هي ذات يوم تترك بيت عبادتها متجهة الى الشرق إذ ظهر لها جبريل عليه السلام ليهنئها ويبشرها بما أراد الله منها ، يقول الحق سبحانه في السورة التي سميت باسمها مفصلا ما اجملته سورة آل عمران : * **وَإِذْ كُنَّا فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ اتَّيَدَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا * فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا * قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا * (١)**

خطاب من الله تعالى لنبيه . أن يخبر قومه وكل من بلغه القرآن بقصة السيدة مريم عليها السلام لما فيها من كمال القدرة وعظيم الإزادة ، وسعة الحكمة ، وتبدأ قصة الحمل هذه بأن السيدة مريم تركت المحراب متجهة ناحية الشرق .

(١) سورة مريم : الآيات ١٦ ، ١٧ ، ١٨ .

- ويرى المفسرون أن سبب خروجها الى الشرق مايلي :
- ١ - قال السدي : لحيض أصابها ، وقيل لغير ذلك . (١)
 - ٢ - لتعبد الله ، وهذا حسن ، وذلك أن مريم عليها السلام كانت وقفا على سدانة المعبد وخدمته والعبادة فيه . فتنحت من الناس لذلك ، ودخلت في المسجد الى جانب المحراب في شرقه لتخلو للعبادة ، فدخل عليها جبريل عليه السلام (٢)
 - ٣ - وقيل : قعدت في مشرفة للإغتسال من الحيض محتجة بحائض أى شيء يسترها وكان موضعها المسجد فبينما هي فسي مفتسلها أتاها الملك في صورة آدمي شاب . (٣)
 - ٤ - قال الشيخ سيد قطب : هاهي ذا تخلو الى شأن من شئونها التي تقتضي التوارى من أهلها والاحتجاب عن انظارهم . ولا يحدد السياق هذا الشأن ، ربما لأنسه شأن خاص جدا من خصوصيات الفتاة . (٤)
 - ٥ - أكد البفوي أنها كانت تتطهر من الحيض فأتاها جبريل وهي تفتسل ، يقول البفوي : (فبينما هي تفتسل من الحيض قد تجردت إذ عرض لها جبريل في صورة شاب أمره وضحي الوجه حسن الخلق . (٥)

-
- (١) تفسير ابن كثير : ج ٣ ص ١١٤ .
 - (٢) القرطبي : ج ١١ ص ٩٠ ، فتح البيان : ج ٦ ص ١٣ .
 - (٣) البحر المحيط : ج ٦ ص ١٨٠ .
 - (٤) في ظلال القرآن : ج ٤ ص ٢٣٠ .
 - (٥) تفسير البفوي : ج ٤ ص ١٩٥ .

والذى أسبل اليه : أن مريم عليها السلام تركت قوسها أما
لانصرافهم من العبادة على وجه التمام ، أولأن الأولياء يسيلون السي
الأنس بالله دون سواء ، أو لأن الخلوة هي السبيل لكل سالك ،
أو لاستيحاشها من الخلق فاتجهت خالصة الى الحق ، حتى تتفرغ
للعبادة التامة دون شاغل يشغلها أو سائل يسألها وإنما التعلق
التام بالذات العليا ، كما قالت رابعة المدوية :

ولقد جملتك في الفؤاد محدثى

وأبحت جسمي من أراد جلوسى

فالجسم مني للجلوس مؤسس

وهبيب قلبي في الفؤاد أنيس

أما ما ذهب اليه هؤلاء الكرام ، من أئمة التفسير فمردود

لأن خلومريم من أجل الاغتسال واثيان الملك اليها وهي تفتسل : أو قبل
الاجتسال مخالف طبيعة الملائكة ، لأن الملائكة تتأذى وتستحي مما
يستحي منه بنوا آدم .

ولقد ذكر ابن هشام أن السيدة خديجة رضي الله عنها طلبت
من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يخبرها لحظة رؤيته لجبريل عليه
السلام ، فلما أتاه جبريل أخبر خديجة وكان الرسول جالسا معهما
فكشفت السيدة خديجة عن شيء ما من جسمها ثم سألت الرسول صلى الله
عليه وسلم هل تراه الآن ؟ قال : لا . قالت : فذلك ملك وليس
بشيطان . (١)

(١) سيرة ابن هشام : ص ٢٣٩ .

فإذا كان جبريل عليه السلام قد انصرف لمجرد كشف شيء ما من جسد السيدة خديجة فكيف يأتي إلى السيدة مريم وهي عارية تماما . فضلا عن كونها حائضا .

وقد كان للخروج إلى جهة الشرق أثر كبير في معتقادات النصارى حتى يومنا هذا .

قال الحسن : إنما اتخذت النصارى المشرق قبلة لأن مريم انتبذت مكانا شرقيا . (١)

" وعن ابن عباس قال : إن أهل الكتاب كُتبت عليهم الصلاة إلى البيت والحج إليه وما صرفهم عنه إلا قول ربك : * فانتبذت من أهلها مكانا شرقيا * قال خرجت مريم مكانا شرقيا فصلوا قبل مطلع الشمس . " رواه ابن أبي حاتم

وقال ابن جرير : رواية عن ابن عباس : إنني لأعلم خلق الله لأى شيء اتخذت النصارى المشرق قبلة ، لقول الله تعالى : * فانتبذت من أهلها مكانا شرقيا * واتخذوا ميلاد عيسى قبلة " (٢)

(١) قصص الأنبياء للشمالي : ص ٣٤٣ .

(٢) تفسير ابن كثير : ج ٣ ص ١١٤ .

وقد ذكر الألويسي : أنهم كانوا في زمن عيسى عليه السلام
يستقبلون بيت المقدس ، وأنهم ما استقبلوا المشرق الا بعمد رفعه عليه
السلام ، زاعمين أنه ظهر لبعض كبارهم فأمره بذلك وجوز أن يكون
اختاره الله تعالى لها لأنه مطلع الأنوار وقد علم سبحانه أنه حان ظهور
النور العيسوي منها فناسب أن يكون ظهور النور المعنوي في جهة
ظهور النور الحسي وهو كما نرى . (١)

وبينا مريم عليها السلام تتعبد في هذا المكان ، إذ ظهر
لها جبريل عليه السلام وكان ظهوره في الصورة التي يمكن لمريم أن تألفها ،
إلا أنها تعجبت لأنها كانت مستترة عن القوم ، سواء أكان الاستتار في
بنيان أو خلف جبل أو غير ذلك . المهم أنه أتى في صورة بشر قال تعالى :
* فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا
سَوِيًّا * (٢)

وتسمية جبريل (الروح) أو (روح القدس) واردة في
القرآن الكريم : وعبر عنه بذلك لأن الدين يحيا به هوحيه فهو مجاز ،
والإضافة للتشريف كبيت الله تعالى وجوز أن يكون ذلك كما تقول لحبيبتك
انت روحي محبة له وتقريبا فهو مجاز أيضا ، الا أنه مخالف للأول فسي
الوجه والتشريف عليه في جعله وحيا . (٣)

(١) روح المعاني للألويسي : ج ٦ ص ٧٥ .

(٢) سورة مريم : الآية ١٧ .

(٣) روح المعاني للألويسي : ج ٦ ص ٧٥ .

ومن العلماء من ذهب الى أن المراد بالروح هو عيسى عليه السلام ، أورد هذا الرأي الامام القرطبي قائلا : قيل ان الروح هو عيسى عليه السلام ، لأن الله تعالى خلق الأرواح قبل الأجسام . فركب الروح في جسد عيسى عليه السلام الذي خلقه في بطنها (١) وأورد هذا الرأي ايضا الألوسي ونسبه الى أبي مسلم (٢) وقد ذكر ابن كثير رأيا واستغفره وهو مروي عن أبي بن كعب قال : ان روح عيسى عليه السلام من جملة الأرواح التي أخذ عليها العهد في زمان آدم عليه السلام (٣) وهو الذي تمثل لها بشرا سويا اي : روح عيسى فحملت الذي خاطبها وحل فيها . يقول ابن كثير : وهذا في غاية الغرابة والنكارة وكأنه اسرائيلي . (٤)

-
- (١) الجامع لأحكام القرآن : ج ١١ ص ٩٠ .
(٢) روح المعاني : ج ٦ ص ٧٥ .
(٣) اشارة الى قول الله تعالى : * واذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم الست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين * . سورة الأعراف : الآية " ١٧٢ " .
(٤) تفسير ابن كثير : ج ٣ ص ١١٥ .

والأرجح أن الروح مراد به هنا جبريل عليه السلام ، وأنه يسمى بهذا الاسم في كثير من آي القرآن ، قال تعالى : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴾ (١) ، ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ ﴾ (٢)

والحوار الذي دار بين مريم والمثل لها يطل كونه عيسى عليه السلام ، وهذا الرأي كان تفسير الآية عند الأئمة الاعلام ويمكن العودة الى المراجع المذكورة في أسفل الصحيفة لتأكيد ما ذهب اليه (٣)

وحينما أتى الروح عليه السلام لمريم لم يأتها في صورة الحقيقية ، لأن البشر لا يستطيعون رؤية الملك على صورته الحقيقية ، قال تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يَنْظُرُونَ ﴾ (٤) وما ثبت من رؤية الرسول صلى الله عليه وسلم لجبريل عن صورته الحقيقية مرتين فهي خصوصية خاصة به لا يشاركه فيها أحد .

وقد كان هذا البشر على قدر من الجمال ، لأن الملائكة كذلك ، وأن تشبهوا بأفراد فإنهم يتشبهون بأفراد على قدر من الجمال .

-
- (١) سورة الشعراء : الآية " ١٩٣ " .
 (٢) سورة النحل : الآية " ١٠٢ " .
 (٣) تفسير روح المعاني للألوسي ، ج ١٦ ص ٧٥ ،
 ابن كثير : ج ٣ ص ٣١٥ ، القرطبي : ج ١١ ص ٩٠ ،
 فتح البيان : ج ٦ ص ١٤ ، البحر المحيط : ج ٦ ص ١٧٧ ،
 المرافعي : ج ١٦ ص ٤١ ، الخازن : ج ٤ ص ٢٤٠ .
 (٤) سورة الأنعام : الآية " ٨ " .

يقول الألوسي في معنى الآية : سوى الخلق كامل البنية
لم يفقد من حسان نعوت الأدمية شيئا . وقيل : تمثل في صورة قريب
لها اسمه يوسف من خدم بيت المقدس وذلك لتستأنس بكلامه وتتلقى
منه ما يلقي اليها من كلماته ، إذ لو بدا لها على الصورة الملكية لنفسرت
منه ولم تستطع مفاوضته (١)

وقد خاض كثير من العلماء في حكمة التمثل وكيفية ، تذكر
بعض آرائهم للرد عليها :

أورد البيضاوي قولا هو غاية في الغرابة بشأن تمثل جبريل
لها ، يقول " أنها جبريل عليه السلام متمثلا بصورة شاب أمر سوى
الخلقة لتستأنس بكلامه ولغته فتبهج شهوتها فتندرنطقها إلى
رحمها . (٢)

ولكن شراح البيضاوي لم يرتضوا هذا الرأي وأوردوا عليه
اعتراضات منها :

أن فيه عجة ينهفي أن تنتزه عنها مريم وأنه مناف لمقتضى
المقام وهو اظهار القدرة الخارقة للعادة (٣) .

(١) تفسير روح المعاني للألوسي : ج ١٦ ص ٢٥

(٢) حاشية زاده : ج ٦ ص ٢٨٢ .

(٣) حاشية زاده : ج ٦ ص ١٤٩ .

يقول صديق خان : ولم يبين أحد النظر الصحيح الا أبو السمعود حيث قال : عومع مخالفته لمقام بيان آثار القدرة الخارقة للمادة يكذب قوله تعالى : * قالت اني أعوذ بالرحمن منك ان كنت تقبسا * فإنه شاهد عدل بأنه لم يخطر بها لها شائبة ميل اليه ، فضلا عما ذكر من الحالة المترتبة على أقصى مراتب الميل والشهوة ، نعم كان تمثله على ذلك الحسن الفائق والجمال الرائق لا يتلائها وسبر عفتها ولقد ظهر منها من الورع والعفاف مالا غاية وراءه . (١)

وقد أخطأ الثعالبي خطأ بينا حين ذكر أن تمثل الملك لها كان بعد الحمل بعيسى عليه السلام ، فهاهو يقول : قالت العلماء بأخبار الأنبياء : لما مضى من حمل عيسى عليه السلام ثلاث أيام ومريم يومئذ بنت خمسة عشر عاما وقيل بنت ثلاث عشرة سنة . . . أخذت قلتها وانطلقت وحدها حتى دخلت المفارة فوجدت عندها جبريل عليه السلام قد مثله الله لها بشرا سويا ، فقال لها يا مريم ان الله بعثني اليك لأهب لك غلاما زكيا . . . (٢)

وهذا الرأي هو في غاية الغرابة ، وقد انفرد به الثعالبي وظاهره يخالف القرآن الكريم ، ويمكن التعقيب على الآراء السابقة بما يلي :

١ - أن الروح مراد به جبريل عليه السلام .

(١) فتح البيان : ج ٦ ص ١٤ .

(٢) قصص الأنبياء للثعالبي : ص ٣٤٢ .

- ٢ - أن اضافته الى الحق اضافة تشريف .
- ٣ - أن في تمثله بشرا لها رحمة بها ورفقا ، لأن رؤية الملك ليست في الامكان البشرى الا أن يتمثل على هيئة يمكن رؤيته عليها .
- ٤ - يجب تنزيه مريم عما ذهب اليه بعض المفسرين أنه تمثل لها في صورة بشر لكي يحرك فيها الشهوة ، ويولد لديها الفريضة ، فيكون الاستعداد للحمل على أثر رؤيتها لصورته وادراكها لجمالها .
- ٥ - يجب أن نعلم أن القصة بين ملك هو سيد الملائكة وصديقه من خيرة نساء العالمين ، وكونه عليه السلام تمثل لها في صورة جميلة فهذا مالا يتصور العقل إلا اياه . لأن الملائكة يضرب بهم المثل في الجمال ، وقد قال النسوة أثر دخول يوسف عليهن في بيت العزيز : * وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ * (١)
- وقد رأينا في حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن جبريل عليه السلام دخل عليهم في صورة هي مخرقة للمثل في الجمال . يقول عمر رضي الله عنه : بينما نحن جلوس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد . . (الحديث (٢) وقد أخبرهم الرسول صلى الله عليه وسلم في النهاية أن السائل كان جبريل عليه السلام .

(١) سورة يوسف : الآية ٣١ .

(٢) مسلم ، كتاب الايمان : ج ١ ، رقم ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ .

موقفها من جبريل عليه السلام :

ان مريم عليها السلام حين فوجئت بمن قطع عليها خلوتها
وعبادتها ورأت نفسها أمام رجل لم تره من قبل ولم تسمع به أو عنه ،
فزعت الى الله عز وجل كما هو الحال بالنسبة للصالحين ، وطلبت أن
يتولى حمايتها ممن رأت ، واستعانت به أن يكفيها ما توجست .

أجل ، فلقد خافته وظنت أنه يريد لها في نفسها فالكمان
منعزل ، وبينها وبين قوسها حجاب ، وقد تبدى لها في صورة شاب
جمع كل محاسن البشر ، وهي الأنثى التي جمعت كل مظاهر الجمال
والجلال ، فما الذي ينتظر من مثل هذه الصديقة العابدة التي تركت
الحياة والناس لرب الحياة والناس ، انه لا ينتظر لمثلها الا ان تطلب
حماية من هي في حساه ، ونصرة من أثرته على سواه .

ولهذا قالت : * اني أعوذ بالرحمن منك * اي الذي
رحمته عامة لجميع عباده ، في الدنيا والآخرة وله بنا خصوصية في
اسباغ الرحمة واتمام النعمة (١) وعلقت الاعادة منه على تقواه لأنسه
لا يستجيب للانصراف في مثل هذه المواطن من بني البشر الا من يتقي الله
ويخافه ، ولذلك فان بعض العلماء قدر جواب شرط محذوف ، أي
ان كنت تقيا فاني عائذة به منك .

وقدر الزجاج أن كنت تقيا فتتعط بتمويدي ..

وقدره بعضهم فأذهب عني ، ومعهم فلا تتمرض لي .

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور : ج ٤ ص ٧٥ نقلا

عن تفسير سورة مريم : ص ٢٢٧ .

وقيل : انها أرادت ان كنت تقيا متورعا فإني أعوذ منك فكيف إذا لم تكن كذلك ..

وقد رَدَّ الألوسي على من زعم أن (التقى) هو اسم لرجل صالح تشبه به جبريل وأتى مريم على صورته .

وقيل : اسم لرجل فاجر أتاها جبريل على صورته .

قال الألوسي : وأيا ما كان فالتقى وصف من التقوى .

وقول من قال : انه اسم رجل صالح أو طالح فليس يسديد . (٩)

رَدَّ جبريل على مريم عليها السلام :

قال : * إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا * (٢)

فقد أخبرها جبريل عليه السلام أنه مرسل من قبل الله عز وجل وعمر بلفظ الرب كتذكير لها وتطمين . أى : ان الذى ربك وخلقك وتمهدك ورعاك هو الذى أرسلني اليك فالذى بعثه هو من لجأت اليه واحتتمت به . ولكن عدل ذهب عنها الروح وأمنتها البشرى ؟ بمجرد هذا القول وهل صدقت ما سمعته منه ؟ .

يقول الامام الرازى وكذا النيسابورى : ولعله أظهر لها معجزة لتصدق . (٣) .

(١) روح المعاني : ج ١٦ ص ٧٧ .

(٢) سورة مريم الآية : " ١٩ "

(٣) تفسير الفخر الرازى : ج (٢) ص ١٩٨ ، النيسابورى : ج ٧ ص ٢٩

يقول محمد محمود حجازي : وأرى أن هذا تعليلا حسنا
فإنها ولا شك في ظرف عصب لم يكن يخطر ببال ، ويدخل بالنسبة
لها دائرة الاحتمال ، فكانت في مسيس الحاجة الى ما هو أقوى من
اليقين . (١)

وبعد أن أكد لها جبريل بأكد أسلوب أنه رسول من قبل
رأعيا منذ ولادتها وولي نعمتها في جميع مراحلها أخبرها أيضا لسانا
أرسله ربه إليها ؟ لقد جاءها بنعمة جديدة وهبة عظيمة لم تشهد الإنسانية
بعد ميلادها الأول مثيلا لها .

وعنده الهبة هي غلام زكي يمثل آية ياهرة في خلقه ومعجزة
بارزة في ايجاده ، فلقد جرت السنة الالهية في وجود النسل أن يكون
من ذكر وأنثى ، حتى المخلوقات التي لا يوجد فيها ذكر وأنثى
متميزات يجتمع في الفرد الواحد خلايا الذكر والتأنيث ، فمن أجل
أن لا يستقر في ذهن البشر انها الطريقة الوحيدة ، وأن الارادة الالهية
حبسية هذه السنة ضرب لهم هذا المثل ليقول لهم أن القدرة الالهية
لا تحتبس داخل النواميس ولا تحكمها ظواهر السنن (٢) .

وفي قوله تعالى : * لأهب لك غلاما زكيا * قراءتان :
الأولى منهما : بالهمز فإنه استند الفعل الى الذي خاطب
مريم ، وهو جبريل عليه السلام وعلى هذا يكون المعنى : إنما أنسا

(١) تفسير سورة مريم : ص ٢٣ ، د . محمد محمود حجازي .

(٢) في ظلال القرآن : ج ٤ ص ٣٠٥ .

رسول ربك لأهب أنا لك غلاما بأمر ربك ، أو من عند ربك ، فالهبة
من الله على يد جبريل ، فحسن اسناد الهبة إلى الرسول إذ قد علم
أن المرشد هو الواهب ، فالهبة لما جرت على يد الرسول أضيفت إليه
لالتباسها به . (١)

القراءة الثانية : بالياء (ليهب) على جواز كون الياء
للغائب ، فأجراه على الاخبار من الرب تعالى ذكره لتقدم ذكره ، فالمعنى
إنما أنا رسول ربك ليهب لك ربك غلاما . (٢)

وقد ذكر الامام ابن كثير ان كلا القراءتين له وجه حسن
ومعنى صحيح وكل تسلتزم الأخرى . (٣)

وكان المبشر به هو الغلام الزكي ، والغلام الزكي هو الطاهر
من الذنوب ، وقيل : نبيا ، وقيل : ناميا على الخير أى مترقيا من
سن إلى سن على الخير والصلاح . (٤)

(١) زاد المسير : ج ٥ ص ٢١١ ، الحجة في القراءات السبع

ص ٢١١ ، ابن كثير : ج ٣ ص ١١٥ .

(٢) نفس المرجع السابق : ص ٢١٧ ، ابن كثير : ج ٤ ص ١١٥

النسفي : ج ٣ ص ٣١ ، روح المعاني للآلوسي :

ج ١٦ ص ٧٧ ، البحر المحيط : ج ٦ ص ١٧٧ .

(٣) تفسير ابن كثير : ج ٣ ص ١١٥ .

(٤) تفسير روح المعاني للآلوسي : ج ١٦ ص ٧٧ .

وكانت البشرى بالنسبة لمريم محل غرابة لاشكا في قدرة الله
وانما لمفايرة اثبات الولد منها مع أنها لم يسبق لها زواج ولن تتزوج
لأنها محررة لبيت المقدس ، ولذلك فإنها سألت على وجه الاستفراب
* قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنْ بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا * (١)

كنت عن عدم الزواج بمس البشر ، وعن عدم الفاحشة بالبغى
وذكرت هذا تأكيدا لأن قولها لم يمسن بشر يشمل الحلال والحرام ،
وقيل ما استبعدت من قدرة الله تعالى شيئا ، ولكن أرادت كيف يكون
هذا الولد ؟ من قبل الزواج في المستقبل أم يخلقه الله ابتداء ؟ (٢)

والآية الكريمة قد صرحت عنا بنفي من البشر ونفي البغي ،
وفي سورة آل عمران صرحت بنفي من البشر فقط : * قَالَتْ رَبِّ أَنَّى
يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنْ بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى
أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * (٣)

فما الحكمة من ذلك ؟ أجاب عن هذا الامام الألوسي ،

بقوله :

١ - ان قولها : * لم يمسن بشر * مقتصرة عليه فان غاية
ما قيل فيه انه كناية عن النكاح والزنا على سبيل التخليب ،
ولم يجعل كناهه عن الزنا وحده .

(١) سورة مريم : الآية " ٢٠ " .

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ، ج ١١ ص ٩١ .

(٣) سورة آل عمران : الآية " ٤٧ " .

٢ - ولقائل أن يقول انه ثم (أى في آل عمران) كناية عن
النكاح فقط كما هنا ، واستوعبت الأقسام وهنا لأنه مقام
البسط واقتصرت على نفي النكاح ثم لعدم التهمة ولعلمها
أنهم ملائكة ينادون لا يتخيلون لديها التهمة ولعلمها أنهم ملائكة
ينادون لا يتخيلون فيها التهمة بخلاف هذه الحالة ، فإن جبريل
عليه السلام كان قد أتاها في صورة شاب أمرى ولهذا تعوذت
منه ولم يكن قد سكن روعها بالكلية الى أن قال * إنما أنا
رسول ربك * .

٣ - وقيد أن ما في آل عمران من الاكتفاء وترك الاكتفاء في هذه
لأنه تقدم تزولها فهي محل التفصيل ، بخلاف تلك لسبق العلم .

٤ - وقيل : المساس هنا كناية عن الأمرين على سبيل التغليب كما
في تلك السورة * ولم أك بغيا * تخصيص بعد التعميم ،
لزيادة الاعتناء بتنزيه ساحتها عن الفحشاء . ولذا أثيرت
كان في النفي الثاني فإن في ذلك إيذانا بأن انتفاء الفجور
لازم لها .

وكانها عليها السلام من فرط تعجبها وغاية لاستعجابها لسم
تلقت الى الوصف في قول الملك عليه السلام * لأهب لك غلاما زكيا *
النافي كل ريبة وتهمة ونبذته وراء ظهرها وأنت بالموصوف وحده ،
وأخذت في تقرير نفيه على أبلغ وجه أى : ما أبعد وجود هذا
الموصوف مع هذه الموانع بله الوصف وهذا قريب من الأسلوب الحكيم (١)

وكانت الاجابة من الحق سبحانه على لسان جبريل : * قَالَ
كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلْنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا
مَّقْضِيًّا * (١)

أى : قال الملك مجيبا لها عما سألت : ان الله قد قال :
انه سيوجد منك غلام وأن لم تكوني ذات بعل ولم تقترفي فاحشة ،
فان الله تعالى على ما يشاء قدير ولا يمتنع عليه فعل ما يريد ، ولا يحتساج
في انشاء الى المواد والالات ونحو الآية قوله في سورة آل عمران :
* كَذَلِكَ قَالَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * (٢)
ولنجعله آية للناس : أى وفعلنا ذلك لنجعله برهانا على
قدرتنا ، فقد خلقنا أباهم آدم من غير ذكر ، ولا أنثى وخلقنا عيسى
من أنثى فحسب ، وخلقنا بقية الذرية من ذكر وأنثى والى الأولين أشار
القائل :

ألا رب مولود وليس له أب

وذى ولد لم يلد له أبوان (٣)

قال ابن كثير : فقال لها الملك مجيبا لها عما سألت
أن الله قد قال انه سيوجد منك غلاما وان لم يكن لك بعل ولا يوجد منك
فاحشة فإنه على ما يشاء قدير .

(١) سورة مريم : الآية " ٢١ " .

(٢) سورة آل عمران : الآية " ٤٧ " .

(٣) تيسير المراغي : ج ١٦ ص ٤٣ .

ولهذا قال : * ولنجعل آية للناس * أى دلالة وعلامة للناس على قدرة بارئهم وخالقهم الذى نوع في خلقهم فخلق اباهم آدم من غير ذكر ولا أنثى ، وخلقى حواء من ذكر بلا أنثى وخلق بقية الذرية من ذكر وأنثى الا عيسى فإنه أوجده من أنثى بلا ذكر فتمت القسمة الرباعية الدالة على كمال قدرته وعظيم سلطانه فلا اله غيره ولا رب سواه وقوله : * ورحمة منا * أى ونجعل هذا الغلام رحمة من الله نبيا من الأنبياء ، يدعوا الى عبادة الله وتوحيده . . (١)

ومن المفسرين من ذهب الى أنه رحمة بمن آمن به فقط اما من كفر فلا (٢) * وكان أمرا مقضيا * أى : محكما قد تعلق به قضاوتنا الأزلي أو قدر واطر في اللوح لا بد لك منه أو كان أمرا حقيقيا بمقتضى الحكمة والتفضل أن يفعل لتضمنه حكما بالغة ، وهذه الجملة تذييل اما لمجموع الكلام أو للأخير . (٣)

ويحتمل أن يكون تذييل الآية من تمام كلام جبريل لمريم يخبرها ان هذا أمر مقدر في علم الله تعالى وقدرته ومشيئته . (٤)

(١) تفسير ابن كثير : ج ٣ ص ١١٥ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن : ج ١١ ص ٩٠ .

(٣) روح المعاني للألويسي : ج ١٦ ص ٧٩ ، القرطبي :

ج ١١ ص ٩١ .

(٤) ابن كثير : ج ٣ ص ١١٥ .

ومن المعلوم أن الأمر بالنسبة لله ليس فيه صعب ولا سهل وليس فيه هين ولا أهون فالكل أمام قدرة الله سواء ، خلق العالم ، وخلق الواحد ، خلق الجبال الرواس وخلق الهباء ، وانه سبحانه يخلق ما يشاء بكلمة كن . فليس كمثله شيء ، أما غيره فيحتاج الى المسواد والالات والى انتظام السنة والاسباب التي ربط الله بها الاشياء .

وانذا كان سبحانه غنيا عن كل ذلك ، فلأنه الذي صدر عنه كل ذلك فإن شاء أبقاها وان شاء أفناها وان شاء أثبتها وان شاء أهملها .

ولذلك جاء القيد بـ (علي) أى وحدى بحيث لا يقدر عليه غيرى ، فإن من قدر على خلق البشر بداهة من غير أبوين قادرين على خلق فرد منهم من غير أب ، ولذلك فإن الحق سبحانه قد لفت نظر منكري هذا الأمر ومن ظن سوءا بمرم نظرا لوقوفهم عند مستوى العقل الحسي ، لفت نظرهم الى الأب الأول حتى يهون عليهم ما يعتري أنفسهم من تساويات تتابع وقد لا تنتهى ، فقال الحق سبحانه : * إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * (١)

ومع هذا فإن في هذه الواقعة دليلا على طلاقة القدرة ، لقد كان العرف السائد التكرار لكل شيء ، وعاند بنوا اسرائيل انبياءهم غاية العناد ، كذبوا من شاءوا وعذبوا من شاءوا وقتلوا من أراد الله أن

(١) سورة آل عمران : الآية " ٥٩ " .

بقتل ، وكان التيار المادى هو الطبيعة السائدة المسيطرة على فكر
القوم وعقلهم حتى بعد كل عطاء * وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ
فَاتَوَا عَلَى قَوْمٍ يَمْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا
كَما لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ * (١)

* وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهَنَّمَ
فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ * (٢)

فشاءت ارادة الله أن يكون حادث ميلاد عيسى عليه السلام
بمباشرة نداء الى كل غافل أن يتنبه والى كل معرض أن يستجيب والى
كل مكابر أن يذعن .

هاهي الدلائل تدل على وجود إله ان لم تدرك ذاته ، تدرك
آثاره ، وان لم تلمس يده ، ترى أياديه ، ان طباعكم تميل الى الرومها
اكثر مما تميل الى السماع ، وان اليقين أوفق اليقين هو أقرب اليكم من
علم التيقن .

ولذا كانت الواقعة التي لم تكن ، ولن تكون ومع أنها لم تكن
ولن تكون ، فإنها بمثابة آلة تنبيه في كل ثانية من الثواني أو لحظة من
اللحظات وجد فيها بشر ، فإنهم يرون قصة عيسى اما في القرآن الذى
يتلى أو يسمع ، أو في الانجيل الذى يرم أو في التوراة التي تضمنت
اشارات الى هذا الحدث .

(١) سورة الأعراف : الآية " ١٣٨ " .

(٢) سورة البقرة : الآية " ٥٥ " .

ان هذه النصوص تنادى البشر بحادث عيسى قائلا :
أفبقوا واعتبروا ان قوانين الأسباب بالنسبة لكم وهي سنة الله في الكون
من أجل استقامته ، ولكن ان نسبتم هذه السنن الى الله وقيدتموه بهما
في فعله فهذا هو الخطأ المطلق حين أيدكم عيسى عليه السلام .
ان الانسان واجب عليه أن يسلم بالقدره المنفذة والارادة
المديرة ، والقوة العليا . عليه أن يؤمن بالله الذي يصرف الكون كما
يشاء لا كما نشاء * وَلَوْ أَتَبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ
وَمَنْ فِيهِنَّ * (١)

كما أن الواجب الرضى بما قسم الله وان خالف مراد النفس
لأن الله لا يريد بعباده الا خيرا : * مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ
وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ * (٢)

وفي هذا الرضى يكون الخير الكثير .

(١) سورة المؤمنون : الآية " ٧١ " .

(٢) سورة النساء : الآية " ٧٩ " .

• صفات المشر به •

ذكرت فيما سبق أن جبريل عليه السلام قد بشر السيدة مريم عليها السلام بأنها ستزق بولد زكي ، وفسر ذلك بأن المراد كونه نبيا أو طاهرا أو عاقلا بالغ الفاية . الخ .

وإذا كان جمهور المفسرين قد حمل المراد من كلمة الملائكة في سورة آل عمران في قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ (١) على أن المراد منها جبريل عليه السلام ، لأنه رئيسهم أولاه سيدهم . (٢)

فأنني أرى حمل الكلام على الحقيقة للأسباب الآتية :

- ١ - تغاير صورة الحوار بين سورة مريم وآل عمران بدليل :
 - أ - أنها أمرت هنا بالطاعة وال مداومة على العبادة ولم تؤمر بها هناك .
 - ب - أن الملائكة بشرتها هنا بالاصطفاء والطهارة ولم تبشر بذلك هناك .
 - ج - أن جبريل تمثل لها في صورة بشر ولم تتمثل الملائكة .
 - د - كما اكتفت السورة هنا بنفي من البشر لها وهناك نفت المسس والبي .
-

(١) سورة آل عمران : الآية " ٤٥ " .

(٢) روح المعاني للألوسي : ج ٣ ص ١٦٠ ، الرازي :

ج ٤ ص ٤٧ ، الجمل : ج ١ ص ٢٧١ ، ر النار :

ج ٥ ص ٣٣ .

هـ - ذكرت السورة هنا صفات البشر به ولم تذكر سورة مريم سوى أنه غلام زكي .

و - عطف الحمل على البشارة عطف ترتيب وتعقيب ولم تتطرق سورة آل عمران الى الحمل .

لهذه الوجوه أرجح أن الملائكة بشرت مريم كما بشرها جبريل عليه السلام ولا مانع أن تكون الملائكة مصاحبة لجبريل عليه السلام حين بشارته .
أوبشرتها بعده ، أو قبله ، وتكون البشرى بعده من باب التثبيت أو قبله من باب تخفيف الأثر المترتب على رؤى جبريل .

ولا يمتنع على ذلك بأنها لو بشرت سابقا لما كان منها اعتراض لأن الاعتراض مع البشارة قائم ، بل غل مع وجود الحوار بينها وبين جبريل لأنه بغير ما تجرى به العادة ، أو يكون اعتراضها لأنه ظهر بصورة بشر ، فخشيت أن يكون مختالا يراودها عن نفسها فذكرته بالله ان كان ممن يخاف الله .

وفي هذه الآيات الكريمة قد وضحت الملائكة لمريم صفات البشر به .

قال الجمل : اول صفات البشر به قوله بكلمه ، وآخره قوله ورسولا الى بني اسرائيل وقوله : * قالت رب * الى قوله * فيكون * اعتراض في خلال البشر به . فالعشر به نحو خمسة عشر شيئا ، كونه ولدا ، وكون اسمه كذا وكونه وحيها ، وكونه من المقربين . وكونه يكلم الناس في المهدي وكهلا ، وكونه من الصالحين ، وكونه يعلم الكتاب الحكمة والتسوية

والانجيل وكونه رسولا الى بني اسرائيل ، فهذا كله قاله لها الملك
قبل وجوده عليه السلام . (١)

وهذا الاجمال الذي أوجزه الجمل ، قد فصل في تفاسير عدة
ولما كان بعض تلك البشارات قد فسرتفسيرا سيئا واستخدم على غير
وجهه ، وغالى بعض المفسرين في بيان معنى بعض الصفات كان لابد من
ايراد بعض الآراء وترجيح مايدوراجحا والرد على مايدومتناقضا .

(١) الفتوحات الالهية : ج ١ ص ٢٧١ .

الصفة الأولى : من صفات البشر به :

(أنه كلمة من الله) يقول الشيخ رشيد رضا ، وفي لفظ
الكلمة أربعة أوجه :

١ - ان المراد بالكلمة كلمة التكوين لا كلمة الوحي (١) ذلك أنه
لما كان أمر الخلق والتكوين وكيفية صدورهما عن الباري عز وجل
ما يعلو عقول البشر عر عنه سبحانه بقوله : * إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا
أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * (٢) فكلمة كن هنا هي كلمة التكوين وههنا
يقول أن كل شيء قد خلق بكلمة التكوين فلماذا خص المسيح باطلاق
الكلمة عليه ؟ وأجيب عن ذلك بأن الأشياء تنسب في العادة والمعرف
العالم في البشر الى أسبابها ولما فقد في تكوين المسيح وعلوق أمه به
ما جعله سببا للعلوق ، وهو تلقح ما الرجل لما في الرحم من
البويضة التي يتكون منها الجنين أضيف هذا التكوين الى كلمة الله
وأطلقت الكلمة على المكون ايذانا بذلك أو جعل كأنه نفس الكلمة بالغة
وهذا هو الوجه المشهور .

(١) تفسير الطبري : ج ٦ ص ٤١١ .

(٢) سورة يس : الآية ٨٢ .

- ٢ - انه أطلق على المسيح للإشارة الى بشارة الأنبياء به فهو
قد عرف بكلمة الله ، أى بوحيه لأنبيائه . قاله الاستاذ الامام
الألوسي ، والكلمة تطلق على الكلام كقوله تعالى : * وَلَقَدْ
سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * (١)
- ٣ - أنه أطلق عليه لفظ الكلمة لمزيد ايضاحه لكلام الله الذى حرفه
قومه اليهود حتى أخرجه عن وجهه وجعلوا الدين ماديا محضا
قاله الرازى وجعله من قبيل وصف الناس للسلطان العادل ،
بظل الله ، ونور الله لما انه سبب لظهور العدل ونور الاحسان
فكذلك كان عيسى سببا لظهور كلام الله عز وجل بسبب كثرة
بياناته له وازالته الشبهات والتحريفات منه . (٢)
- ٤ - أن المراد كلمة البشارة لأمه ، فقوله بكلمة منه ، . معناه
بخبر من عنده أو بشاره وهو قول القائل : القى الى فلان
بكلمه سرني بها . بمعنى أخبرني خبرا فرحت به قال
ابن جرير : واستشهد له بقوله تعالى : * وكلمته ألقاها
الى مريم * يعني بشر الله مريم بعيسى ، ألقاها اليها بشرى
من عنده ، هي ولد لك اسمع المسيح عيسى ابن مريم ، ثم قال

(١) سورة الصافات : الآية " ١٧١ " ، روح المعاني : ج ٣ ص ١٦٠ .

(٢) الطبرى : ج ٨ ص ٤٧ .

مستدلا على هذا مانعه : اسمه المسيح فذكر ولم يقل اسمها
فيؤنث الكلمة مؤنثة ، لأن الكلمة غير مقصود بها قصد الاسم المذى
هو بمعنى فلان وانما بمعنى البشارة ، فذكرت كتابتها كما تذكر كتابته
الذرية والدابة والألقاب . (٢)

قال الامام الطبرى : سمى الله عز وجل كلمته ، لأنه كان
عن كلمته ، كما يقال لما قدر الله من شئ * هذا عن قدر الله وقضائه ،
يعني به هذا عن قدر الله وقضائه حدث ، وكما قال جل ثناؤه :
* وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا * (٢) يعني به أن ما أمر الله به ، وهو
الأمور به الذى كان عن أمر الله عز وجل .

وقال آخرون بل عي اسم لعيسى اسماء الله بها كما سمي سائر
خلقه بما شاء من الأسماء .

ثم رجح الطبرى الرأى الرابع الذى هو مذكور فيما سبق
وقد اقتبسه السيف رشيد رضا من تفسير الطبرى .

يقول الامام الطبرى ، وأقرب الوجوه الى الصواب عندى القول
الأول ونحو أن الملائكة بشرت مريم بعيسى عن الله عز وجل برسالته وكلمته
التي أمرعا أن تلقىها اليها ، ان الله خالق منها ولدا من غير بعمل

(١) تفسير المنار للشيخ رشيد رضا : ج ٥ ص ٣٠٣ ،

(٢) سورة النساء : الآية " ٤٧ " . ، الطبرى : ج ٦ ص ٤١١ .

ولا فحل ولذلك قال عز وجل اسمه المسيح فذكر ولم يقل اسمها
فيومئذ ، والكلمة مؤنثة لأن الكلمة غير مقصود بها قصد الاسم الذي
هو بمعنى فلان وانما هي بمعنى البشارة فذكرت كتابتها . (١)

وقد ذكر الامام الرازي سببا لتسمية المسيح عليه السلام بالكلمة
فقال : ان كل مخلوق وان كان مخلوقا بواسطة الكلمة وهي قوله (كن)
الا ان ما هو السبب المتعارف كان مفقودا في حق عيسى عليه السلام
وهو الأب ، فلا جرم كان اضافة حدوده الى الكلمة اكمل وأتم فجعل بهذا
التأويل كأنه نفس الكلمة كما أن من غلب عليه الجود والكرم والاقبال يقال
فيه على سبيل المبالغة انه نفس الجود ، ومحض الكرم وصريح الاقبال
فكذا هاهنا . (٢)

وقال الامام الألوسي : ومن الناس من زعم أن الكلمة بمعنى
البشارة ، كأنه قيل ببشارة منه وسعده ظاهر قوله تعالى : * إِنَّمَا
الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلَّمَتْهُ الْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرَوْحُ مِنْهُ * (٣)

(١) تفسير الطبري : ج ٦ ص ٤١١ - ٤١٤ بتصريف .

(٢) مفاتيح الغيب للفخر الرازي : ج ٨ ص ٤٧ .

(٣) الألوسي : ج ٣ ص ١٦٠ ، والآية من سورة النساء الآية

وفي اضافة الكلمة الى الله تشرىف وتعظيم لمكانة المبرر به
(من) في الآية ليست للتبميز لأن الله لا يتبعض وانما عسى
للبيان وعموم معانى (من) يقول ابن مالك :

بعض حين وابتداء في الأمكنة بمن

وقد تأتي لبدأ الزمنة

وقد ذهب الرازى الى أن المراد من كلمة (من) في الآية
هو ابتداء الفاية ، وذلك لأن في حق عيسى عليه السلام ، لما لم
تكن واسطة الأب موجودة ، صار تأشير كلمة الله تعالى في تكوينه ،
وتخليقه أكمل وأظهر ، فكان كونه كلمة الله مبدأ لظهوره ولحدوثه
أكمل فكان المعنى لفظ ما ذكرناه لا ما يتوهمه النصارى والحلولية . (١)

وقد كان للامام الجمل رأى مفاهيم في المراد من قوله تعالى :
* كلمة منه * فقال : سعى الولد كلمة لأنه وجد بكلمة كن . فهو
من باب اطلاق السبب على المسبب ، والمراد أنه وجد من غير واسطة
أب ، لأن غيره وان وجد يمتلك الكلمة لكنه بواسطة أب .

وقوله (منه) نعت للكلمة أى كلمة كائنة منه ، أى من الله ،

(١) مفاتيح الغيب : ج ٨ ص ٤٩ ، غرائب القرآن ورفائب
الفرقان : ج ٢ ص ١٩٣ .

أى مبتدأة وناشئة منه من غير واسطة الاسباب العادية (١)

وقد ناقش أحد الأطباء المسيحيين على بن الحسين
الواقدي ذات يوم ، فقال له : ان في كتابكم ما يدل على أن عيسى
جزء من الله وتلاهذه الآية ، أى قوله : * وكلمته ألقاها إلى مريم
وروح منه * فقرأ له الواقدي : * وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي
الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ * (٢) وقال له : انن يلزم أن تكون جميع
هذه الأشياء جزء منه سبحانه وتعالى فانقطع النصراني وفرح الرشيد
فرحاً شديداً وأعطى للواقدة حلة فاخرة . (٣)

(١) الفتوحات الالهية : ج ١ ص ٢٧١ .

(٢) سورة الجاثية : الآية " ١٣ " .

(٣) تفسير ابي السعود نقلا عن الجمل : ج ٢ ص ٢٧١ ،

تفسير التفسير للقرآن الكريم : ج ٣ ص ٦٨ .

النصارى يستشهدون بالكلمة على أزلية المسيح :

يدعي النصارى أن المسيح قد يم قدم الذات العلية ، وأنه كان مع الله الى جواره ، ويحيرون عن شخص المسيح بأنه كان الكلمة التي وجدت مع الأب ولازمت منذ القدم ، ويحتجون بأن القرآن قد صرح بأنه كلمة الله ، كما رأينا الطبيب الذي ناقش علي بن الحسين ومازالوا حتى يومنا هذا يقولون هذا في مقام الجدول ، ويمكن الوقوف على دعوهم هذه في كتاب ميزان الحق للجنة التبشير الرسالية بمصر والذي ألف سنة ألف وتسعمائة وثمان عشر ، وكتاب الفاصل بين الحق والباطل ، لأحد قساوسة قرطبة وآخرين .

وقد وردت (الكلمة) المعبرة عن المسيح في نصوص متعددة فيما يروونه كتابا مقدسا لديهم .

يقول يوحنا في بدء انجيله (في البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله وكان الكلمة الله) .

وورد أيضا في سفر الأمثال الاصحاح الثامن آية ٢٢ ، وفي رسالة بولس الى أهل كورنثوس الاصحاح الأول آية ١٧ ، وفي رؤيا يوحنا الاصحاح الأول آية (١) ، وفي رؤيا يوحنا الاصحاح التاسع عشر آية " ١٣ " وغير ذلك .

يقول مؤلفوا الكنز الجليل في تفسير الأنجيل : الهدء المذكور في النص السابق هو بدء العالم ، وافتتاح الكلام هنا مثل افتتاح كلام موسى في أول كتبه ، وشهادة يوحنا هنا مبنية على ما سمعه من المسيح وتعلمه من روح القدس .

والمراد بكان الكلمة . . . أراد بالكلمة المسيح . وكان يوحنا وقف في بدء الخليقة يشاهد الأزلية ، فرأى المسيح فيها قبل انشاء الخلق ، فاذن هو غير مخلوق ، ولا بدءاءة له واجب الوجود أزلي . . .

ولفظ الكلمة لا يوافق بها صفة كالْحكمة ، أو قوة كالنطق ، أو كتاب الله لأنه لا يصح أن يقال أن الكتاب المقدس صار جسدا ، بل المراد بها أقنم واعتاد اليهود تسمية المسيح المنتظر بالكلمة ، ولا سيما المتشبتون بين الأمم الذين عرفوا الفلسفة اليونانية ، والذين كتب يوحنا انجيله اليهم يفهمون بالكلمة الأقنم الثاني من الثلاث . .

وجه تسميته عليه السلام بالكلمة عندهم :

ويحق للمسيح أن يسمى كلمة لأن الله كلمنا به : أولاً لأنه أعلن لنا أفكار الله ومشيعته ، كما أن كلمة الانسان تعلن أفكار الانسان وأرادته ، فالمسيح أعلن الله لنا بتعليمه وسيرته وأعماله .

وتسمية ابن الله بكلمة الله ، تنفي كل نسبة جسدية بينهما كنسبة الابن للأب البشريين وكون المسيح كلمة الله يوجب كونه الهياً ، لأنه لا يعرف أفكار الله ويعلمها إلا الله ، كما قيل من عرف فكّر الرب أو من صار له مشيراً ، ومن من الناس يعرف أمور الانسان إلا روح الانسان الذي فيه ، هكذا أيضاً أمور الله لا يعرفها أحد إلا روح الله .

أما الفقرة الثانية من النص (الكلمة كان عند الله) أى الأب

وهذا قول ثان من جهة ابن الله وخلاصته أمران :

الأول : أن الابن كان أقنوماً مميزاً عن أقنوم الأب .

الثاني : أنه مع ذلك بينهما اتحاد كامل واتفاق تام في كل رأى وقضاء وعمل ، فما كان لأحدهما من المجد والمظمنة والكرامة كان للآخر . وهذا وفق قول المسيح :

(أنا والأب واحد) (١)

(وكان الكلمة الله) الفقرة الثالثة من النص ومعناه أنه ليس ملاكا أو مخلوقا آخر دون الأب لكنه مساو للأب في الجوهر ، أى أن له صفات الأب نفسها ، وقوته واستحقاقه الاكرام والطاعة والعبادة التي يستحقها الأب ، ولفظة (الله) هنا تختلف عنها في الجملة التي قبلها ومعناها عنا جوهر اللاهوت ، وهذه الآية ما تمثيت صحة تعليم التثليث لتمييزها أقنومين وتبيينها أنهما متساويان .

ومن هذه العبارات الثلاث : بيان ثلاثة أمور :

الأول : أزلية الكلمة .

الثاني : أقنوميته واتحاده بالأب .

الثالث : لاهوته أى كونه والأب واحد في الجوهر .

وفيها جواب لثلاثة مسائل :

الأولى : متى كان الكلمة جوابها كان منذ الأزل

الثانية : أين كان جوابها كان عند الأب

الثالثة : من هو الكلمة جوابها هو الله .

وهي تنفي ثلاث ضلالات :

الأولى : ضلالة أريوس وهي قوله ان المسيح مخلوق دون الخالق .

الثانية : ضلالة سوسينيوس وهي قوله ان المسيح ليس سوى رجل

كامل في صفاته .

الثالثة : سبالهوس الذي نفى التثليث وقال بأن اللاهوت
أقنرم واحد ظهر مرة أب ومرة ابنا ومرة روح قدس (١)
بهذا الفهم الخاطيء رأى المسيحيون قدم المسيح عليه
السلام وعو في ظهوره جسدا لا ينفصل عن كونه قديما .

يقول سميد بن البطريق : ومثلما أن كلمة الانسان المولودة
من عقله تكتب في قرطاس ، فهي في القرطاس كلها حقا من غير أن
تفارق العقل الذي منه ولدت ولا يفارقها العقل الذي ولدها ،
لأن العقل بالكلمة يعرف لأنها فيه ، والكلمة كلها في العقل الذي
ولدها ، وكلها في نفسها ، وكلها في القرطاس الذي التحمت به
فكذلك كلمة الله كلها في الأب الذي ولدته منه ، وكلها في نفسها وفي
الروح وكلها في الناسوت التي حلت فيه والتحت به .

وقد رد ابن تيمية على هذه الدعوى قائلا لهم : هذا التمثيل
حجة عليكم ، وعلى فساد قولكم ، لاجحة لكم ، وذلك يظهر
بوجه :

الوجه الأول :

أن يقال : أن كان حلول كلمة الله ، التي هي المسيح في
الناسوت ، مثل كتابة الكلام في القرطاس ، فحينئذ يكون المسيح من
جنس سائر الكلام ، كالتوراة ، وزبور داود ، والانجيل ، والقرآن ،
وغير ذلك . فان هذا كله كلام الله وهو مكتوب في القرطاس ، باتفاق

(١) الكنز الجليل في تفسير الانجيل : ج ٣ ص ٨ - ١٠ .

أهل الملل بل الخلق كلهم متفقون على أن كلام كل متكلم يكتب في القراطيس . .

وإذا كانت الكلمة التي هي المسيح عندكم هكذا . فمعلوم أن كلام الله المكتوب في القراطيس ليس عوالها خالقا ، وعوكلام كثير لا ينحصر في كلمة ولا كلمتين .

ولو قال قائل يا كلام الله اغفر لي وارحمي ، أو يا صورة أو يا انجيل ، أو يا قرآن اغفر لي وارحمي كان قد تكلم بباطل عند جميع أهل الملل والعقلاء ، وأنتم تقولون المسيح اله خالق وهو يدعى ويعبد ، فكيف تشبهونه بكلام الله المكتوب في القراطيس .

الوجه الثاني :

ان الكلام المكتوب صفة للمتكلم ، تقوم ويكتب في القراطيس عند سلف أهل الملل وجاهيرهم وعند بعضهم ، هو عرض مخلوق ، يخلقه من غيره ، فالجميع متفقون على أن الكلام صفة تقوم بغيرها ، ليس جوهرًا قائمًا بنفسه ، والمسيح عندكم لاهوته جوهر قائم بنفسه ، وهو اله حق من اله حق ، وهو عندكم اله تام وانسان تام فكيف تجعلون الاله الذي هو عين قائمة بنفسها كالصفة التي لا تقوم الا بغيرها .

الوجه الثالث :

(قولكم أن كلمة الانسان مولودة من عقله) :

لو كان صحيحا فالتولد لا يكون الا حادثا ، وأنتم تقولون :
أن كلمة الله القديمة الأزلية ، متولدة منه قبل كل الدهور ، وتقولون
مع هذا وهي اله ، وهذا كما أن بطلانه معلوم بصريح العقل فهي
بدعة وضلال في الشرع ، فانه لم يسم أحد من الأنبياء شيئا من
صفات الله ابنا له ، ولا يقال ان صفته متولدة منه . .

الوجه الرابع :

قولكم (من عقله) أن أردتم بعقله العين القائمة بنفسها
التي يسميها قلبا وروحا ونفسا ، أو نفسا ناطقة فتلك انما تقوم بها
المعاني ، وأما الألفاظ فانما تقوم بفهمه ولسانه .

وان أردتم بعقله مصدر عقل يعقل عقلا ، فالمصدر عرض
قائم بالعقل ، وهو عرض من جنس العلم والكلمة والعمل الصالح ، وان
أردتم بالعقل الفريضة التي في الانسان فهو ايضا عرض .

الوجه الخامس :

ان تسميتكم تكلم الانسان بالمعنى أو اللفظ تولدا .
أمر اخترعتموه ، لا يعرف عن نبي من الأنبياء ولا أمة من الأمم ، ولا في

المكتوب ، اما المداد المصور واما صورة المداد وشكله ويقال على الحرف المنطوق ، اما الصوت المقطع ، واما حد الصوت ومنقطعة وصورته ، وكل عاقل يميز بحسه وعقله بين الصوت المسموع من المتكلم وبين المداد المرئي بالبصر .

ولا يقول عاقل أن هذا هو هذا ، ولا يقال : ان هذا وهذا هو نفس المعنى القائم بقلب المتكلم ، فكيف يقولون أن الكلمة في القرطاس كلها في العقل الذي ولدعا ، وكلها في نفسها .

الوجه السابع :

ان الكلام له معنى من المتكلم ، يعبر عنه بلفظه ، واللفظ يكتب في القرطاس ، فالمكتوب في القرطاس هو اللفظ المطابق للمعنى ، لا يكتب المعنى بدون كتابة اللفظ ، ولهذا من لم يعرف اللفظ الذي كتب بالخط ، لم يعرف ما كتب ، فدعوى هؤلاء أن نفس المعنى الذي في القلب كله ، هو في القرطاس كله جعل لنفس المعنى هو الخط وهذا باطل . (١)

ونخلص من كل ماسبق الى مايلي :

١ - أن المراد بالكلمة ، كلمة التكوين التي يقوم بها الابدان .

(١) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح بتصرف : ص

٢ - أن (من) في الآية ليست للتبعيض وإنما هي للبيان
أولاً ابتداءً .

٣ - لا يجوز أن ينادى المسيح بكلمة الله ، فليس كل وصف ورد في
القرآن متعلق بهذات الله أو رسول من رسله يجوز أن ينادى
به . ألا ترى قول الله تعالى : * وَكَرَّوْا وَكَرَّ اللَّهُ وَاللَّهُ غَيْرُ
الْمَاكِرِينَ * (١) ومع هذا لا يجوز أن يقال لله :
(يا خير الماكرين) .

(١) سورة آل عمران : الآية ٥٤ .

” الصفة الثانية من صفات البشر به ”

(تحديده اسمه)

الأنبياء جميعا عليهم السلام يتم اصطفاؤهم من صفوة البشر ،
والله سبحانه وتعالى يختار لهم الزمان والمكان والأُم ، ويشملهم برعايته ،
وقد تمتد الرعاية الى تسمية النبي بوحى من قبل الله سبحانه وتعالى
فلقد ذكر القرآن الكريم ان الملائكة لما أتت ابراهيم عليه السلام وبشّرته
بالانجاب من سارة وكانت زوجه موجوده ضحكت فما كان من الملائكة
الا أن يشروها بالمولود واسمه بالهمام من الله ، قال تعالى : * وَأَمْرًا
قَائِمَةً فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ * (١) ،
وزكريا عليه السلام لما سأل الولد أتته الملائكة قائلة له : * يَا زَكَرِيَّا
إِنَّا نَبْشُرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا * (٢)

ومريم عليها السلام بعد أن بشرتها الملائكة بمولود أخبرتها
باسمه اما الذى يتسمى به أو الذى يعرف به ولقب له على الأرجح ،
أما اللقب فهو (المسيح) والمسيح لقب من الألقاب المشرفة كالصديق
والفاروق ، وأصله مشيحا بالعبرانية .

ومعناه المبارك * وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَمَا كُنْتُ * (٣)

(١) سورة هود : الآية ” ٧١ ” .

(٢) سورة مريم : الآية ” ٧ ” .

(٣) غرائب القرآن وغرائب الفرقان : ج ٢ ص ١٩٣ .

والآية من سورة مريم : ” ٣١ ” .

وفي سبب تسميته بهذا وجوه منها :

- ١ - قال ابن عباس رضي الله عنه : إنما سمي المسيح عليه السلام مسيحا لأنه ما كان يمسح بيده ذبا عاهة الأبرى من مرضه . (١)
- ٢ - قال أحمد بن يحيى : سمي مسيحا لأنه كان يمسح الأرض ، أى : يقطعها ، ومنه مساحة أقسام الأرض ، وعلى هذا المعنى يجوز أن يقال لميسى عليه السلام ، مسيح بالتشديد (٢)
- ٣ - سمي مسيحا لأنه كان يمسح رأس اليتامى تقربا إلى الله تعالى فعلى هذه الأقوال هو فاعيل بمعنى فاعل ، كرحيم بمفعلى راحم . (٣)
- ٤ - أنه مسح من الأوزار والآثام (٤) .
- ٥ - سمي مسيحا لأنه ما كان في قدمه خمس ، فكان مسح القدمين . (٥)

-
- (١) تفسير الفخر الرازى : ج ٨ ص ٤٩ ، القرطبي : ج ٤ ص ٨٩ ، ابن كثير : ج ٢ ص ٢٤٩ . الجمل : ٢٧١/١ ، اللوسى ١٦١/٣
 - (٢) تفسير الرازى : ج ٨ ص ٤٩ ، غرائب القرآن : ج ٢ ص ١٩٣ .
 - (٣) تفسير الطهرى : ج ٦ ص ٤١٤ ، صفوة البيان : ج ١ ص ١٠٧ .
 - (٤) تفسير ابن كثير : ج ٢ ص ٢٤٩ ، الهفوى : ج ١ ص ٣٤٧ .
 - (٥) تفسير القرطبي : ج ٤ ص ٨٩ ، الهفوى : ج ١ ص ٣٤٧ ، غرائب القرآن : ج ٢ ص ١٩٣ .

- ٦ - سمي مسيحا لأنه كان مسوحا بدهن طاهر مبارك يمسح به الأنبياء ولا يمسح به غيرهم ، ثم قالوا : وهذا الدهن يجسوز أن يكون الله تعالى جعله علامة حتى تعرف الملائكة أن كل من مسح به وقت الولادة فإنه يكون نبيا (١) .
- ٧ - سمي مسيحا لأنه مسحه جبريل عليه السلام بجناحه وقت ولادته ليكون ذلك صونا له من مس الشيطان أو بيده تبركا به (٢) .
- ٨ - سمي مسيحا لأنه خرج من بطن أمه مسوحا بالدهن وعلى هذه الأقوال يكون المسيح بمعنى المسوح (٣) .
- ٩ - وقيل : لأنه حين مسح الله تعالى ظهر آدم عليه السلام فاستخرج منه ذرات ذريته لم يردّه الى مقامه كما فعل بياقي الذرات بل حفظه عنده حتى ألقاه الى مريم فكان قد بقي عليه اسم المسيح ، أي المسوح . (٤)

-
- (١) رغائب القرآن : ج ٢ ص ١٩٣ ، الفخر الرازي : ج ٨ ص ٤٩
- (٢) الرازي : ج ٨ ص ٤٩ ، تيسير التفسير : ج ٢ ص ٦٨
- غرائب القرآن : ج ٢ ص ١٩٤ .
- (٣) رغائب الفرقان : ج ٢ ص ١٩٤ ، الرازي : ج ٨ ص ٤٩ ،
- الألوسي : ج ٣ ص ١٦١ .
- (٤) روح المعاني للألوسي : ج ٣ ص ١٦١ .

ويُفَرَّق بين المسيح عيسى والمسيح الدجال ، أما بالنقطة
على الحاء فيكون (مسيح) أو يكونه أمور أو بفتح وجهه .
كما أن المسيح داعي الهدى والمسيح داعي الضلال (١)

وقد اقترن لقب المسيح باسمه الحقيقي (عيسى ابن مريم)
وتقدم المسيح وهو لقب على عيسى وهو اسم للتشريف والتنبيه على
علو درجته (٢) وإنما نسب إلى مريم ، والخطاب لعريم تنبيهها
على أنه لا أب له حتى ينسب إليه كما في سائر الأنبياء ، فلا ينسب
إلا إلى أمه وذلك من جملة ما اصطفت به . (٣)

يقول الرازي : لم قال عيسى ابن مريم والخطاب مع مريم ؟
وأجاب بقوله لأن الأنبياء ينسبون إلى الآباء لا إلى الأمهات .
فلما نسب الله تعالى إلى الأم دون الأب ، كان ذلك اعلاماً
لها بأنه محدث بغير أب ، فكان ذلك سبباً لزيادة فضله وعلو درجته ،
وأما حكمة تسميته بعيسى ابن مريم مع أن الاسم عيسى فقط وابن مريم
صفة فلأن السبب أنه يعرف بهذه الثلاثة معاً . (٤)

-
- (١) غرائب القرآن : ج ٢ ص ١٩٤ ، الألوسي : ج ٣ ص ١٦١ ،
الرازي : ج ٨ ص ٤٩ .
(٢) غرائب القرآن وغرائب الفرقان : ج ٢ ص ١٩٤ .
(٣) غرائب القرآن وغرائب الفرقان : ج ٢ ص ١٩٤ .
(٤) الفخر الرازي : ج ٨ ص ٤٩ .

وقيل ان في نسبه الى أمه رت على النصارى الذين يزعمون نسبه الى الله سبحانه (١) .

وهذا نال المسيح عليه السلام شرف التسمية من قبل الحق سبحانه شأنه في ذلك شأن اسحاق ويصقوب ، ويحيى عليهم جميعا السلام وعلى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم أفضل الصلوات والتسليم .

(١) روح المعاني للألوسي : ج ٣ ص ١٦٢ .

الصفة الثالثة : (أنه وجبها في الدنيا والآخرة) :

ومن الصفات التي بشرت بها مريم عليها السلام ، أن المولود سوف يكون وجبها في الدنيا والآخرة ، والوجبه ذو الشرف ، والقدر وقيل : الكريم على من يسأله فلا يرد لكرم وجهه عنده ، خلاف من يبذل وجهه للمسألة فيرد ، ووجاهته في الدنيا بالنبوة والتقدم على الناس ، وفي الآخرة بقبول شفاعته وعلو درجته .

وقيل : وجاهته في الدنيا بقبول دعائه بأحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص ، وقيل : بسبب أنه كان مبرأ من الصيوب التي افترها اليهود عليه ، وفي الآخرة ماتقدم وليست الوجاهة بمعنى الهيئة والبره ليقال : كيف كان وجبها ، في الدنيا مع أن اليهود قاتلهم الله عاملوه بما عاملوه على أنه لو كان المعنى كذلك لا تقدح تلك المعاملة فيه . (١)

وقال النيسابوري : وجبها في الدنيا بالنبوة والمعجزات الباهرة وإبراء عن الصيوب والآخرة بشفاعة الأئم المحقين وعلو الدرجة في الجنة (٢) ومثله ابن كثير (٣) .

(١) روح المعاني للألوسي : ج ٣ ص ١٦٢ .

(٢) غرائب القرآن : ج ٢ ص ١٩٤ .

(٣) تفسير ابن كثير : ج ١ ص ٣٦٤ .

الصفة الرابعة : (أنه من المقربين)

والمراد بالقرب هنا أعلاء درجته ومنزله ، وهو القرب من
الخالق جلّ في علاه ، وقد ذكر المفسرون آراء في معنى كونه من
المقربين نأخذ منها :

- أ - أنه من المقربين عند الله يوم القيامة قاله النيسابوري (١) .
- ب - هو إشارة الى رفعه الى السماء وصحبته الملائكة .
- ج - وقيل من المقربين من الناس بالقبول والاجابة وهو معطوف
على (وجيها) أى : ومقربا من جملة المقربين . (٢)

(١) غرائب القرآن : ج ٢ ص ١٩٤ ، روح المعاني : ج ٣ ص ١٦٢ .
(٢) غرائب القرآن : ج ٢ ص ١٩٥ .

الصفة الخامسة - (أنه يكلم الناس في المهد وكهلا) :

وهذه الصفة توحى بأمر لم أجده لدى المفسرين ، وهو
بشرى الملائكة لمريم بأن عمر المولود سوف يمتد الى سن الكهولة ،
وهذا هو غاية ما تتمناه كل أم لوليدها انها سمعت به وصفاته الحسنة ،
وكل هذه الصفات لاتدل الى أى مدى تستمر به الحياة ، فكانت
البشرى : أن الحياة سوف تمتد به الى سن الكهولة .

والمهد : هو حجر الأم ، وقيل : الالة الممروقة
لاضجاع الصبي . وكيف كان فالمراد أنه يكلم الناس في الحالة التي
يحتاج الصبي فيها الى المهد .

وكما أنه يكلم الناس في المهد فانه سوف يكلمهم في الكبر ،
فالكهل هو الذى اجتمعت قوته وشبابه من قولهم : اكتهل النمس
أى قوى .

وهن الحسين بن الفضل : المراد أن يكون كهلا بعد نزوله
من السماء وأنه حينئذ يكلم الناس ويقتل الدجال .

فان قيل : ان تكلمه في المهد من المعجزات ، ولكن تكلمه
في حال الكهولة ليس من المعجزات فما الفائدة في ذكره ؟

فالجواب من وجوه :

قال أبو مسلم : معناه أنه يتكلم حال كونه في المهد وحال كونه
كهلا على حد واحد ، وصفة واحدة . ولا شك أنه غاية في الاعجاز .

وقيل : المراد أنه يكلم الناس مرة واحدة في العهد لاظهار
طهارة أمه ثم عند الكهولة يتكلم بالوحي والنبوة .
وقال الأصم : المراد أنه يبلغ حال الكهولة (١)

(١) غرائب القرآن ورفعايب الفرقان : ج ٢ ص ١٩٥ .

الصفة السادسة - (أنه سيكون من الصالحين) :

ومن صفات المولود أنه سيكون من الصالحين ، شأنه في ذلك شأن آبائه الأكرمين ، ابراهيم واسحاق ويعقوب .

ولاشك أن الصلاح سبب لجميع مقامات الدين ومتقدم فهي الوجوه على النبوة ، ولذلك ذكره مع تقدم الصفات ، أو المراد أنه يكون من الكاملين في الصلاح .

وأيضاً يقال : لمرتبة أعلى من كون المرء صالحاً ، لأنه لا يكون كذلك إلا إذا كان في جميع الأفعال والتروك مواظباً على المنهج الأصح ، فتناول جميع مقامات الدين اعتقاداً وقولاً وعملاً ، فلا يعترض بأن مقام النبوة أعظم فتغنني ولذلك قال سليمان بعد النبوة : * وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ * (١)

ومن هنا بشرها الحق سبحانه بأن ولدها سوف يكون من الصالحين معدوداً في عدادهم .

(١) سورة النحل : الآية " ١٩ " .

الصفة السابعة :

(انه سوف يعلم الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل) :

ومن صفات المسيح أنه سيعلم الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل ،
وهل هذا من كلام الملائكة أيضا ويكون قولها : * قال رب أنسى
يكون لي ولد . . . * الآيات . جملة معترضة ، أم أنه من كلام
الحق سبحانه ويكون على الاستثناء ، والأرجح أنه من ضمن ما بشرت
به مريم ، وهذا ما رجحه كل من الامام الألوسي (١) ، والنيسابوري (٢) ،
وابن كثير (٣) .

والمراد بالكتاب الخط ، والحكمة : أن يعرف الحق لذاته
والغير لأجل العمل به ، والتوراة ، لأن البحث عن أسرار الكتب
الالهية لا يمكن الا بعد الاطلاع على العلم الخمسة :
الانجيل : وفيه تكون العلم التي غصه الله تعالى بها
وشرفه . (٤)

- (١) تفسير روح المعاني للألوسي : ج ٣ ص ١٦٦ .
- (٢) تفسير غرائب القرآن ورفائب الفرقان للنيسابوري : ج ٢ ص ١٩٤ .
- (٣) تفسير ابن كثير : ج ١ ص ٣٦٤ .
- (٤) تفسير غرائب القرآن : ج ٢ ص ١٩٥ ، ابن كثير :
ج ١ ص ٣٦٤ .

ونذهب الامام أبو علي الجبائي الى أن المراد بعض الكتب التي أنزلها الله تعالى على أنبيائه عليهم السلام ، سوى التوراة ، مثل الزبور وغيره .

ونذهب كثيرون الى أن (ال) فيه للجنس والمراد جنس الكتب الالهية .

(والحكمة) : أى الفقه وعلم الحلال والحرام . قاله ابن عباس .

وقيل : جميع ما علمه من أمور الدين ، وقيل سنن الأنبياء عليهم السلام .

وقيل : الصواب في القول والعمل . وقيل : اتقان العلم العقلية ، وتعلم ذلك كله يكون بالالهام ، أو بالوحي ، أو بالتوفيق والهداية للتعلم . (١)

(١) روح المعاني للألوسي : ج ٣ ص ١٦٦ .

الصفة الثالثة : (انه رسول الى بني اسرائيل) :

وخصص بنو اسرائيل في الآية اما لخصوص بعثة المسيح عليه السلام ، أو لأنهم محل البدء في الدعوة ، وقيل : ان في هذا ردّ على من زعم من اليهود أنه غير مرسل اليهم بل مبعوث الى غيرهم .

ولى في نسبة هذا الزعم لبعض اليهود تردد ، وليس ذلك في الكتب المشهورة ، والذي رأيناه فيها أنهم في عيسى الذي قص الله تعالى علينا من أمره ما قص فرقتان .

فرقه ترميه وحاشاه بأفطع حارمت به أمة نبيها ، وهم أكثر اليهود وفرقة يقال لهم العثمانية (١) أصحاب عنان بن داود رأس الجالوت يصدقونه في مواعظه وإشاراته ويقولون انه لم يخالف التوراة البتة ، بل قررها ودعا الناس اليها ، وانه من المستجيبيين لموسى عليه السلام ومن بني اسرائيل المتعبدين ، وليس برسول ولا نبي ، ويقولون أن سائر اليهود ظلّموه حيث كذبوه أولاً ، ولم يعترفوا مدعاه ، وقتلوه آخرًا ولم يعترفوا مرامه وسفزه ، نعم من اليهود فرقة يقال لهم العيسوية (٢) يزعمون أن لله تعالى رسولا بعد موسى عليه السلام يسمى المسيح ، الا أنه لم يأت بعد ويدعون أن له خمسة مسن

(١) الفصل لابن هزم : ج ٢ ص ٥٤ .

(٢) نفس المرجع السابق : ص ٥٥ .

الرسل يأتون قبله واحدا بعد واحد ، وأن صاحبهم هذا أحد
رساله . (١)

وقد ورد في الإنجيل أن احدى النساء أتت المسيح تسأله
شفاء ابنتها التي كان بها مس من الشيطان فرفض قائلا : " اذهبي
يا امرأة فاني لم أبحث الا الى خراف بني اسرائيل الضالة " (٢)
والوصف بالرسالة اقترن ببعض معجزات المسيح عليه السلام والتي
منها :

١ - ان الله سبحانه وتعالى أعطاه القدرة على اقامة الدليل على
صدق دعوته * ورسولا الى بني اسرائيل اني قد جئتكم
بآية من ربكم اني اخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه
فيكون طيرا باذن الله * (٣)

وقد نسب المسيح عليه السلام كون ذلك المصور طيرا
الى الله ، وانما مهمته هي النفخ حتى لا تكون عنسك
مندوحة لمدع أن يقول أن المسيح هو الله . لأنه كان
يخلق بنص القرآن . (٤) والمراد باذن الله ، أى بأمر الله .

(١) تفسير روح المعاني : ج ٣ ص ١٦٧ .

(٢) متى اصحاح : ١٥ آية ٢٤ .

(٣) سورة آل عمران : الآية " ٤٩ "

(٤) بين الاسلام والمسيحية : ص ٧٦ - ٧٩ بتصرف .

وأشار بذلك الى أن احياءه من الله تعالى ولكن بسبب النفخ وليس ذلك لخصوصية في عيسى عليه السلام ، وهي تكونه من نفخ جبريل عليه السلام وهوروح محض . كما قيل : بل لو شاء الله تعالى الاحياء بنفخ أى شخص كان لكان من غير تخلف ولا استعصاء ، قيل : وفي هذه المعجزة مناسبة لخلقه من غير أب .

واختلف هل كان ذلك بطلب واقتراح أم لا ؟
فذهب المعظم الى الأول (١) .

٢ - انه يرى الأكمة والأبرص ، (الأكمة) هو الذى ولد أعمى كما روى عن ابن عباس ، وأخرج ابن أبي حاتم من طريق عطاء عنه أنه المسوح العين الذى لم يشق بصره ولم يخلق له حذقه . وعن مجاهد أنه الذى يبصر بالنهار ولا يبصر بالليل ، وعن عكرمة أنه الأعمش (٢) .
وقد رجح ابن كثير انه الذى ولد أعمى لأنه أبلع في التحدى . (٣)

-
- (١) روح المعاني للألوسي : ج ٣ ص ١٦٨ .
(٢) روح المعاني للألوسي : ج ٣ ص ١٦٩ ، ابن كثير : ج ١ ص ٣٦٤
(٣) ابن كثير : ج ١ ص ٣٦٤ .

(والبرص) هو بياض يغير الجلد ولا يرى منه صاحبه ويذهب بجمال البشرة ، وقد خص هذين النوعين - والله أعلم - من سائر الأمراض لأنهما حتى وقتنا هذا - مما عجز عنه الطب ، فقد يظل عاجزا . فلم نسمع ان انسانا ولد أعشى فصولج . أو أن أبرصا قد تم علاجه .

٣ - أنه سوف يحيى الموتى بإذن الله ، وهي من خصوصياته في وقته ذلك ، وسواء أكان سبب الأحياء الصلاة أو الدعاء أو الذكر بأسماء الله وخاصة الأَعْظَم أو بالضرب بالعصا أو غير ذلك . (١)

فان الذي نسلم به أن مريم بشرت بأن الوليد سوف ينال نعمة أحياء الموتى اذا شاء الله بالعدد الذي يرضاه الله ويأذن به . والأفضل ترك الخوض في عدد الذين أحياهم عيسى وأسمائهم وأماكنهم فان العلم به لا ينفع والجهل به لا يضر ولو كان في العلم بذلك أدنى فائدة لذكرها القرآن أو وضحته السنة ، فاذا ماتركا كان الترك أولى لأنه خوض فيما لا سند له ، والله سبحانه وتعالى علمنا في كتابه :
* وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا * (٢)

(١) ابن كثير : ج ٦ ، ص ٣٦٤ ؛ الألوسي : ج ٣ ص ١٦٩ .

(٢) سورة الاسراء : الآية " ٣٦ " .

٤ - وكذلك ينال نعمة الاطلاع على بعض الغيب قال تعالى :

* عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ ... * (١) وهذا قاسم كاد أن يكون مشتركاً بين عيسى عليه السلام وبين غيره ، والفرق بين اخباره واخبار السحرة أنه لا يخبر الا باليقين المحض ، عكس ما يخبر به السحرة ، واختلف هل كان الاخبار بعد النبوة أو قبلها ، والأرجح أنه بعدها ، وذهب البعض الى أنه كان قبلها ، واستشهدوا بما أخرجه ابن عساكر عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه قال : كان عيسى وهو غلام يلعب مع الصبيان يقول لأحدهم : تريد أن أخبرك ما خبأت لك أمك ؟ فيقول نعم ، فيقول : خبأت لك كذا وكذا ، فيذهب الغلام منهم الى امه فيقول لها ، اطمعيني ما خبأت لي ، فتقول : وأي شيء خبأت لك ؟ فيقول كذا وكذا ، فتقول : من أخبرك؟ فيقول عيسى ابن مريم ، فقالوا : والله لان تركتم هؤلاء الصبيان مع عيسى ليفسدنهم فجمعوهم في بيت واحد وأغلقوه عليهم ، فخرج عيسى يلتمسهم فلم يجدهم حتى سمع ضوضاءهم في بيت فسأل عنهم فقال : ما هؤلاء أكان هؤلاء الصبيان ؟ قالوا : لا . اما هي قردة وخنازير ، قال : اللهم اجعلهم قردة وخنازير فكانوا كذلك . (٢)

(١) سورة الجن : الآيتان " ٢٦ - ٢٧ " .

(٢) روح المعاني : ج ٣ ص ١٧ .

ومع رواية هذه القصة عند ابن عساكر ، فان الضعف يسجد و
فيهما ظاهرا بدليل :

- أ - كيف يخبر عيسى بما غاب في البيت ولم يعلم بغيبه الصبيان
- ب - ألم يكن في ادراك المسيح أن يميز بين صوت الأطفال والقردة ،
- ج - لما تبين له كذبهم كيف يجوز شرعا ان يدعو عيسى على أطفال
براء لا ذنب لهم بأن يجعلهم الله قردة وخنازير .

كما أن التذييل يدل دلالة صريحة على أن الحوار كان بمعد
النبوة بدليل قوله * **إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ** * . (١)

- ه - انه مصدق لما بين يديه من التوراة ، فالأنبياء جميعا يشككون
صفا واحدا هم جنود الحق في مواجهة الباطل ، وكل منهم
يصدق من سبقه ويؤمن بكتابه . الا ما كان من استثناءات فسي
بعض التشريعات التي قد تختص بها أمة دون أمة ، أو يشدد
على أمة لمنادها أو جهودها أو تكبرها فيخفف عن الأمة
الأخرى ، أما الايمان بذات الكتب المنزلة فهو مبدأ اسلامي
وقاسم مشترك بين جميع المؤمنين .

ولذا رأينا عيسى عليه السلام كما بشرت بذلك والدته أنه
سيقول لقومه " ومصدقا لما بين يدي من التوراة " وقد
ورد نص في الانجيل يقول فيه المسيح (ما جئت لأنقض الناموس
أو الأنبياء بل لأكمل) (٢)

(١) سورة آل عمران : الآية " ٤٩ " .

(٢) انجيل متى من : ١٧ - ٢٠ .

٦ - وكما ذكرت أن الله سبحانه شدد على بعض خلقه لعنادهم أو تعصدهم أو كفرهم ، أو غير ذلك فقد كان من بين الذين شدد الله عليهم اليهود لأنهم طلبوا رؤية الله جهرة ، وطلبوا أن يكون لهم اله محسوس ملموس . ورفضوا شكر الله على نعمة النجاة من فرعون ، ورفضوا القتال مع موسى قائلين له :
 * فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ * (١) .

لكل هذا ، ولغيره قال الحق سبحانه : * وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمًا كُلُّ ذِي غُلْفٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمًا عَلَيْهِمْ شَحُومُهُمْ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمْ أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبِفَيْهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ * (٢)

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن الربيع أنه قال : كان الذي جاء به عيسى ألين مما جاء به موسى عليه السلام ، وكان قد حرم عليهم فيما جاء به موسى عليه السلام لحم الابل فأحلها لهم على لسان عيسى ، وحرمت عليهم شحم الابل فأحلت لهم فيما جاء به عيسى ، وفي أشياء من السمك وفي أشياء من الطير . . . وفي أشياء أخرى حرّمها عليهم وشدد عليهم فيها فجاء عيسى بالتخفيف منه ففي الانجيل . (٣)

(١) سورة المائدة : الآية " ٢٤ " .

(٢) سورة الأنعام : الآية " ١٤٦ " .

(٣) روح الصغاني للألوسي : ج ٣ ص ١٧١ .

وهناك صفات أخرى هي من معجزات عيسى عليه السلام الا
أن الملائكة هنا بشرت مريم بهذه الصفات التي ورد ذكرها ، ولا يلزم
من هذا أن تكون مريم على هذا الأساس نبيه لأنها سمعت صوت
الملائكة أو سألتهم حين البشارة * أنى يكون لي ولد * وقد سبق
بيان ذلك في فصل (القول بنبوة مريم ومناقشته) بما رجح لدينا
أنها ليست الا وليه من أولياء الله وصلت في الطاعة الى مرتبة الصديقه
كما وصفها الله بذلك في قوله سبحانه : * مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ
قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأَمَّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ . * (١)

وهذا تنتهي بشارة الملائكة لمريم عليها السلام بالحمل والتي
أعقبها النفع في مريم وعموما أعالجه في الفصل التالي ان شاء الله تعالى .

(١) سورة المائدة : الآية " ٧٥ " .

الفصل الثاني

التفخ في مريم من روح الله
وحملها بعيسى عليه السلام وولادتها

● الحمل بعيسى عليه السلام ومدته.

● تأثر بعض المفسرين بما ورد

في الإنجيل .

الفصل الثاني

=====

النفخ في مريم من روح الله وحملها بميسى وولادتها

ان مريم عليها السلام يضرب بها المثل في الطهر والعفاف
وشاءت ارادة الله أن يكون منها الوليد الذي يعتبر آية من آيات الله
في الخلق ، وهو فضل من الله ورحمة لا يخلو من الحكمة ، فلو لم تكن
مريم عليها السلام على هذا من الطهر لكان هناك مطمن لطاعن أن
يقول في ولادة عيسى عليه السلام قولاً ما . ولكن الارادة اقتضت
أن يكون من السيدة مريم لتقوم الحجة على الماديين الذي يخضعون الكون
كله ما يدرك منه وما لا يدرك لمقلهم المحدود .

ومع أن الآيات في سورة مريم ذكرت أن الحمل بميسى كان
بعد الحوار مع جبريل عليه السلام إلا أن هناك آيتين تشيران الى أن
النفخ قد حدث في فرج مريم عليها السلام ، وهذا النفخ كان من
روح الله ، يقول الحق سبحانه : * وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا
فِيهِ مِنْ رُوحِنَا... * (١) ويقول في سورة التحريم : * وَمَرِيَمَ ابْنَتَ
عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا... * (٢)

(١) سورة الأنبياء : الآية " ٩١ "

(٢) سورة التحريم : الآية " ١٢ "

وظاهر الآيتين أن النافع هو الله تعالى ويؤيده عــــ
المشابهة مع آدم في خلقه ، في قوله تعالى : * إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ
عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ..* (١)

ومقتضى التشبيه حصول المشابهة الا فيما أخرجه الدليل ،
وفي حق آدم النافع هو الله تعالى لقوله تعالى : *
* فَإِذَا سَوَّيْتَهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي ..* (٢) فكذا
هنا (٣) .

ويمكن أن يكون النافع جبريل عليه السلام لظاهر الآية السابقه
* لأهب لك * كما أنها قراءة الجمهور . وذلك توضح الآية
أنه مأمور من قبل الله سبحانه أن يهب لها هذا الغلام ، وهذا هو
الأرجح ، فنحن نعلم شرعا أن الانسان يتكون من أمرين نطفة مشتركة
روح من قبل الله .

ولقد شاءت ارادة الله تعالى انتفاء النطفة ، وما بقي الا السر
الذى تكون به الحياة ، والنفخ للروح يكون في كل مولود لأن الأرواح
قديمة قدم الخليقة ، ثم يكون نفخ كل روح في الوقت الذى يريده الله
وبشأوه .

(١) سورة آل عمران : الآية " ٥٩ " .

(٢) سورة ص : الآية " ٧٢ " .

(٣) تفسير الفخر الرازى : ص ٢٠ ، ٢١ .

قال صلى الله عليه وسلم : (ان ابن آدم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوما نطفة ثم أربعين يوما علقه ثم أربعين يوما مضغاً ثم يلقى اليه الملك فينفخ فيه الروح ويكتب عمره ورزقه وشقي أم سعيد (١)

ومذلك يكون جبريل عليه السلام قد قام بما يقص به الملك الموكل بنفخ الروح في الجنين أو أنها من مهماته أيضا .

(١) صحيح مسلم كتاب القدر باب ٤ رقم ٤٦ وهو تحت رقم ٢٦٤٣

ج ٤ ص ٢٠٣٦ .

الحمل بعيسى عليه السلام ومذته :

وفي كيفية الحمل به وجوه نذكرها ، ثم أعقب عليها :

١ - قال ابن عباس : أخذ جبريل رذن قميصها بأصبعه ،

فنفخ فيه فحملت من ساعتها بعيسى عليه السلام . (١)

٢ - روى أن مريم استسلمت لقضاء الله بعد اخبار الملك لها

وذكر غير واحد من علماء السلف أن الملك وهو جبريل عليه

السلام عند ذلك نفخ في جيب درعها فنزلت النفخة حتى

ولجت في الفرج فحملت بالولد بإذن الله تعالى . (٢)

٣ - قيل ان جبريل لم يدن منها وإنما نفخ عن بعد فوصل

الريح اليها فحملت ، وقيل : أن النفخة كانت في كها ، وروى

ذلك عن ابن جريج ، وقيل : كانت في ذيلها ، وقيل كانت

في فصها . (٣)

وهذه الآراء فيها تكلف ، لأن الأمر خارج عن العادة وفيه

دليل القدرة ، وقد تم النفخ بكيفية لا يعلمها الا الله سبحانه وتعالى ،

والتفويض فيه أسلم .

(١) تفسير القرطبي : ج ١١ ص ٩٢ .

(٢) ابن كثير : ج ٣ ص ١١٦ .

(٣) روح المعاني : ج ١٦ ص ٧٩ ، القرطبي : ج ١١ ص ٩٢ .

وأغرب ما بحث فيه العلماء أيضا كم كان سن مريم حين الحمل .
قال الطبرى : وزعت النصارى ان مريم حملت بميسى ولها
ثلاث عشرة سنة ، وأن عيسى عاش الى أن رفع اثنين وثلاثين سنة وأياما ،
وأن مريم بقيت بعد رفعه ست سنين ، فكان جميع عمرها نيفا وخمسين
سنة . (١)

(وعن وهب ومجاهد خمس عشرة سنة ، قيل أربع عشرة سنة ،
وقيل : اثنتا عشرة سنة ، وقيل عشر سنين (٢) .
وهذه الأقوال ضرب من التخمين لم تعتمد على سند أو دليل
وليس لقائلها أى برهان على قولها .

وكما اختلف المفسرون في كيفية الحمل وسن مريم حين الحمل
اختلفوا في المدة التي حملت فيها مريم بميسى عليه السلام .

١ - قال ابن عباس : ما هو الا أن حملت فوضعت في الحال ،
وهذا هو الظاهر ، لأن الله تعالى ذكر الانتباه عقيب
الحمل (٣) .

٢ - وفي رواية أخرى أنها تسعة أشهر كما في سائر النساء ، وهو
المروى عن الباقر رضي الله عنه لأنها لو كانت مخالفة لهن في
المادة لناسب ذكرها في أثناء هذه القصة الفريية .

(١) تاريخ الطبرى : ج ١ ص ٥٩٩ .

(٢) روح المعاني : ج ١٦ ص ٧٩ .

(٣) الجامع لأحكام القرآن ، للقرطبي : ج ١١ ص ٩١ .

وفي رواية أخرى عن ابن عباس : أنها كانت ساعة واحدة كما حملته نبذته ، واستدل لذلك بالتمقيب الآتي وأنه سبحانه قال في وصفه : * إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * (١) فانه ظاهر في أنه عز وجل قال له كن فيكون . فلا يتصور فيه مدة الحمل (٢)

وعن عطاء وأبي العالية والضحاك أنها كانت سبعة أشهر ، وقيل : كانت ستة أشهر ، وقيل : حملته في ساعة وصورته في ساعة ووضعته في ساعة حين زالت الشمس من يوما . والمشهور أنها ثمانية أشهر .

قيل : ولم يمش مولود لثمانية أشهر غيره عليه السلام (٣) وقد رجح الأئمة أن الحمل كان حملا طبيعيا ، ولم يخاف من العادة . وأن ما ذهب اليه هؤلاء لا دليل عليه .

يقول الهرسوى بعد ذكره لبعض الآراء في مدة الحمل : (وهو ظاهر البطلان وكونه من المبدعات بلاسبب ظاهر لا يستلزم ان يكون جميع أحواله بطريق خرق العادة) (٤)

(١) سورة آل عمران : الآية ٥٩ .

(٢) التفسير الكبير للامام الفخر الرازي : ج ٢١ ص ٢٠٢ .

(٣) قصص الأنبياء ، للثعالبي : ص ٣٤٤ .

(٤) روح البيان : ج ٥ ص ٣٢٥ .

وذكر ابن كثير يعض الآراء في مدة الحمل ، والتي هي
مفارقة للطبيعة البشرية .

ثم قال : وهذا غريب وكأنه . مأخوذ من ظاهر قوله تعالى :
* فحملته فانتبذت به مكانا قصيا فأجاءها المخاص الى جذع
النخلة * فالفاء وان كانت للتعقيب ، لكن تعقيب كل شيء بحسبه
كقوله تعالى : * وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ
نُطْقًا فِي قَرَارٍ مَكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً
فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا * (١)

وهذه الفاء للتعقيب بحسبها ، وقد ثبت في الصحيحين أن
بين كل صفتين أربعين يوما .

وقال تعالى : * أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتَصَبَّحَ
الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً * (٢)

ويقول ابن كثير : فالمشهور الظاهر والله على كل شيء

قدير أنها حملت به كما تحمد النساء بأولادهن . (٣)

ولعل هذا أولى بالقبول وأجدر أن يؤخذ به ان لو كان
الحمل غير عادي لكان جديرا بأن ينص عليه ويذاع في الناس ويشاع
وفضلا عن ذلك لم يكن هناك وجه لاتهام مريم لأن المعجزة واضحة . (٤)

(١) سورة المؤمنون : الآيات " ١١ - ١٤ "

(٢) سورة الحج : الآية " ٦٣ " .

(٣) تفسير ابن كثير : ج ٣ ص ١١٦ .

(٤) تفسير سورة مريم : ص ٢٤٥ .

وهذا الحمل ، كان اثر النفخ في مريم من الروح ، وقد بينت أن المراد بالروح اما جبريل عليه السلام ، واما السر الذي خلقه الله لتكون منه حياة الانسان . وكلا المعنيين قد فهم خطأ وترتب على هذا الفهم الخاطيء أمور أذكرها ثم أرد عليها .

أولا - على ارادة أن الروح مراد به جبريل اعترض عليه بأنه لا يجوز أن يكون الخلق من نفخ جبريل لأنه يصير الولد بعضه من الملائكة بعضه من الانس ، وهذا الاعراض غاية في البطالان ، لأن مهمة الملك انما هي ايصال سر الحياة دون ان يكون له صلة بها مؤثرة أو دخل فيها ولو كانت له مشاركة في الخلق لكان للملائكة الموكلين بهذا النفخ مشاركة أيضا في كل ولد آدم ولم يقل بذلك أحد . وأما كون الروح من قبل الله ، كما أن المسيح عليه السلام وصف بأنه روح منه وذلك في قول الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ ۚ ﴾ (١)

فقد ذهب النصارى الى أن هذه الآية تشير الى التبعيض وأن المسيح جزء من الله وهم يستشهدون بهذه الآية وغيرها مسن الايات .

(١) سورة النساء : الآية " ١٧٠ "

يقول القرطبي عند تفسيره لهذه الآية ، هذا الذي أوقع

النصارى في الاضلال ، فقالوا : عيسى جزء منه فجهلوا وضلوا ،
وعنه أجوبة ثمانية :

الأول : قال ابي بن كعب : خلق الله أرواح بني آدم لما أخذ
عليهم العهد والميثاق ثم ردها الى صلب آدم ، وأمسك
عنده روح عيسى عليه السلام ، فلما أراد خلقه أرسل
ذلك الروح الى مريم ، فكان منه عيسى عليه السلام .

فلهذا قال * روح منه * .

الثاني : هذه الاضافة للتفضيل وان كانت جميع الأرواح من خلقه
وهذا كقوله : * وطهر بيتي * .

الثالث : قد يسمى من تظهر منه الأشياء المعجبة روحا ، وتضاف
الى الله تعالى ، فيقال : هذا روح من الله ، أى من
خلقه ، كما يقال في النعمة أنها من الله ، وكان عيسى
يرى الأكمة والأبرص ويحيى الموتى فاستحق هذا
الاسم .

الرابع : قيل يسمى روحا بسبب نفخة جبريل عليه السلام ،
ويسمى النفخ روحا لأنه ريح يخرج من الروح .

الخامس : احتمال أن يكون * روح منه * مطوف على
المضر الذي هو اسم الله في (ألقاها) التقدير
ألقى الله ، وجبريل الكلمة الى مريم .

السادس : قيل * روح منه * أى من خلقه ، قال تعالى :
* وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا
مِّنْهُ * (١) أى من خلقه .

السابع : قيل روح منه ، أى رحمة منه فكان عيسى عليه السلام
رحمة من الله لمن اتبعه ومنه قوله تعالى : * وَأَيَّدَهُم
بِرُوحٍ مِّنْهُ... * (٢) أى برحمة وقرى : * فَرَّوْهُ
وَرِيحَانٌ... * (٣) .

الثامن : قيل روح منه أى برحمة ، كان عيسى برحمة وحجة
على قومه (٤) .

وما ذهب اليه القرطبي من حسن التوجيه ، فان جعل الاضافة
للتفضيل محل نظر الا اذا أريد بالتفضيل ، التفضيل على من سواه
من الأنبياء .

(١) سورة الجاثية : الآية " ١٣ " .

(٢) سورة المجادلة : الآية " ٢٢ " .

(٣) سورة الواقعة : الآية " ٨٩ " .

(٤) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : ج ٦ ص ٢٢ .

وقد كتب الدكتور احمد شلبي بحثا طيبا في المراد من الروح ،
ويذكر أن سبب الحاجة لهذه الدراسة أنه سمع من يقول أن عيسى خلق
من روح الله ، فهو أفضل الأنبياء .

فلنحاول هنا أن نحقق الحق في قضية الروح وقضية عيسى
عليه السلام ثم يقول :

وردت الروح في القرآن الكريم بمكان ثلاث هي :

- ١ - بمعنى جبريل قال تعالى : * وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ * (١)
* فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا * (٢) ،
* نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * (٣) * تَجَرَّجَ الْمَلَائِكَةُ
وَالرُّوحُ إِلَيْهِ... * (٤) * تَنْزِيلَ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ فِيهَا * (٥)

٢ - بمعنى الوحي بوجه عام أو القرآن بوجه خاص :

- قال تعالى : * يَنْزِلُ الْمَلَائِكَةُ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِ * (٦)
* يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده * (٧) ،
* وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا * (٨)

(١) سورة البقرة : الآية " ٨٧ "

(٢) سورة مريم : الآية " ١٧ "

(٣) سورة الشعراء : الآية " ١٩٣ "

(٤) سورة المعارج : الآية " ٤ "

(٥) سورة القدر : الآية " ٤ "

(٦) سورة النحل : الآية " ٢ "

(٧) سورة المؤمنون : الآية " ١٥ "

(٨) سورة الشورى : الآية " ٥٢ "

٣ - بمعنى القوة التي تحدث الحياة في الكائنات الحية ،
قال تعالى : * وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ
رَبِّي * (١) ، * وَالَّتِي أَحْصَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ
رُوحِنَا * (٢) ، * وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَتْ فَرْجَهَا
فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا * (٣)

والمعنى في الآيتين الأخيرتين الخاصتين بعيسى ، أن الله
سبحانه نفخ في مريم روحا خلقها الله بدون توسط أب ومعنى النفخ
تحصيل آثار الروح في الجسم ، والمقصود خلقناه بدون الطريق
الطبيعي للخلق ، ومثل ذلك قوله تعالى : * ونفخت فيه من روحي * (٤) .

أى : اعطيته الروح التي هي ملكي والتي لا يعرف كتبها سوى ،
ويلتقى الأزواج بالزوجات ولا يتم حمل الا اذا شاء الله فالحمل مرتبط
بالمشيئة الالهية أكثر من ارتباطه باللقاء بين الزوج وزوجته وفي حالة
عيسى تمت المشيئة دون اللقاء ، وعلى هذا فخلق عيسى عليه السلام على
هذا النحو لا يمنحه فضلا على ما سواه (٥)

-
- (١) سورة الأسراء : الآية " ٨٥ "
(٢) سورة الأنبياء : الآية " ٩١ "
(٣) سورة التحريم : الآية " ١٢ "
(٤) سورة الحجر : الآية " ١٥ "
(٥) مقارنة الأديان المسيحية لأحمد شلبي : ص ٣٤ ، ٣٥ .

تأثر بعض المفسرين بما ورد في الانجيل :

تحدث كثير من المفسرين أن السيدة مريم كانت تزور زوج زكريا عليه السلام ، لأن بينهما قرابة قريبة ، وقد أشار كاتب انجيل لوقا ، الى أن مريم عليها السلام بعد أن حملت بمعيسى وذهبت الى بيت زكريا ، وسلمت على اليصابات .

فلما سمعت اليصابات سلام مريم ، ارتكض الجنين في بطنها وامتلأت اليصابات من الروح القدس ثم قالت لمريم فهوذا حين صار صوت سلامك في أذني ارتكض الجنين بابتهاج في بطني (١)

وهذه الآيات تشير الى أن يحيى قد تحرك في بطن أمه فرحاً لما في بطن مريم واعظاما .

وقد ذكر المفسرون قصة مريم قريبة من هذا المعنى أو تكاد أن تطابقها اذا ما تراجعنا قليلا في نصوص الاصحاح الأول من الانجيل المنسوب الى لوقا .

قال السدي : لقيت أم يحيى أم عيسى وعما حاملان بها ، فقالت : يا مريم أشعرت أني حبلتي ؟ فقالت مريم : وأنا أيضا حبلتي قالت امرأة زكريا فاني وجدت ما في بطني يسجد لما في بطنك ، فذاك قوله : * مصدقا بكلمة من الله * (٢)

(١) انجيل لوقا الاصحاح الأول ص من ٣٩ - ٤٥ .

(٢) غرائب القرآن : ج ٢ ص ١٨٢ ، قصص الأنبياء للشمالي : ٣٤٤

القرطبي : ج ١١ ص ٩٣ ، اخبار الدول وآثار الأول في التاريخ

للقرماني : ص ٣٩ - ٤٠ .

وقد علل ذلك ابن كثير بأن السجود كان في ملتهم عند السلام مشروعا ، كما سجد ليوسف أبواه وأخوته ، وكما أمر الله الملائكة أن يسجدوا لآدم عليه السلام ، ولكن حرم ذلك في ملتنا تعظيما لجلال الرب (١) .

وهذا التعليل من ابن كثير غير مقبول ، لأن كلا الجنين لم يكن قد ولد بعد ، والسجود من الملائكة إنما كان سجود تواضع وسجود يعقوب ومنه إنما هو اعترافهم بمكانة يوسف عليه السلام .

وهذا يكون هذه القصة من الدخيل على التفسير ، وهي من بقايا العهد الجديد ، ولما ظهر الحمل هذا ، وكان مشارعجب ، وجمهور المفسرين على أن أول من تعجب منها هو أحد أقاربها ويسمى (يوسف النجار) ، يلاحظ أن هذه التسمية لا سند لها وإنما هي من الانجيل . (٢)

قال وهب : كانت مريم ويوسف النجار يخدمان ذلك المسجد وكان لخدمته فضل عظيم ، وكانا يلحان معالجته بأنفسهما . . وكان أول من أنكر حملها هو يوسف ، فلما رأى الذي بها استعظمه واستفظعه ولم يدر ما يصنع من أمرها ، وكلما أراد أن يتهمها ذكر صلاحها وعبادتها ومراعتها وأنها لم تغب عنه ساعة واحدة ، وإذا أراد أن يرثها ظهر

(١) ابن كثير : ج ٣ ص ١١٦ .

(٢) انجيل متى ، الاصحاح الأول : ص ١ - ٢٤ .

له ما بها من الحمل ، فلما اشتد ذلك عليه كلمها ، فكان أول كلامه ،
أن قال لها أخبريني يا مريم ، هل نبت زرع من غير بذر ؟ قالت
نعم ، قال : فهل نبت شجر من غير غيث ؟ قالت : نعم ، قال :
فهل يكون ولد من غير ذكر ؟ قالت : ألم تعلم أن الله عز وجل
أنبت الزرع يوم خلقه من غير بذر ، والبذر إنما يكون من الزرع الذي
أنبته من غير بذر ألم تعلم أن الله تعالى أنبت الشجر من غير غيث . .
والقدرة جعل الغيث حياة الشجر بعد ما خلق الله كل واحد منهما
على حدة ، أو تقول أن الله لا يقدر أن ينبت الشجر حتى استعان بالماء
ولولا ذلك لم يقدر على انباته ، قال يوسف لها : لا أقول عذا ولكن
أقول أن الله على ما يشاء قدير ، فقالت له مريم : ألم تعلم أن الله خلق
آدم وامرأته من غير ذكر ولا أنثى ، قال : بلى ، فلما قالت له ذلك
وقع في نفسه أن الذي بها شيء من أمر الله وأنه لا يسعها أن يسألها
عنه ، وذلك لما رأى من كتمانها ذلك . (١)

ولما استشمرت مريم من قومها اتهامها بالريبة ، انتبذت منهم
مكانا قصيا ، أي قاصيا منهم بعيدا عنهم لكلا تراهم ولا يرونها ، قال
محمد بن اسحاق : فلما حطت به وملاّت قلبها ورجعت استمسك عنها

(١) ابن كثير : ج ٣ ص ١١٦ ، روح المعاني : ج ١٦ ص ٨١ ،
قصص الأنبياء للثعالبي : ج ١ ص ٣٤٣ ، رغائب القرآن :
ج ٢ ص ١٨٠ ، نهاية الأرب في فنون الأدب : ج ٤ ص ٢١٢

الدم وأصابها ما يصيب الحامل على الولد من الوصب والتوحم وتغير اللون حتى فطر لسانها ، فما دخل على أهل بيت ما دخل على آل زكريا ، وشاع الحديث في بني اسرائيل فقالوا : انما صاحبها يوسف ، ولم يكن معها في الكنيسة غيره وتوارت من الناس واتخضت من دونهم حجابا فلا يراها أحد ولا تراه (١)

وقيل : ان هذا المكان القصي كان وراء الجبل ،
وقيل : أبعد مكان في تلك الدار . وقيل : اقصى الوادى
وهو وادى بيت لحم (٢)

والذى تشير اليه الآية أنها تركت المكان الذى كانت فيه الى
مكان بعيد تنتظر فرج ربها ، حتى يأذن الله بالولادة ، كما سيتجلى
في الفصل التالي .

(١) تفسير ابن كثير : ج ٣ ص ١١٦ .

(٢) فتح البيان في مقاصد القرآن : ج ٦ ص ١٤ ،

التفسير الفريد للقرآن المجيد : ج ٦ ص ١٨٤ .

الفصل الثالث

اتهام مريم بالفاحشة ونطق عيسى
عليه السلام في المهّد ببراءتها

- ★ ولادة المسيح وما صاحبها من الكرامات .
- ★ النداء لمريم من تحتها .
- ★ موقف قومها منها بعد العودة .
- ★ نطق عيسى عليه السلام ببراءة أمه .
- ★ قصيدة في مدح طهارة مريم
- ★ الرد على اليهود والنصارى وإبطال زعمهم .

الفصل الثالث

اتهام مريم بالفاحشة ونطق عيسى في المهد ببرائتها

ولادة المسيح وما صاحبها من كرامات :

رأينا فيما سبق ان السيدة مريم خرجت من محرابها الى مكان بعيد ، ولعل هذا المكان كان بالهام من الله لها ، لأن الأحداث في هذه القصة خاضعة لبدأ الرعاية المطلقة من الله للسيدة الجليلة مريم عليها السلام .

ان عادة النساء ان يحتفلن بيم الميلاد ، وتتطلع النفس الى المولود الذي يحمل الذكرة ، لاسيما المولود البكر ، وتتلهم الأسرة من كلا الطرفين الى المولود الجديد الذي يضيء البيت بنوره ، لكن هذا المولود لا والد له ، وماذا تفعل أمه ، ان أباه لو كان متوفيا لحرصت العائلة على الذكرى ، ولكن الأمر غاية في العجب .

ان الحمل به محل انكار من أسرته ، والوجع كله رافض لهذا الحدث ، لأن الفكر المادي هو السمة الغالبة ، فكان التوجيه من الله للسيدة الجليلة أن تخرج الى مكان بعيد ولم تشر الدلائل والآثار الى أن السيدة البتول حملت زادا ، فلم يكن معها طعام أو شراب ، وجلست في مكانها وبينما هي في هذا المكان البعيد النائي ان بها تستشعر ألم الولادة ، يقول تعالى : ﴿ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا نَسِيًّا ﴾ (١)

(١) سورة مريم : الآية ٢٣ *

وفي قوله تعالى : فأجاءها المخاض ، قراءتان :

الأولى : (فأجاءها) بمعنى اضطرها وحملها وأجأها ،

وقال أبو حيان : ان المعنى جاء بها .

الثانية : (فأجأها) من المفاجأة روى ذلك عن مجاهد (١)

وكان هذا الاجاء للسيدة مريم في هذا المكان القاصي الى

الجلوس بجوار جذع نخلة لتستند اليه عند الولادة كما روى عمن

ابن عباس ، ومجاهد وقتادة والسدى ، ولتستتر به ، كما قيل :

والجذع مابين العرق ومتشعب الأغصان من الشجرة وقد يقال للفصن

ايضا جذع . وقد تكون (ال) في النخلة للعهد فيكون المراد نخلة

معينة ، وقد تكون للجنس فالمراد واحدة من النخل ليست معينة

وهو الأرجح لأن فيه دليل الاكرام اكثر ، وهو أبلغ في اظهار

الكرامة ، وقد بالغ البعض فقال : (أن الله تعالى خلقها لها

يومئذ وليس بذاك ، وكان الوقت شتاء ولعل الله أرشدها اليها ليربها

فيما هو أشبه الأشجار بالانسان من آياته مايسكن روعتها كثمارها بدون

رأس وفي الشتاء الذي لم يمهدها ذلك فيه ومن غير لقاح كما هو المعتاد .

وفي ذلك اشارة ايضا الى أن أصلها ثابت وفرعها في السماء ، والى أن

ولدها نافع كالثمرة الحلوة وأنه عليه السلام سيحيى الأموات كما أحيى الله

تعالى بسببه الأموات مع ما في ذلك من اللطف بجعل ثمرتها خرسة لها . (٢)

(١) روح المعاني ، للألوسي : ج ١٦ ص ٨١ .

(٢) المصدر السابق : ج ١٦ ص ٨١ .

وكما ذكرت سابقا أن الأرجح أنها نخلة غير معينة ، وأن الله قد ألهمها اللجوء إلى جذعها ليربها من آباته ما يسكن روعها ، فهو جذع بدون رأس ، والنخلة إذا قطعت رأسها لا تثمر ، وكان الوقت شتاء ، وهي في الشتاء لا تثمر ، ثم هي لا تثمر بدون لقاح ، ومع اجتماع كل هذه الأسباب المانعة من الأثمار ، إذا بها تجدد الجذع له رأس وخصوصا تمر ، وكأنه تعالى قال : كما أن الأنثى لا تك إلا مع ذكر فكذا النخلة لا تثمر إلا عند اللقاح ، ثم اني أظهر الرطب مع غير اللقاح ليدل ذلك على جواز ظهور الولد من غير ذكر (١)

ولما رأت مريم ما يكون منها تمنيت ان لم تكن شيئا يذكر جريما على عادة الصالحين ، وفيه جواز تمنى الموت اذا وقعت فتنة أو خيفت ، وقد ورد عن الرسول صلى الله عليه وسلم حديث منطوقه النهي عن تمنى الموت ، ويفهم منه جواز تمنيه .

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : (لا يتمنين أحدكم الموت لضر أصابه فان كان لا بد فاعلا فليقل اللهم أحييني ما كانت الحياة خيرا لي وتوفني اذا كانت الوفاة خيرا لي * (٢))

(١) مفاتيح الغيب : ج ٢١ ص ٢٠٣ ، تفسير سورة مريم ٢٤٧ ،

د . محمود حجازي .

(٢) صحيح البخاري شرح فتح الباري : ج ١٠ ص ١٢٧ كتاب العرض

باب تمنى المريض الموت .

وانما تمتت مريم عليها السلام الموت مع أنها كانت تعلم ما جرى بينها
وهين جبريل عليه السلام من الوعد الكريم استحياء من الناس وخوفا ممن
لائمتهم ، أو حذرا من وقوع الناس في المعصية بما يتكلمون فيها .

قال الامام الألوسي : وتمني الموت لنحو ذلك مما لا كراهة فيه
نعم يكره تمنيه لضرر نزل به من مرض أو فاقة أو محنة من عدوا ونحو
ذلك من مشاق الدنيا (١) .

وقد قرنت تمني الموت بكونها نسيا منسيا أي شيئا نسي فترك
طلبه كخرق الحيض اذا ألغيت فطرحت لم تطلب ولم تذكر .

وكذا كل شيء نسي وترك فهو نسي . وقد

وقال قتادة : (وكنت نسيا منسيا) أي شيئا لا يعرف ولا يذكر
ولا يدري من أنا .

وقال الربيع بن أنس : انه السقط ، وقال ابن زهد : لم
أكن شيئا قط (٢)

وهذا التعبير الحزين الذي يترجم عن قلب يعتصره الألم ،
ونفس يمزقها الأسى ، ووجدان يكاد الحزن يقضى عليه لاشك في
أن صاحبه يحتاج الى طبيب من دون البشر ، وطب لا يقدر عليه الناس .

(١) روح المعاني ، للألوسي : ج ١٦ ص ٨٢ .

(٢) تفسير ابن كثير : ج ٣ ص ١١٧ .

ولن يكون ذلك الا من الله عز وجل ، وهذا الذى كان ، فلقد وجدت نفسها أمام أشياء لم تكن في الحسبان ، ولم تخطر لها على بال ، لقد تتابعت الخوارق من فوقها ومن تحتها ومن بين يديها ليربط الله على قلبها (١) وعن هذه الكرامات تحدثت الآيات التالية التي سأتناولها في المطلب الثاني بعد ذلك ان شاء الله تعالى .

ومع أن الآيات القرآنية قد صرحت بحديث المسيح مع أممه وشارته لها بما يفرج كربها الا أنها لم تشر الى أحداث وقعت على ظهر البسيطة تجاوز منطقة الميلاد ، وقد تأثر كتاب القصص وتبهمهم رجال الأدب بذكر مثل ذلك .

أذكر أمثلة من هذا ثم أعقب عليها ان شاء الله .

ذكر الثعلبي أن عيسى عليه السلام لما ولد ، أصبحت الأصنام كلها بكل أرض منكوسة على رؤوسها ففزعت الشياطين ولم يدروا لم ذلك ، فساروا مسرعين حتى جاءوا الى ابليس لعنه الله وغضب عليه وهو على عرش له في لجة خضراء يتمثل بالعرش يوم كان على الماء فأتوه وقد خلت ست ساعات من النهار ، فلما رأى ابليس اجتماعهم فزع من ذلك ولم يرههم جميعا منذ فرقهم قبل تلك الساعة ، وانما كان يراهم أشتاتا فسألهم ، فأخبروه أنه حدث في الأرض حدث فأصبحت الأصنام كلها منكوسة على رؤوسها ، ولم يكن شيء أهون على هلاك بني آدم منها .

(١) تفسير سورة مريم : ص ٢٤٨ .

لأنهم كانوا يدخلون في أجوافها فتكلمهم وتدبر أمرهم فيظنون أنها هي التي تكلمهم ، فلما أصابها هذا الحدث صفرها في أعين الناس وأذلها وقد خشينا أن لا يعبدوها بعد هذا ، وأعلم أنا لم نكن نأتيك حتى أحصينا الأرض وقلبنا البحار وكل شيء فلم نزد بما - أردنا الا جهلا ، فقال لهم ابليس : فما يكون الا أمر عظيم فكونوا مكانكم ، فطار ابليس عند ذلك وليث عنهم ثلاث ساعات فمر فيهن بالمكان الذي ولد فيه عيسى ، فلما رأى الملائكة محققين بذلك المكان علم أن ذلك الحدث فيه ، فأراد ابليس لعنه الله أن يأتيه من فوقه قال : فاذا رؤوس الملائكة ومناكبهم الى السماء ، ثم أراد أن يأتيه من تحت الأرض فاذا أقدام الملائكة راسية ، فأراد أن يدخل من بينهم فمنعوه عن ذلك . يدل عليه حديث النبي صلى الله عليه وسلم : (كل ابن آدم يطعن الشيطان في جنبه بأصبعه حين يولد الا عيسى ابن مريم عليه السلام حجه الله تعالى عنه فذهب يطعن فطعن في الحجاب) (١)

قال وهب : فذهب ابليس لعنة الله الى أصحابه ، فقال لهم : ما جئكم حتى احصيت الأرض كلها ، مشرقها ومغربها ، برها وصحرها والخافقين والجو الأعلى وكل هذا بلفته في ثلاث ساعات ،

ثم أخبرهم بمولد عيسى وقال ما اشتملت قبله رحم أنشى على ولسته
الا بعلمي ولا وضعت الا وأنا حاضرها ، واني لأرجوان بضل بسسه
اكثر ما هدى ، وما كان نبي أشد عليّ وعليكم من هذا المولود (١)
ثم انه خرج قم في تلك الليلة يومونه من أجل نجم طلع كانوا
من قبل يتحدثون أن مطلع ذلك النجم من علامات مولود في كسب
دانيال ، فخرجوا يريدونه ومعهم الذهب والمر واللبان ، فمروا بملك
من ملوك الشام فسألهم أين تريدون ؟ فأخبروه بذلك ، قال : فما بال
المر واللبان والذهب أهد يتموه بهذه الأشياء ؟ قالوا : تلك أمثاله ،
لأن الذهب سيد المتاع كله ، وكذلك هذا النبي سيد أهل زمانه ،
ولأن المر يجبر الكسر والجرح وكذلك هذا النبي يشفي الله به كل
سقيم ومريض ولأن اللبان دخانه يدخل السماء ، ولا يدخلها
دخان غيره .

وكذا هذا النبي عليه السلام يرفعه الله الى السماء ولا يرفع
في زمانه أحد غيره ، فلما قالوا ذلك لهذا الملك ، حدث نفسه به قتله ،
فقال لهم : اذهبوا فاذا علمتم بمكانه فأعلموني بذلك ، فاني راغب فسي
مثل ما رغبت فيه من أمره ، فانطلقوا حتى قدموا على مريم ، ودفعوا
ما كان معهم من الهدية اليها عليها السلام ، وأرادوا أن يرحموا الى

(١) أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ للقرماني : ص ٧٤ .

ذلك الملك ليعلموه بمكانه فلقبهم ملك ، وقال لهم : لا ترجعوا اليه
ولا تعلموه بمكانه فانه انما أراد قتله ، فأنصرفوا في طريق آخر (١)

وهذه القصة لا أساس لها وانما هي من نسج الخيال وهي
متناقضة ومضطربة ، فكيف لاتعلم الشياطين بحمل ميلاد عيسى وعلمه
كبيرهم ، وكيف يخفى الميلاد عليه وهو القائل ما حملت أنتى
الا بعلي ؟ ثم كيف يقول : وما من نبي أشد عليّ وعليكم من
هذا المولود ، وعمل أثر عيسى عليه السلام في اعلان التوحيد كان أكثر
من ابراهيم أو موسى أو محمد صلى الله عليه وسلم .

والشطر الثاني من القصة تأثر فيه وعب بالأنجيل فانها بتناسخها
في الأنجيل ولعله رواها بمصناه ويمكن العودة الى الكتاب المقدس
للموقوف على ذلك . (٢)

ومذلك تكون هذه القصة لا أساس لها من الصحة .

(١) قصص الأنبياء للشمالي : ص ٣٤٥ / ٣٤٦ ، تاريخ الطبري :
ج ١ ص ٥٨٦ ، أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ ،
للقرماني : ص ٧٤ ، . . . ، نهاية الأرب :
ص ٢١٥ - ٢١٦ .

(٢) انجيل متى الاصحاح الثاني : من ١ - ١٣ .

النداء لمريم من تحتها :

وبعد أن وضعت مريم عيسى عليه السلام ، زاد بها الألم ،
ماذا تفعل لنفسها وهي بحاجة الى من يطيبها ، وماذا تقول لقومها
وهي بحاجة لمن يشهد معها ، وأى شئ تتناوله وهي بحاجة الى
طعام يدر لبنها ، واذابها تسمع صوت من يقول لها :

* أَلَا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا وَهَزِي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ
تَسَاقُطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ
أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أَكَلِمَ الْيَوْمَ لِنِسَاءٍ * (١)

واختلف المفسرون فيمن صدر عنه هذا الصوت ، هل عن جبريل
أو عن عيسى عليهما السلام ، ومصدر الخلاف يرجع الى القراءة تيسن
المرويتين في (من تحتها) .

فقرأ نافع وحفص وحمة والكسائي : بكسر الهم والتاء

الثانية .

وقرأ الباقر بفتح الهم والتاء الثانية .

وحجة من كسر أنه حمله على معنى : أن عيسى كلمها وهو

تحتها أى تحت ثيابها ، لأن ذلك موضع ولادة عيسى فجعل (من)

حرف جر وخفض بها (تحتها) فكسر التاء الثانية .

(١) سورة مريم : الآية " ٢٦ " .

ومن (ناداها) ضمير الفاعل وهو عيسى ، وقيل : أن
معناه فناداها جبريل من تحتها ، أى من أسفل من مكانها ، أى :
من دونها ، كما تقول : دارى تحت دارك ، ولدى تحت بلدك
أى دونها ، وعلى هذا معنى قوله : * قد جمل ريك تحتك
سريا * أى دونك نهرا تستمتع به (١)

وحجة من فتح الميم انه جمل (من) الفاعل للتداء ونصب
(تحتها) على الظرف و (من) هو عيسى ، كليهما من تحتها ، أى
من موضع ولادته وكون الضمير لعيسى في القراءة بفتح الميم أقوى فـي
المعنى وكون الضمير لجبريل عليه السلام في القراءة بكسر الميم أقوى
في المعنى .

ويجوز في القراءة تين أن يكون لعيسى ، وأن يكون لجبريل
عليه السلام ، فإذا كان لجبريل كان معنى (تحتها) دونها أسفل منها ،
وإذا كان لعيسى كان معنى (تحتها) تحت ثيابها ، من موضع
ولادته ، وأصل من أن تقع للميم .

(١) ... (١)

ايضاح الوقف والابتداء : ص ٧٤ ،
ابن كثير : ج ٣ ص ١١٢ ، الألوسي : ج ١٦ ص ٨٢ ،
البحر المحيوط : ج ٦ ص ١٨٣ .

ولكنها وقعت في هذا الموضع للخصوص ، لعيسى أولجبريل
عليهما السلام ، وذلك جائز (١)

ومع أن الآية تحتل الوجهين ، إلا أن أحد الباحثين قد
رجح أن المتحدث هو عيسى عليه السلام ، واستشهد بالتالي :

- ١ - أن ذلك الموضع (من تحتها) هو موضع النظر السلي
المורה وهو لا يليق بأن يكون الذي تحتها الملك بكامله .
- ٢ - أن نطق عيسى عليه السلام فيه اظهار المعجزة بصورة أكبر ،
وفي ذلك الأثر الظاهر في إزالة الحزن وتطبيب الخاطر
ونهاى الوحشة عن الصديقة مريم .
- ٣ - قراءة (من تحتها) بالفتح على أنها اسم موصول ، انما
تستعمل إذا كان قد علم قبل ذلك أن تحتها أحد ، والسدى
علم كونه تحتها هو عيسى عليه السلام .

- (١) الحجة في القراءات السبع : ص ٢١٢ ، زاد المسير :
ج ٥ ص ٢٢١ ، ابن كثير : ج ٣ ص ١١٦ ، النشرفي
القراءات العشر : ج ٢ ص ٣٠٥ ، النسفي : ج ٢ ص ٣٢ ،
الكشف عن وجوه القراءات السبع : ج ٢ ص ٨٧ ، الألوسي :
ج ١٦ ص ٨٢ ، البحر المحيط : ج ٦ ص ١٨٣ .

٤ - أن ضمير الفاعل (فناداها) عادة يعود على أقرب مذكور وأقرب مذكور في الكلام هو عيسى بدليل قوله تعالى :

* فحملته فانتبذت به *

٥ - أن عيسى عليه السلام لو لم يكن كلمها لما علمت أنه ينطق وعليه فما كانت لتشير إليه بالكلام ، والمعنى على هذا أنه تعالى أنطقه تطييبا لقلوبها ، وإزالة للوحشة عنها . وحتى تشاهد في أول الأمر مابشرها به جبريل عليه السلام ، وهو قول الحسن وسعيد بن جبير وغيرهما . (١)

ومع أن الباحث قد انتصر لهذا الرأي وحمل الآية عليه ، فأنني أقول له لقد قصرت المعنى ، فالآية فيها القراءتان وتحتمل المعنيين ، وما استشهد به يمكن رده بالتالي :

١ - لا يشترط أن يكون نداء جبريل من تحتها ، أي تحت ثيابها وإنما تحتها أي قريب منها في المكان ، كما أن كثير من النساء يلدن بدون دم ، وأقل النفاس لحظة عند الامام الشافعي . وقد ذهب البعض إلى أن الضمير في (تحتها) يعود على النخلة ، (٢) ، وعليه فيمد أن يكون النداء من تحت مريم عليها السلام .

(١) تفسير سورة مريم : ص ٢٥١ ، ونسب الآراء إلى الرازي .

ج ٢١ ص ٢٠٤ ، حاشية زاده : ج ٣ ص ٢٨٤ .

(٢) تفسير المعاني للألوسي : ج ١٦ ص ٨١ .

٢ - ماروي أن الضمير يعود على أقرب مذكور ، وأقرب مذكور هو عيسى عليه السلام يرد عليه بأن السياق يشير إلى أن الملازم لها هو جبريل عليه السلام ، والسياق يدل عليه .
وقد نقل في البحر المحيط عن الحسن أنه قال :
ناداه جبريل عليه السلام ، وكان في بقعة من الأرض دون
البقعة التي كانت عليها (١)

٣ - لا يشترط من عدم كلامه عدم علمها بأنه سوف يتكلم في المهد لأن الأحداث كلها تدل على صدق الخبر ، فلقد بشرت بالحمل وصفات المحمول به ولما استبعدت ذلك عون عليها بأنه قضاء الله وأنه سيكون آية للناس وقد تحققت البشارات ، ولا يلزم كونه يتكلم في المهد لحظة الميلاد بل العبرة أنه سوف يتكلم في هذه الفترة من الزمان وقد تحقق بعد

٤ - كون الضمير لجبريل عليه السلام فيه دليل الرعاية والعناية وإن من وهب لها ذلك ، لم يزل يكلأها برعايته ويرحمها بمنايته ولقد جعل جبريل بين يديها يخفف عنها كل ألم ويهون لها كل خطب ، وسيقا الآيات بعد يدل على أن الحديث كان من جبريل عليه السلام .

(١) روح المعاني للألوسي : ج ١٦ ص ٨٢ .

وكان أول شيء نوديت به (وجوب ترك الحزن) والحزن غم يلحق الانسان بسبب مكروه حصل في الماضي أو فوات نفع (١) ، وكأنه قد لفتها الى العوامل التي تساعد على ترك ذلك قائلًا : * قد جعل ربك تحتك سرًا . . . * أى اذا كان الحزن بسبب القحط في المكان فان اليسر سيأتي ، وان كان غم بسبب المواجهة فان الوليد سيدفع عنك ذلك .

وأول اسباب الفرج اخبارها أن الله قد جعل تحتها سرًا ، قال سفيان الثوري وشعبة عن ابي اسحق : انه الجدول ، وعن ابن عباس السري : النهر ، وقال عمرو بن ميمون : نهر تشرب منه قال سعيد بن جبير : السري : النهر الصغير ، وقال وهب : السري هوربيع الماء ،

وروى عن أيوب بن نهيك قال : سمعت عكرمة مولى ابن عباس سمعت ابن عمر يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (أن السري الذي قال الله لعريم * قد جعل ربك تحتك سرًا * نهر أخرجه الله لتشرب منه .

قال ابن كثير : وهذا حديث غريب جدا من هذا الوجه ، وأيوب بن نهيك هذا - احد رواة الحديث - هو الحبل . قال فيه أبو حاتم الرازي : ضعيف . وقال ابو زرعة : منكر الحديث .

(١) روح البيان : ج ٢ ص ٣٢٧ .

وقال أبو الفتح الأزدى : متروك الحديث (١)
وقيل : أن (السرى) عيسى عليه السلام هو قال الحسن
والربيع بن أنس ومحمد بن عباد بن جعفر وهو احدى الروایتين عن
قتادة (٢) .

ومعناه : السيد العظيم الخصال ، يقال : فلان سرى من
قم سراه (٣) وهو تأويل بمعنى المعنى ويبتل سياق الكلام .

والظرف (تحتك) مراد به المكان ، أى أسفل منك ،
وقيل : المراد منه الأمر ، أى تحت أمرك ان امرت بالجري جرى
وان أمرت بالامساك أمسك وهو خلاف الظاهر . قاله الألوسى (٤)

وفي التفسير بجمل دليل حدوث هذا النهر وأنه لم يكن
موجودا قبل ، وقد روى عن ابن عباس أنه جدول من الأردن أجراه
الله تعالى منه لما أصابها من العطش .

وروى أن جبريل عليه السلام ضرب برجله الأرض فظهرت عين
ماء عذب فجري جدولا ، وقيل فعل ذلك عيسى عليه السلام ،

(١) تفسير ابن كثير : ج ٣ ص ١١٢ .

(٢) نفس المرجع السابق .

(٣) القرطبي : ج ٤ ص ٣٣ .

(٤) روح المعاني : ج ١٦ ص ٨٣ .

وهو المروي عن أبي جعفر رضي الله عنه ، وقيل كان ذلك موجودا من قبل إلا أن الله نبهها عليه ، وما تقدم هو الموافق لمقام بيان ظهور الخوارق والتبادر من النظم الكريم . (١)

بعد أن طمأنها إلى مصدر الشراب نبهها إلى مصدر الطعام قائلا : * وهزى إليك بجزع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا * والهز هو تحريك بقوة وشدة إلى جهات مختلفة ، والجذع من النخلة هو أسفلها ومادون الرأس الذي عليه الشر (٢)

وقد يطلق على النخلة بعد قطعها ، وقيل يطلق على النصف الأسفل منها ، وأرجح أن الجذع هو ما ألقى من النخل قبل تناكله بعد قطعه .

قال تعالى : * فَتَرَى الْقِمَمَ فِيهَا صَدَعٌ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ * (٣) ، وأما النخلة فأنها تطلق على الشجرة تامة الأوراق .

قال تعالى : * وَالنَّخْلَ بَاسِطَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيرٌ * (٤) * وَفِي الْأَرْضِ قَطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٍ وَجَنَاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِضَ لُبُّهُمَا عَلَى بَقْعٍ فِي الْأَكْلِ * (٥)

(١) تفسير روح المعاني : ج ١٦ ص ٥٣ ، تفسير أبو السعود :

ج ٢ ص ٢٦١ .

(٢) تفسير الفخر الرازي : ج ٢١ ص ٢٠٥ .

(٣) سورة الحاقة : الآية " ٧ "

(٤) سورة ق : الآية " ١٠ "

(٥) سورة الرعد : الآية " ٤ "

ولذلك فانه قد ورد أن هذه النخلة كانت يابسة قاله
ابن عباس ، وقيل مثرة ، قاله مجاهد . وقيل : كانت شجرة ولم
تكن في ايمان ثمرها ، قال وهب بن منبه : ولهذا أمتن عليها بذلك
بأن جعل عندها طعاما وشرابا (١)

وورد عن ابن عباس أنه قال : (كان جذعا نخرا فلما هزت
نظرت الى الجذع فاذا السعف قد طلع ثم نظرت الى الطلع قد خرج
من بين السعف ، ثم اخضر فصار بلحا ثم أحمر فصار زهوا ثم رطبها
كل ذلك في طرفة عين فجعل الرطب يقع بين يديها لا يفسر منه
شيء (٢) .

ولقد وصف هذا الرطب بأنه (جنى) أى صالح للاجتنباء ،
يقال : تمر جنى من ساعته وهو صفة مدح ، فان ما يجنى أحسن مما
يسقط بالهز ، وما قرب عصره أحسن مما بعد عهده ، وقيل : أن فعيل
(جنى) هنا بمعنى فاعل ، أى رطباً طرياً . (٣)

(١) تفسير ابن كثير : ج ٣ ص ١١٧ .

(٢) تفسير القرطبي : ج ٤ ص ١٣٤ .

(٣) تفسير روح المعاني للألوسي : ج ٦ ص ٨٥ .

وقد استشهد كثير من المفسرين بهذه الآية على أن خير طعام للوالدة هو التمر .

قال عمرو بن ميمون : ما من شيء خير للنفساء من التمر والرطب ثم تلا هذه الآية .

وروى ابن أبي حاتم بسنده إلى علي بن أبي طالب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (أكرموا عتكم النخلة فانها خلقت من الطين الذي خلق منه آدم عليه السلام وليس من الشجر شيء يلقح غيرها . (١))

أكرموا عتكم النخلة فانها خلقت من فضله طينة أبيكم آدم ، وليس من الشجر شجرة أكرم على الله من شجرة ولدت تحشها مريم ابنت عمران فأطمعوا نسائكم الولد الرطب ، فان لم يكن رطب فتمره)

رواه أبو نعيم والراهمري في الأمثال عن علي مرفوعا .
وأخرجه أبو يعلى في مسنده عن ابن عباس لكن بلفظ نزلت بدل ولدت . ولفظ فانها خلقت من الطين الذي خلق منه آدم ، وليس من الشجر يلقح غيرها .

وأخرجه عثمان الدارمي بلفظ : أظعموا نفائكم الرطب ،
فان لم يكن رطب فالتمر ، وهي الشجرة التي نزلت مريم ابنت عمران تحتها
وفي سننه ضعف وانقطاع .

وفي خبر من كان طعامها في نفاسها تمرا جاء ولدها حلييا .
ورواه في الاصابة بلفظ : أكرموا عتكم النخلة فانها خلقت من
الطينة التي خلق منها آدم .

قال : وفي سننه ضعف وانقطاع .
وقال في الدرر : رواه ابو يعلى وأبو نعيم عن ابن عباس بسند
ضعيف بلفظ : أكرموا عتكم النخلة فانها خلقت من الطين الذي خلق
منه آدم .

وفي لفظ لهما عن ابن عباس ايضا بلفظ : اكرموا النخلة فانها
خلقت من الطين الذي خلق منه آدم . (١)

وفي التعبير السابق في الآية * قد جعل ربك تحتك
سريا * دليل على أن الماء قد وجد ، وأن النخلة قد أشرت ،
وما عليها الا أن تلتبس الأسباب .

(١) انظر كشف الخفاء ، الجزء الاول ص ١٧١ ، ١٧٢ رقم

الحديث ٥١١ .

وهنا وقفة يجب أن نعتبر بها ، وهي أن سنن الله في
الكون التماس الأسباب أولا ، وقد رأينا أم اسماعيل عليه السلام وقد
تفردت به في صحراء جرداء لا زرع فيها ولا ماء ، ينفذ منها الماء فتلتبس
الأسباب مرات عدة تجوب الوادي الى أن كان اليسر الدائم بمسار
المسار الموقت .

وهذه السيدة مريم عليها السلام تضع وليدها ، وهي منهكة
شأن سائر النساء ، بل ان تفكيرها في المواجهة لقومها كفييل بأن
يترك أثرا عليها ، ومع هذا أمرت بالتماس الأسباب ، والتماس الأسباب
هنا في حدود الامكان ، لأن المكان لو خلا كلية لكان من العسير عليها
ان تلتبس ، ولكن الله أوجد لها الأسس التي يمكن عليها أن تلتبس
الأسباب ثم أمرت بمعد ذلك بالتماسها ، وفي هذا قيل :

ألم تر أن الله قال لمريم

وهزي إليك الجذع يساقط الرطب

ولو شاء أدنى الجزع من غير هزها

جنته ولكن كل شيء له سبب (١)

(١) بدائع الزهور في وقائع الدهور المنسوب لأبي البركات محمد بن

احمد بن اياس الحنفي : ص ٢٢٣ .

ويلاحظ أن في جريان الماء وظهور الطلع ، مكرمة ثانية لمريم عليها السلام كدليل على أن الطاعة هي وسيلة الرضا وأن التقوى هـي مصدر العطاء ، وأن من عرف الله في الرخاء عرفه الله في الشدة .
ثم أمرت بعد ذلك بتناول الطعام والشراب ويجب ان تعتبر أن الحركة في الطعام والشراب بما أراد الله وأودع فيه من سرّ .

وأن الظاهر للبشر مالم يرد السرّ فيه الى الله فلا فائدة منه .
وقد يجعل الله في القليل ما يفوق الكثير ، أن الأنفس الضعيفة تسأل لماذا لم تعط المن والسلوى شأن بني اسرائيل ، وظاهر المسـئـن والسلوى أفضل وأنفع ، لهذا كله فالتفويض أسلم وما يريد الله خير مما نريده نحن ، لأن الله عليم حكيم .

وقد أشار الامام الألوسي الى جمال النظم في الآيات الكريمة قائلا : ما ألطف ما أرشد اليه النظم الكريم من احضار الماء أولا ، والطعام ثانيا ثم الأكل ثالثا والشرب رابعا فان الاهتمام بالماء أشد من الاهتمام بالأكل لاسيما من يريد أن يأكل ما يحوج الى الماء كالأشياء الحلوة الحارة ، والعادة قاضية بأن الأكل بعد الشرب ، ولذا قدم الأكل على الشرب حيث وقع .

وقيل : قدم الماء لأنه أصل في النفع ونفعه عام للتنظيف ونحوه .
وتناولها للطعام والشراب يكون الشطر الأول من الحزن قد سرى عنها ، لكن ماذا تفعل في المواجهة ، لقد اطمأنت حين البشارة بقول المبشر : * فاما ترين من البشر أحدا فقولي اني نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم انسيا *

انها النصيحة لدفع كل غم متوقع عندما تأتي قومها ، أمست
بأن تمتنع عن الكلام على وجه الاطلاق .

قال أنس بن مالك : * اني نذرت للرحمن صوما * أى
صمتا .

وكذا قال ابن عباس والضحاك وفي رواية عن أنس صوما وصمتا .
وكذا قال قتادة وغيرهما .

والمراد أنهم كانوا اذا صاموا في شريعتهم يحرم عليهم الطعام
والكلام . نص على ذلك السدي .

قال ابن اسحق عن هارثة قال : كنت عند ابن مسعود فجاء
رجلان فسلم احدهما ولم يسلم الآخر فقال ماشأئك ؟ قال أصحابه
حلف أن لا يكلم الناس اليوم ، فقال عبد الله بن مسعود كلم الناس وسلم
عليهم فان تلك امرأة علمت أن احدا لا يصدقها أنها حملت من غير زوج
يعني بذلك مريم عليها السلام ليكون عذرا لها اذا سئلت (١)

وانا كانت مريم قد أمرت بالامتناع عن الكلام فليس لأحد من
المسلمين أن يشاركها في هذه الخصوصية لأنها كانت حالة خاصة بها .
وفي شرح البخارى لابن حجر عن ابن قدامة أنه ليس من شريعة
الاسلام ، وظاهر الأخبار تحريمه ، فان نذره لا يلزمه الوفاء به ،

(١) تفسير ابن كثير : ج ٣ ص ١١٨ .

ولا خلاف فيه بين الشافعية والحنفية لما فيه ومن التضييق وليس فسي
شرعنا وأن كان قر به في شرع من قبلنا . (١)

ولكن هل المراد أن تنطق قائلة : * اني نذرت للرحمن
صوما فلن أكلم اليه انسيا * أو تكفي بالاشارة مع الامتناع عن الكلام ،
فإذا سئلت عن وليدها من أين ؟ أشارت اليه فقط دون أن تتكلم ،
ففيه خلاف بين المفسرين .

وخصت منع الكلام بالانس ، لأنها لا يمكن أن تمتنع عن كلام الله
المتعدد الصور من صلاة وذكر ودعاء . . .) وقد تكلم الملك أيضا .
وهذا تحققت لها الطمأنينة الكاملة التي تستطيع معها أن تعود
الى قومها وهي في غاية الطمأنينة .

(١) روح المعاني للألوسي : ج ١٦ ص ٨٧ .

موقف قومها منها بعد العودة :

يقول الله تعالى مخبرا من عودتها الى قومها بعد أن اطمأن قلبها : * فأتت به قومها تحمله قالوا يا مريم لقد جئت شيئا

* ... *

يلاحظ أن المشهد في هذه الآيات الكريم قد بدأ بمقابلة واضحة مع المشهد الأول ، فبينما رأيناها في المشهد الأول حين حملته * انتبذت به مكانا قصيا * وفيما قالت * ياليتني مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا * ان بنا نراها هنا وقد بدت في صورة معكوسة تماما حيث يقول * فأتت به قومها تحمله * وبينما قالت في المشهد الأول * ياليتني مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا * نراها هنا بعد أن وجهوا اليها الاتهام صراحة لم تزد على أن أشارت اليه بكل الثقة أن كلموه ، فقالوا : * كيف نكلم من كان في المهد صبيا * ولم يكن يحدث ذلك إلا لأنها تغيرت تغيرا كاملا ، وعلى الضد تماما مما سبق ، وخاصة وهي تعلم يقينا ما سوف تواجه به ويكال لها من اتهامات جارحة وقاسية . فان الذي رأته من آيات ربها كفها وأغناها بل رفعها الى عنان السماء وملأها ثقة أن كل ذلك من أسباب الاصطفاء . فلم يعمد لحدث الناس كبير أثر ، ولا لتقولهم شديد ألم .

وكيف يكون ذلك ومعها الدليل الذي يخرس كل لسان ويلقم حجرا كل انسان انه الدليل الذي تنكس له الرؤوس وتخضع بين يديه

النفوس ، فلنصاحبها عليها السلام في هذا المشهد المثير ولنتصور
قومها وقد علتهم الدهشة ، ولأتهم الحيرة ، وغلبت عليهم الشكوك
والظنون وهم يرون القديسة العابدة التي لم تعرف في حياتها سوى المصيد
والمحراب يرونها تحمل وليدها ، وتدخل عليهم بطفل فيسارعون بالانتهام
ويظنون بها ظن سوء ، وهذا ولا شك يعكس سوء حال القسم
وأنهم قد غلبت عليهم الشقوة .

والا لما واجهوها هذه المواجهة الظالمة وكان الأولى لهم أن
يستفسروا عن مصدر هذا الطفل فقد لا يكون طفلها أو قد يكون ابن
أحد غيرها تعرفه أو لا تعرفه ، أما أن يواجهوها بالاتهام وهم يعلمون
عنها طهرها وعفافها وصلاحها فذلك دليل على أنهم قوم سوء (١)

ولذلك فأنهم لما رأوها تحمل وليدها قالوا لها * يا ربيم
لقد جئت شيئا فريا * أى جئت بأمر عظيم كالآتي بالشئ * يفتره .

قال مجاهد (فريا) أى عظيما ، وقيل : مختلعا مفتعلا

والولك من الزنى كالشئ * المفترى .

وقال ابو عبيد : الفرى ، المجيب النادر .

وقال قطرب : الفرى ، الجديد من الأسقية . أى جئت بأمر

جديد بديع لم تسبقني اليه .

(١) تفسير سورة مريم : ٢٣٩ ، ٢٤٠ .

ولعل قولهم هذا هو الذي عابهم الله عليه ولمنهم بسببه
ووصفه بقوله : * وَكَفَرَهُمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بَهْتَانًا عَظِيمًا * (١)
ولم يكتف هو ولا القوم برميها بالزنى صراحة في وجهها ، بل اتجهوا
الى اسلوب آخر من أساليب الايلام النفسي يعيرونها ويذكرونها بنسبها
لتقي أو يَجدها الأعلى ، أو برجل من بني قومها كان مضرب مثل لها في
الطاعة أو بشقيق لها تقي يسمى هارون ، فقالوا لها : * يا أخت
هارون ما كان أبوك امرأ سوءً وما كانت أمك بغيا * *

عن المفسرة بن شعبة رضي الله عنه قال : بعثني رسول الله
صلى الله عليه وسلم الى أهل نجران ، فقالوا : أرايت ماتقراون
* يا أخت هارون * وموسى قيل عيسى يسنين - قيل بألف وخمسمائة
عام . وقيل : الف وأربعمائة (٢) قال : فرجعت فذكرت ذلك
لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ألا أخبرتهم أنهم كانوا يسمون
بالأنبياء والصالحين قبلهم . (٣)

-
- (١) سورة النساء : الآية " ١٥٦ "
- (٢) بين الاسلام والمسيحية : ص ١٠٤ .
- (٣) مسند الامام احمد : ج ٤ ص ٢٥٢ ، الترمذى : ٣١٥٥
زاد المسير : ٥/٢٢٢ ، الطبري ج ١٦ ص ٥٩ .

وفي نسبة مريم الى هارون آراء منها :

- ١ - قيل أن المراد من هارون هنا هو هارون أخ موسى ، ونسبت اليه لأنها كانت من عقبه . (١)
- ٢ - وقيل : ان هارون هذا شقيقها وكان من الصالحين (٢)
- ٣ - وقيل : انه رجل فاسق فنسبت اليه من باب التعبير (٣)
- ٤ - وقيل : انه كان رجل صالح في ذلك الزمان تبع جازته بم مات أربعون ألفا كلهم اسمه هارون (٤)

وقد رجح الامام الرازي أن مريم كان لها شقيق يسمى بهارون وكان صالحا حقا ولذلك فانهم أنكروا عليها هذا السلوك ، لأنه لا يعقل ان تكون فتاة من بيت ربه غاية في الطاعة ، وأما مثل في الطهر ، وأخوها تقي ، فكيف يتأتى منها هذا ، وقد استشهد لرأيه بأمرين :

- (١) القرطبي : ج ١١ ص ٩٨ ، ٢٢٣ كتاب بدائع الزهور في وقائع الدهور : ٢٢٣ ، الألوسي : ج ١٦ ص ٨٨ ، ابن كثير : ج ٣ ص ١١٨ .
- (٢) الألوسي : ج ١٦ ص ٨٨ ، ابن كثير : ج ٣ ص ١١٨ ،
- (٣) القرطبي : ج ١١ ص ١٠١ ، فتح البيان : ج ٦ ص ٢١ ، ابن كثير : ج ٣ ص ١١٩ ، الألوسي : ج ١٦ ص ٨٨ .
- (٤) ابن كثير : ج ٣ ص ١١٩ ، البغوي : ج ٤ ص ٢٤٤ ، القرطبي : ج ١١ ص ٩٩ ، قصص الأنبياء للثعالبي ص ٣٤٦ .

الأمر الأول : أن الأصل في الكلام الحقيقة دون المجاز .
الأمر الثاني : أنها أضيفت إليه ووصف أبواها بالصلاح وحينئذ
يكون التوضيح أشد فان صدور الذنب في هذا
أفحش . (١)

وهذا التأويل حسن إلا أنه يعكر عليه حديث الرسول صلى الله
عليه وسلم (ألا أخبرتهم أنهم كانوا يسمون بالأنبياء والصالحين قبلهم) (١)
ومن هنا يكون الحديث قد جعل الاضافة اضافة نسب فهي
من نسله أو نسل أحد أخواته وهي منسوبة إليه من هذا القبيل وهو
أسلوب تعارف عليه العرب كما يقال للتميمي يا أخا تميم ، وللضري
يا أخا مضر .

وقد روى ابن أبي حاتم عن علي بن الحسين الهجستاني :
حدثنا ابن أبي مريم بسنده عن أبي صخر عن القرظي في قول الله عز
وجل : * يا أخت هارون * قال : هي أخت هارون لأبيه وأمه .
وهي أخت موسى أخي هارون التي قصت أثر موسى * فبصرت به عن
جنب وهم لا يشعرون * .

- (١) الفخر الرازي : ج ٢٢ ص ٢٠٨ .
(٢) مسند احمد : ج ٤ ص ٥٥٢ ، الترمذی : ٣١٥٥ ،
الدر المنثور : ج ٤ ص ٢٢٠ ، تاريخ ابن عساكر :
ج ٤ ص ٢٣٢ .

قال ابن كثير : وهذا القول خطأ محض فان الله تعالى قد ذكر في كتابه أنه قفي بعيسى بعد الرسل فدل على أنه آخر الأنبياء بعثا وليس بعده الا محمد صلوات الله وسلامه عليهما .

ولهذا ثبت في صحيح البخارى عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : (أنا أولى الناس بابن مريم والا أنبياء أولاد علات ليس بيني وبينه نبي) (١)

ولو كان الأمر كما زعم محمد بن كعب القرظي ، لم يكن متأخرا عن الرسل سوى محمد ولكن قبل سليمان وداود ، فان الله قد ذكر ان داود بعد موسى عليهما السلام في قوله تعالى : * أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ نَاسٍ مِّنَ الْأُمَمِ مِمَّنْ بَنَیْ إِسْرَءِیْلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِیٍّ لَّهُمْ ابْعَثْ لَنَا مَلَكًا یُقَاتِلْ فِی سَبِیْلِ اللَّهِ * وذكر القصة الى أن قال : * وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ * الآية .

والذى دفع القرظي على هذه المقالة ما في التوراة بعد خروج موسى وصني اسرائيل من البحر واغراق فرعون وقومه قال : قامت مريم ابنت عمران أخت موسى وهارون النبيين تضرب بالدف هي والنساء

(١) فتح الباری شرح صحيح البخاری : ج ٦ ص ٤٧٧ کتاب الأنبياء . (١٦ مريم) (واذكر في الكتاب مريم ان انتبهت من أهلها ..)

معها يسبحن الله ويشكرنه على ما أنعم به على بني اسرائيل فاعتقد القرظي أن هذه هي أم عيسى وهي هفوة وغلطة شديدة ، بل هي

والوقوف على الكتاب المقدس تبين أن القرظي قد وهم ، ولعله أخطأ حين الرواية ، فانه شديد التأثر بالتوراة ومن يقرأ سفر الخروج الاصحاح الخامس عشر آية عشرين ، أن مريم أخت موسى مذكورة في التوراة بهذا (فأخذت مريم النبية أخت هارون الدف بيدها ، وخرجت جميع النساء وراءها بدفوف ورقص) . وكان ذلك بعد غرق فرعون ونجاة موسى وقومه ، وكان هذا سبب وهم القرظي كما سبق .

وأما رواية ابن جبير في أن هارون كان رجلاً فاسقاً يضرب به المثل في الفجور فنسبت اليه ، والمعنى ما كان أبوك ولد أملك أهلاً لهذه الفعلة فكيف جئت أنت بها ؟ وهذا من التعمريض الذي يقوم مقام التصريح ، وذلك يوجب عندنا الحد .

وهذا القول الأخير يردّه الحديث الصحيح (٢) السابق

الذكر .

وقد ذكروها بحسن سيرة والدها وطهارة أوصالها وذلك يكون

(١) تفسير ابن كثير : ج ٣ ص ١١٩ .

(٢) تفسير القرطبي : ج ١١ ص ١٨ .

ما جاءت به بدعا من المنكرات لم يعرف له سابقة في هذا البيت
العف الطهور . وأصوله الأبرار الشرفاء ، حتى يمكن أن يقال لعله
نزه عرق . وأن من أفحش الفواحش أن رجلا صرزا في الصلاح لـم
يمصرف عنه السوء قط ، والمنكر من القول والفعل وعلى مثل خلقه
كانت زوجته ثم تأتي ابنتهما بهذا البهتان . فالصلاح لا ينتج
الا الصلاح والطهارة لا يتولد منها الا كل طهور أن الناس يعلمون أن
سيد البيت كبير الأخيار ورئيسهم الصالح التقي (عمران) وأن الأم
هي التقية النقية التي كان كل أهلها أن يكون الجنين الذي تحمله نذيرا
للبيت وخادمه للرب يرث الحبوة عن أبيه لا يعرف في حياته غير
العبادة والمعبود ، وسبب صلاحها وتقواها واخلاصها قبل الله منها
مريم كأول نذيرة لبيت المقدس وأن مريم هذه هي القديسة العابدة التي
كانت علما في العبادة والقداسة . . تأتي بما لم تجرب به العادة (١)
ان شأن البشر دوما انكار المعجزات وكذا الكرامات الا من
عصم الله ، بل أن البعض من علماء العقيدة أنكر الكرامة خشية اللبس
بالمعجزة كما سبقت الإشارة اليه .

ومريم عليها السلام وقد اختيرت لهذا فان الحق قد طمأنها
الى كيفية اقامة الدليل لالزام الخصم ، فبعد عودتها من محل ولادتها

(١) تفسير سورة مريم : ص ٢٦٢ .

لعيسى عليه السلام أتت قومها ، فذكروا على سامعها ما سبق ذكره
فما كان منها الا أن أشارت الى الجنين ، وكانت الاشارة مثار عجب
ومبعث تساؤل ، هل الأمر مراد به الاستهزاء والسخرية منهم ،
أم أنها تتجاهل الاسئلة لأنها فعلت ما أرادت عن رضى نفسى وارتياح
أم أنها بريئة ويكون اعتقادهم هذا خطأ . أسئلة تتحرى ، وكان الأغلب
عندهم أنها تزدرى بهم وتستهزئ ، ولذا قالوا لها : * كيف نكلم
من كان في المهد صبيا * وهو أمر لم يعهد من قبل ، ولم يسبق في
تاريخ الناس فأنى لك أن تسخرى منها ، وأي وجهه يمكنك أن
تزدرى بنا . ان مثلك الآن ليس بمرأى يرفع رأسا أو يفتح عينهما ،
بل أولى له أن يتوارى عن القيم لسوء صنيعه ، ثم تطلبي منا أن نكلم
من كان في المهد مع انه لم تجر العادة بكلامهم حتى الآن ، وهم
لا يعلمون أن لله في خلقه شئون ، وأن دلائل الاعجاز تتابع مع عيسى
عليه السلام وأن الذى أوجده من غير أب ورزق أمه بدون سبب ثم بعده
ذلك أجرى لها ماء بالقرب منها وأمر لها نخلة في غير حينها كد نفسك
دليل على أن المسيح سيتكلم في غير اعياء لأن الله اذا أراد شيئا قال
له كن فيكون .

نطق عيسى ببراءة أمه :

وأمام هذا التعبير القاسي ، وقفت السيدة مريم عليها السلام
وامتثلت للأوامر الموجهة اليها ، ولذلك فانها بعد أن سمعت
ما سمعت ، أشارت الى الوليد ، لأنه دليل البراءة عكس ما يرون .
وعندها أنطقه الله الذى أنطق كل شئ * ، وكان نطق المسيح
عليه السلام بالهام من الله ، ولذلك دلت اجابته على أنه قد اوحى
اليه بها ، لأن الله سبحانه علم بعلمه القديم أن القوم سوف يقولون
ملا يرضى الله ولا يرضى عيسى عليه السلام .

ومن هنا كانت اجابة السيد المسيح على النحو التالي :

١ - * قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا * وَجَعَلَنِي
مُبَارَكًا أَيْنَمَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا *
وَرَأَى بَوَالِدِي فَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا * وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ
وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا * (١)

واعلان العبودية لله يتضمن أمورا منها :

١ - أنه ليس ابن الله أو ظل الله أو ثالث ثلاثة ، أو أنه قد يسم

قدم الله وظهر في وقت مشيئة وذلك فان الله قد حكم

بالكفر على كل من ادعى ذلك .

(١) سورة مريم : الآيات " ٣٠ - ٣٣ "

قال تعالى : * وَقَالَتِ الْيَهُودُ عِزِّيَابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى
الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ
كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ * (١)

وقال تعالى : * لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ... * (٢)

وقال تعالى : * لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ
وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّ الَّذِينَ
كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * (٣)

وفي بطلان قدمه قال تعالى : * مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ
وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِنَّهُ لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ... * (٤)
* لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ * (٥)

ب - ليس ذلك يعني فقدان منزلته ، فالعبودية أسمى درجات

المعبادة وهي قاسم مشترك بين الأنبياء جميعا ، قال تعالى :

* وَادْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي
وَالْأَبْصَارِ * (٦)

(١) سورة التوبة : الآية " ٣٠ "

(٢) سورة الأنعام : الآية " ١٠٣ "

(٣) سورة المائدة : الآية " ٧٤ "

(٤) سورة المؤمنون : الآية " ٩١ "

(٥) سورة الزمر : الآية " ٤ "

(٦) سورة ص : الآية " ٤٥ "

وقال تعالى في وصف رسوله محمد صلى الله عليه وسلم

* وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا * (١)

ج - العبودية اذا نسبت الى الله فهي عبودية تشريف لأنها ارتفاع من الخلق الى الحق وارتقاء (من مستوى الطين الى مستوى الملائكة) ، وفي هذا يتجلى الله على عبده بما يشاء وحسبك بالسيد الكريم اذا رضى عن عبده فانه يسوف يعطيه بخير حدود . أما عبودية البشر للبشر فهي عبودية استغلال وأخذ دون عطاء ، تكون نتيجة هذه العبودية المذلة والمهانة وفقدان الكرامة " وذلك تكون الاجابة قد تضمنت بطلان زعم اليهود في شأن المسيح عليه السلام .

د - وقيد أن ذكر عبوديته لله أولا ، لأن الاعتراف بذلك على ما قيل أول مقامات السالكين وفيه رد على من يزعم ربوبيته (٢)

ولعل هناك من يسأل ماصلة الاجابة ببرائة والدته ، ان المقام مقام اتهام لوالدته ، فهلا نطق أولا قائلا : أنا لست ابن زنا ، انما أنا روح الله ، هلا نطق صراحة بدفع التهمة عن والدته ثم بعد ذلك نطق بما تراءى له من صفات المدح ؟

(١) سورة البقرة : الآية " ٢٣ " .

(٢) روح المعاني للألوسي : ج ٦ ص ٨٩ .

وفي الاجابة نقول :

- ١ - أن نطق عيسى عليه السلام وحي ، وليس فيه دخل على الإطلاق .
- ٢ - ان حق الله مقدم على حق النفس والغير أيا كان هذا الغير . وحق الله الذي أنطق هذا الوليد هو تنزيهه سبحانه عن اتخاذ الولد ، فما ينبغي أن يكون خلق عيسى وكلامه شبهة لأن يفترى أحد على الله . . ويدعى لغير الله وما لا يصح .
- ٣ - ان ازالة التهمة عن الله سبحانه وتعالى هي بالتالي ازالة التهمة عن الأم ولا عكس ، لأن الله سبحانه لا يخص الفاجرة بولد في هذه الدرجة العالية والمرتبة العظيمة ، ولو أنه تكلم ، بازالة التهمة عن أمه فلن يفيد ازالة التهمة عن الله تعالى (١)
- ٤ - فضلا عما ذكر فان العبودية أول مقامات السالكين وهي تعني تفويض الأمور كلها للسيد الأعظم فلو أنه كان كما زعم النصارى ربا - لم يكن عبدا (٢)
- ٥ - كما ان الاجابة قد تضمنت برامتها أيضا في قوله * ويرا بوالدتي * ان لو كانت كما افترى عليها لما كان الرسول المعصوم مأمورا بتعظيمها ، كما أن من اصطفاه الله لعيسى

(١) التفسير الكبير للامام الرازي : ج ٢٢ ص ٢٠٩ .

(٢) حاشية الشهاب : ج ٦ ص ١٥٥ نقلا عن تفسير سورة مريم .

ما يدل على برامتها لأن الله سبحانه أجل من أن يصطفى
ولد الزنا وذلك من المسلمات عندهم وفيه من اجلال امه عليها
السلام ما ليس في التصريح ، وقيل لأنه تعالى لا يخص بولده
موصوف بما ذكر الا مهراه مصطفىاه . (١)

بعد أن أعلن عيسى عليه السلام عبوديته لله ، أعلن أن الله
سبحانه وتعالى قضى أن يومئذ الكتاب ، واختلف في المراد منه ، قيل
انه التوراة ، وقيل : الانجيل ، وقيل مجموعهما (٢)

وقال عكرمة : (أثنى الكتاب) أى مطني أن يومئذ
الكتاب فيما مضى ،

وروى عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : كان عيسى ابن مريم
قد درس التوراة وأحكمها وهو في بطن امه فذلك قوله تعالى : * آتاني
الكتاب وجعلني نبيا *

قال ابن كثير : (وفي سند الرواية) يحيى بن سعيد العطار
الحمصي متروك (٣)

والأرجح أن المراد بالكتاب هو الانجيل ، لأن التوراة قد أوتيتها
موسى عليه السلام ، وحظ عيسى منها هو التعليم فقط .

-
- (١) روح المعاني للألوسي : ج ١٦ ص ٨٩ .
(٢) نفس المرجع السابق .
(٣) تفسير ابن كثير : ج ٣ ص ١٣٠ .

وقد عبر بالماضي عن المستقبل لتحقيق الوقوع ويؤيد ذلك قول أبي السمود : أن الله قد حكم في الأزل وقد ر في القدم أن يخلصني بهذا الكتاب المقدس ، وأنه عبر بالماضي ليكمل ما في شرف الوقوع لا محالة كالذي وقع (١)

وهذا يكون ماذهب اليه الامام الرازي (٢) وتبعه
النيلساهورى (٣) من أن المسيح عليه السلام قد اوتى التوراة والانجيل
وأمر بالصلاة والزكاة من قبل أن يكلمهم لا أساس له ولا سند ، كما أنه
لا يعقل أن ينزل عليه الانجيل وهو في المهد ، وكيف يؤمر بالصلاة
والزكاة وهو غير مكلف كما أن الآيات لا تدل على أن عيسى عليه السلام
دعاهم الى الله في المهد ولو كان الانجيل قد نزل لحدثهم به والا كان كاتما
للعلم ، وسنزل من يكتم العلم معلومة * إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ
الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ
وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ * (٤) .

- (١) تفسير ابوالسعود : ج ٣ ص ٥٨١ .
- (٢) التفسير الكبير للفخر الرازي : ج ٢٢ ص ٢١٤ .
- (٣) تفسير النيسابوري : ج ١٦ ص ٥٢ .
- (٤) سورة البقرة : الآية " ١٥٩ " .

والجمهور من الومسرين على أن عيسى عليه السلام لم يتكلم
بعد ذلك .

قال الألوسي واختلف في أنه بعد أن تكلم بما ذكر هل بقي
يتكلم كمادة الرجاا أولم يتكلم حتى بلغ مبلغا يتكلم فيه الصبيان وعده
عليه السلام في عداد اللذين تكلموا في المهد ثم لم يتكلموا الى وقت
العادة ظاهر في الثاني (١)

وهذا بيطل ما ذهب اليه الرازي والنيسابوري والبرسوى (٢)
من أن عيسى عليه السلام أوتي الانجيل في المهد وكان عقله عقـل
الرجال .

وقد ذكر ابن كثير والطبري أن المراد من * آتاني الكتاب *
أى قضى أن يؤمنيني الكتاب (٣)

ومذهب القرطبي أيضا يؤيد ما ذهب اليه فقد قال : وقيل
حكم لي بايتاء الكتاب والنبوة في الأزل .. وهذا أصح .

(١) روح المعاني للألوسي : ج ١٦ ص ٨٩ .

(٢) البرسوى : ج ٦ ص ٣٣١ .

(٣) ابن كثير : ج ٣ ص ١١٩ ، الطبري : ج ١٦ ص ٨١ .

أما عن الرأي الآخر فقد قال عنه وهذا في غاية الضعف :
وذكر السبب قائلا عن عيسى عليه السلام انما تكلم في طفولته بهذه الآية
ثم عاد الى حالة الأطفال حتى مشى على عادة البشر ، فكان نطقه
لاظهار براءة أمه لا أنه كان ممن يعقل في تلك الحالة . أو هو كما
ينطق الله تعالى ، الجوارح يوم القيامة ، ولم ينقل أنه دام نطقه
ولا أنه كان يصلي وهو ابن يوم أو شهر . ولو كان يدوم نطقه وتسبيحه
وصلاته في صغره من وقت ولادته لكان مثله مما لا يهتم ، وهذا كله مما
يدل على فساد القول الأول ، الاتيان في المهد ، ويصرح بجهالة
قائله (١) (جعله نبي) وبعد أن أخبرهم المسيح عليه السلام
بعبوديته لله ، وأن الله آتاه الأنجيل أخبرهم بأنه سوف يكون نبيا
وأنه سيكون مباركا اينما كان .

قال مجاهد : أي نفاعا ومن نفعه ابراء الأئمة والأبرص ،
وقال سفيان ، معلم الخير أمرا بالمعروف ناعيا عن المنكر وعن الضحاك
قاضيا للهوائج .

والأول أولى لعمومه (٢)

ويمكن حمل المعنى على ما ذكرته آيات سورة آل عمران حين
بشرت الملائكة مريم عليها السلام بصفات المحموم به ، بأنه كان يخلق

(١) تفسير القرطبي : ج ٤ ص ٤٥ .

(٢) روح المعاني للألوسي : ج ١٦ ص ٨٩ .

من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيرا باذن الله كما أنه كان يبرىء
الأكمة والأبرص ، وكان يحيى الموتى باذن الله ، وكان يخبرهم ببعض
الغيبات واحلاله لبني اسرائيل بعض ما حرم عليهم ، كما أنه مكــن
باذن الله من احياء بعض الموتى .

لكل هذه الخصوصيات وغيرها كان عيسى عليه السلام مباركا اينما
حلّ وحيثما ارتحل .

ومما أمر به عيسى عليه السلام الصلاة والزكاة مادام حيا ،
فان الله أمره باقام الصلاة وإيتاء الزكاة مدة حياته .
وهذه ليست خصوصية لعيسى عليه السلام ، بل أن الأمر بالصلاة
والزكاة قاسم مشترك بين جميع الأنبياء ، فلقد أمر بذلك نوح عليه السلام
قال تعالى في حقه : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا ﴾ (١)
وكان ما أوحى به الى ابراهيم واسحاق ويعقوب ما ذكره الله في كتابه :
﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا
عَابِدِينَ ﴾ (٢)

ولقد ذكر الحق أنه أمر بني اسرائيل بذلك : ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ
وآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ (٣) ، ومن الحق أن أهل الكتاب

(١) سورة الشورى : الآية " ٤٢ " .

(٢) سورة الأنبياء : الآية " ٧٣ " .

(٣) سورة البقرة : الآية " ١٣ " .

جميعا قد أمروا بذلك ، قال تعالى : * وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا
الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ ، وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ
لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ * (١)

وليس لنا أن نخوض في الكيفية التي كانت تسمى بها الصلاة
ومقدار الزكاة ، إنما الحكمة في التفويض والایمان بأن أركان الدين
قاسم مشترك بين جميع الأنبياء ، وصدق الله إذ يقول : * شَرَعَ لَكُمْ
مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى
وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ * (٢) ، وكونه يصلي لغيره
ويزكي تقربا الى الخالق ، دليل على أنه ليس بآله وإنما هو بشر رسول
شأنه شأن غيره من الأنبياء .

ومما أمر به المسيح عليه السلام ، بره بوالدته وأن الله فطره
على ذلك لقوله : * هَرَا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا * ،
وفي قوله عليه السلام هارا بوالدتي ، دليل على أنه لأب له ، لأنه
لو كان من أب لقال : هارا بوالدي .

قال الألوسي : وهذا كالصریح في أنه عليه السلام لا والد له
فهو أظهر الجمل في الإشارة الى برامتها عليها السلام ، وفيه ترتيب
طبيعي . فيمد أن اعترف بحق الله عليه وما يتعلق به كسوءوليه شخصية

(١) سورة البينة : الآيتان " ٤ ، ٥ " .

(٢) سورة الشورى : الآية " ١٣ " .

من اقام الصلاة وايتاء الزكاة ، اعترف بحق اوه عليه .
وهو الحق الثاني (بر الوالدين) بمد الحق الأول
(توحيد الله واقامة لاهم ذلك) .

وما اختص به المسيح عليه السلام أنه لم يجعله ربه جبارا شقيا
أى لم يقض الله عليه بذلك في علمه الأزلي ، وقد كان عليه السلام في
غاية التواضع يأكل الشجر ويلبس الشعر ويجلس على التراب ولم يتخذ
مسكنا وكان عليه السلام يقول : سلوني فاني لين القلب صغير فني
نفسى (١) .

وسواء صح هذا القول عن عيسى عليه السلام أم لا ، فسان
الذى نؤمن به أن التواضع صفة الأنبياء ، وان الرحمة هي السمة الغالبة
عليهم ، كيف لا ؟ ودعوتهم بل أساس بعثهم رحمة للبشر ،
ومع ذلك فهم مأمورون بالترقي في هذا المسلك الطيب * وَأَخْفِضْ
جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * (٢)

وهذا التمييز من جمال النظم ، فبعد أن ذكر حق الله وحق
النفس وحق الأم ، ذكر حقوق الآخرين ومنهجهم في المعاملة و معهم
حين أنه رسول الرحمة اليهم كما قضى الله وقدر .

(١) روح المعاني للألوسي : ج ١٦ ص ٩٠ .
(٢) سورة الشعراء : الآية " ٢١٥ "

ثم ختم كلامه بقوله : * وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ
وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا * (١) والسلام هو الأمان والهدوء والسكينة .

وقد أشار عيسى عليه السلام الى تحقق ذلك له في مواطن ثلاثة هي
مناط الخطر ، الأول يوم الميلاد ، والثاني يوم الوفاة ، والثالث يوم
البعث . ومن تحقق له السلام في هذه المواطن الثلاثة فقد تحقق له
السلام المطلق الذي تكون عاقبته السكينة في دار السلام - حيث يحيى أهلها
من الله بالسلام * سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ * (٢) ويحييهم الملائكة أيضا
بالسلام * وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ * سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا
صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ * (٣)

ولعل المسيح قد ألهم الإشارة الى هذه المواطن الثلاثة ، لكي
يطمئن قلب أمه الى أن حياته لاخطورة فيها عليه فالذى كتب له السلامة
لحظة الميلاد - وقد تحققت هي من ذلك - كتب له السلام يوم الوفاة
ويوم البعث .

أو أن الأمر مراد به التحدى لقومه ، وكأنه يقول لهم لن تصلوا
اليّ بشئ . فلقد ولدت بدون قابلة ، ورزقت أمي ماتحيا به اكراما
لي . وعادت وكلها ثقة في أنني سأتولى الدفاع عنها ، وكذلك يوم وفاتي
كاشارة مسبقة لنا يضره الغيب من حرص اليهود على صلبه وفيه دليل
على انهم لن يظفروا بذلك على وجه الاطلاق ، لأن من كتب له السلام يوم

(١) سورة مريم : الآية " ٣٣ "

(٢) سورة يس : الآية " ٥٨ "

(٣) سورة الرعد : الايتان " ٢٣ ، ٢٤ " .

الميلاد ، كتب له السلامة يوم الوفاة فلن يظفر هو ولا بما يضرهم على وجه الإطلاق ، وقد تحقق هذا بالفعل وأبطل الله زعم اليهود في كذبهم * وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِمَّنْ مَالَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا * بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا * (١)

وهذه الآية توحى بأن عيسى عليه السلام بشر كسائر البشر فضل بالرسالة وفي قوله ولد ، أموت ، أبعث ، اثبات للمشيئة وطلان لالوهيته لأن الاله لا يولد ، ولا يموت ولا يبعث ، فهي بمثابة تأكيد معنوي لقوله السابق : * قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا * (٢)

ومع أن القرآن الكريم ذكر أن عيسى عليه السلام قد نطق في المهد بما يرى أمه عليها السلام إلا أن بعض النصارى يدعون خلاف ذلك ويزعمون أن عيسى عليه السلام لم يتكلم في المهد ولم ينطق ببراءة أمه عليها السلام ، وأقام على ذلك ثلاثين سنة ، واليهود تقذف أمه بيوسف النجار ، وهذا من أكبر فضائحهم بـرد ما هم عليه من دعوى الألوهية له عليه السلام ، واستشهدوا على دعواهم قائلين :

(١) سورة النساء : الآيتان ١٥٧ ، ١٥٨ .

(٢) سورة مريم : الآية ٣٠ .

ان كلامه في العهد من اعجب الأسور وأغربها ، ولا شك أن مثل هذه الواقعة تكون بمحض جمع عظيم وتتوفر الدواعي على نقلها فيبلغ حد التواتر ، فلو كانت هذه الواقعة موجودة لكان أولى الناس بمعرفتها النصارى ، لأنهم افراطوا في محبته ، حتى ادعوا فيه الألوهية ، لكنهم طبقوا على انكاره ، فعللنا أنها لم توجد أصلا . (١)

والجواب : أن اطباق النصارى على انكاره ممنوع ، ولو سلم فان كلام عيسى في العهد انما كان للدلالة على براءة مريم ما نسب اليها من السوء ، وكان الحاضرون حينئذ جمعا قليلا ، ولا يبعد في مثلهم التواطؤ على الاخفاء ، ويتقدّر أن يذكروا ذلك فان غيرهم كانوا يكذبونهم في ذلك ، وينسبونهم الى البهت ، فهم ايضا قد سكتوا لهذه العلة ، فلهذه الأسباب بقي الأمر مكتوما الى أن نطق القرآن بذلك (٢)

وأجاب الألوسي (مقتبسا) بقوله وأجيب بأن الحاضرين ان ذاك لم يبلغوا مبلغ التواتر ولما نقلوا كذبوا فسكتوا وبقي الأمر مكتوما الى أن نطق القرآن به ، وهذا بناء على من قال انه لم يتكلم إلا ساعة من نهار .

-
- (١) غرائب القرآن و رغائب الفرقان : ج ٢ ص ١٩٥ ، الألوسي :
ج ٣ ص ١٦٣ ، الأجمة الفاخرة للقرافي على هامش كتاب
الفارق بين الخالق والمخلوق : ص ١٩٣ .
(٢) غرائب القرآن و رغائب الفرقان : ج ١٩ ص ١٩٥ .

وأما من قال انه بقي يتكلم على الدوام فيقال : أن الناس اشتغلوا بعد بنقل ما هو أعجب من ذلك من أحواله كاحياء الموتى ، وإبراء الأكمه والأبرص ، والاخبار عن الغيوب ، والخلق من طين كهيئة الطير حتى لم يذكر التكلم منهم الا النذر ، ولا زال الأمر بقله حتى لم يبق مخبر عن ذلك وهي مكتوما الى أن أظهره القرآن .

ثم انتقد الاجماع بقوله : وكم أجمع اهل الكتابين على اخفاء أشياء وتواطؤوا على ستر حقائق حتى اتى القرآن فكشفها وقسأل الحق فيها (١) .

وقد استشهد القرافي على بطلان الوهية المسيح من دعواهم تلك قائلا :

والنصارى تزعم ذلك ، الشبهة المتقدمة ، مع أنه قادر عندهم على كل شيء ، وخالف كل شيء فيلزم أن مألقت والدته من ولدها شرا مما لقيت مريم . عليها السلام من عيسى عليه السلام ، وأنه جمع بين عقوق امه وهتك سترها ، وفضيحتها على رؤس الأشهاد ، وأعان على التمدى على الباطل اعتقادا وقولا مع قدرته على دفع جميع هذه المفاسد بغير كلفة ، ثم ما اكتفى لوالدته بذلك حتى ألزمها الصلاة والصوم ومشاق التكاليف وقضى عليها الموت وجرعها غصصه ، وهذا لم يصل الى قبضه ولد من الأولاد ، وهو صلوات الله وسلامه عليه منزّه عن جميع ذلك وانما

(١) روح المعاني للألوسي : ج ٣ ص ١٦٣ .

يلزمهم هذا من مذهبهم سوء المشتل على الكفر والعناد (١)
وقد ذكر الامام الرازي الجواب على الشبهة السابقة بقوله :
لولا كلامه الذي دل على براءة أمه ، لما تركوا اقامة الحد عليها ،
فترك اقامة الحد دليل على أنه تكلم في المهد (٢)

والذي يدل على أن المجتمع اليهودي كان ماديا بحثا ، وقد
ذهلوا حين عودة مريم حاملة وليدها ، وصهتوا حين سمعوا الاجابة من
عيسى وكان حدثا انتهى بانتهاه وقته ، وخاصة أن مريم عليها السلام
قد هاجرت بعد هذه الواقعة كما سألين بعد ، وكان الحدث كان
ذكرى ، كما أن حقدهم على عيسى واخبار بعضهم بصفاته وأنه ملك
اليهود الذي قدم ليفير شريعة موسى ، جعلهم يكتمون كل مكرمة له
عليه السلام ، ولذلك فانها لم تشتهر بين اليهود لحقدهم وحسد هم ، ولم
تشتهر بين النصارى لأنهم لم يتعمقوا الا بعد اطلاق الدعوى ، واعلانه
للدعوة كان بعد سنين عددا من هذه الواقعة ، فلا يعقل ان يكون
المسيح قد قال لهم : لقد تكلمت في المهد بين يدي والدتي .

(١) الأجمة الفاخرة ، للقرافي على هامش كتاب الفارق بين
المخلوق والخالق ، ص ١٩٤ .

(٢) الرازي : ج ١٦ ص ٢٢١ .

ومع هذا فان من يراجع الانجيل الموجودة الآن والتي ينسبونها الى المسيح عليه السلام يرى فيها أنه تكلم في الثالثة من عمره .
وحاج يوحنا المعمدان ، النبي يحيى ، وهو في هذا السن
أوقيل ذلك (١)

وقيل انه لما أتى الى مصر ، وذهبت به امه الى المعلم تكلم
عيسى قبل أن يتكلم (٢) فكيف بهم يدعون عدم كلامه حتى الثلاثين من
عمره ؟

ومع ما ذهب اليه هؤلاء من عدم كلام المسيح عليه السلام في المهد
فان بعض النصارى قد استشهد على أفضلية عيسى على محمد عليهما
السلام ، بأنه نطق في المهد ، فلقد ورد ان جماعة من النصارى سألوا
عليها رضي الله عنه أن من كرامات عيسى عليه السلام أنه نطق في المهد
فهل نطق نبيكم في المهد ؟ فقال علي رضي الله عنه : ان عيسى
كان محتاجا الى النطق لأنه ولد من غير أب ، فخاف من التهمة فاحتاج
الى النطق ورسول الله صلى الله عليه وسلم لم يحتج آن ذاك الى
النطق . (٣)

(١) انجيل متى الاصحاح الثاني : ١-١٢ .

(٢) نهاية الارب في فنون الارب : ج ١٤ ص ٢٢٢ .

(٣) بدائع الزهور في وقائع الدهور : ص ٢٢٤ .

أما المسلمون فانهم يؤمنون بما ورد في القرآن الكريم بل ويؤمنون
ايضا بما ورد في السنة المطهرة والتي أشارت الى أن الكلام في المهد ليس
خاصا بعيسى عليه السلام ، بل انه ظهر ككرامة لبعض المخلوقين كما
ذكر ذلك في حديث الرسول صلى الله عليه وسلم الذي قيل فيه :
(ما تكلم أحد في صفه الا عيسى وصاحب جريج) ،
وعنه صلى الله عليه وسلم لم يتكلم في المهد الا ثلاث : عيسى ،
وصبي كان في زمن جريج ، وصبي آخر (

ويؤيد ذلك ماورد في الحديث الصحيح عن أبي هريرة عن النبي
صلى الله عليه وسلم قال : (لم يتكلم في المهد الا ثلاثة : عيسى وكان
في بني اسماعيل رجل يقال له جريج كان يصلي جاءته أمه فدعته فقال
أجيبها أو أصلي فقالت اللهم لاتسميته حتى تربيه وجوه المومسات وكان جريج
في صومعته فتعرضت له امرأة وكلته فأبى فأتت راعيا فأمكنته من نفسها
فولدت غلاما فقالت من جريج فأتوه فكسروا صومعته وأنزلوه وسبوه فتوضأ
وصلى ثم أتى الغلام فقال : من أبوك يا غلام ؟ قال : الراعي ، قالوا :
نبني صومعتك من ذهب قال : لا ، الا من طين . وكانت امرأة ترضع
ابناتها من بني اسرائيل فمر بها رجل راكب ذو شارة فقالت اللهم
اجعل ابني مثله فترك ثديها وأقبل على الراكب فقال : اللهم لاتجعلني
مثله ثم أقبل على ثديها بمصه . قال أبوهريرة كأنني أنظر الى النبي
صلى الله عليه وسلم يرضع أبعده ثم مر بأمه فقالت اللهم لاتجعل ابني مثل
هذه فترك ثديها فقال : اللهم اجعلني مثلها فقالت لم ذاك فقال الراكب
جبار من الجبابرة وهذه الأمة يقولون سرقت زينة ولم تفعل) . (١)

(١) صحيح البخارى : ج ٤ ص ٢٠١ ، ٢٠٢ ، كتاب بدء الخلق باب
واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها

ومن خلال الآيات السابقة نرى أن الناس أمام ميلاد عيسى عليه السلام ينقسمون الى أقسام ثلاثة :

- ١ - البعض كفر ورمى أمه بالزنا وهم اليهود .
 - ٢ - البعض آمن به كآية من آيات الله وهم المؤمنون .
 - ٣ - البعض افتتن به لكونه ولد من غير أب ، وزعموا أن معنى كونه ولد بكلمة من الله وكونه من روح الله أن الله تعالى حل في أمه وان كلمة الله تجسدت فيه ، فصار لها وانسانا وهو لا قد ضرب الله لهم المثل بأن خلق عيسى كخلق آدم . وهو حجة على الفريقين من اليهود والنصارى ولا شك ان خلق آدم أعجب من خلق عيسى لأن هذا خلق من نوعه . وذاك قد خلق من التراب .
- وانا كان عيسى قد خلق من بعض جنسه فآدم قد خلق من غير جنسه فهو أولى بالمزية ، لو كانت هي الانكار ان صح على أن ننعرف من أمر الخليقة ليس لنا منه الا الظاهر ، نصفه ونقول به وان لم نعقله .
- وماذا نعقل من الرابطة بين الحسن والنطق في الانسان مثلا (١) .
- فالحمد لله الذي هدانا لما اختلف فيه من الحق ، ومن لنا الهدى والرشاد .

(١) تفسير المنار بتصرف : ج ٣ ص ٢٢٠ - ٢٢١ ،

قصيدة في مدح طهارة مريم عليها السلام :

وان قصة السيدة مريم عليها السلام قد لاقت من المفسرين والمادحين
والمفكرين بل الأدباء والشعراء ايضاً كثيراً من الدراسة وماذا لك الالتفرد بها
بهذا الحدث الذي شئت ارادة الله ان تنفرد به ، وفي هذا يقول
أحد الشعراء ما دعا طهارتها :

وفي دينكم من رب مريم آية
منبئة والعبد عيسى ابن مريم
أنابت لوجه الله ثم تبتلست
فسبح عنها لومة القلبيم
فلا هي همت بالنكاح ولا دنت
الى بشر منها بفسرج ولا فم
ولطت حجاب الهيئت من دون أهلها
تغيب عنهم في صحارى يمد
يحاربها السارى اذا جن ليله
وليس وان كان النهار بمعلهم
تدلى عليها بعدما نام أهلها
رسول فلم يحصصر ولم يترمم
فقال ألا لا تجزعي وتكذبي
ملائكة من رب عاد وجوهم
أنبيى وأعطى ما سئلت فأنسى
رسول من الرحمن يأتى بك بآبئهم .

فقلت له انى يكون ولم أكن
بغيا ولا حيلولا ولا ذات قسم
أخرج بالرحمن ان كنت مسلما
كلامي فاقعد مابدا لك أو قسم
فسبح ثم اغترها فالتقت به
غلاما سوى الخلق ليس بتسوا
بنفخة في الصدر من جيب درعها
وما يصدم الرحمن بل أو يصدم
فلما أتمته وجاءت لوضع
فأوى لهم من لومهم والتندم
وقال لها من حولها جئت منكرا
فحق بأن يلجى عليه وترجمسي
فأدركها من ربهها ثم رحمة
بصدق حديث من نبي مكرم
فقال لها اني من الله آية
وعلمي الله غير معلوم
وأرسلت لم أرسل غويا ولم أكن
شقا أبعث بفحش ومأثم (١)

(١) من كتاب الهدى والتاريخ ، لمطهر بن طاهر المقدسي ص ١٢٣ /
١٢٤ ، ط - مكتبة المثنى ببغداد سنة ١٩٠٣ م .
وقد نسبت الأبيات لأميه ولم أجدها في ديوانه ولم أجد لها كذلك في
ديوان شعراء النصرانية والله أعلم .

الرد على اليهود والنصارى وإبطال زعمهم :

يعد الذي ذكرته من قصة حمل مريم عليها السلام وطهارتها التي أشار إليها القرآن ، صرامتها من كل مانسب إليها قدحاً ، يجب أن تنزه عما نسب إليها النصارى في زعمهم أن الله قد حلّ فيها ، لأنهم يرون ذلك ، ومن النصوص الواردة لديهم ما يؤيد قولهم هذا ، وإن كانت النصوص والآراء كلها زائفة ، يزعم النصارى أن الله سبحانه لما أرسل رسله إلى خلقه ، ولم يمثلوا لهم ، نزل هو سبحانه يعد ذلك من السماء ليكمل الناس بذاته لئلا تكون لهم حجة عليه فتقطع حجبتهم حينئذ ، من أجل أن كلمهم بذاته ، لا بواسطة بينهم وبينه . . . فهبط بذاته من السماء واتحم في بطن مريم العذراء البتول أم النور فاتخذ لنفسه منها حجاباً كما سبق في حكمته الأزلية . . . فهو الإله التام وهو الإنسان التام وهم بذلك يستشهدون بما ورد في انجيل متى (هوذا العذراء تحبل وتلد ابناً ويدعون اسمه عما نوئيل الذي تفسيره الله معنا) (١)

وهم بادعائهم الحلول مختلفون ، منهم القائل بأن الله الخالق هو نفسه الذي حلّ في فرج مريم ، ومنهم من قال أن الابن الذي هو مساو للأب من حيث القدم والعلم هو الذي هبط بذاته ودخل في مريم وخرج على صورة إنسان ، ومنهم القائل أن للمسيح طبيعته الأولى لأهوتيه والثانية ناسوته . .

(١) انجيل متى الأصحاح الأول ٢٣ وانظر كتاب بين الأسلام

والمسيحية من ٨١ - ٨٤ .

وقد ناقش ابن تيمية النصارى في دعوى حلول الاله في مريم
وأبطلها تأخذ من كلامه :

كيف تكون ذاته - الله - متحدة بما في بطن مريم أو حالة فيه
ولا يظهر أثر ذلك ؟ ثم ناقش ذلك بعمد قائلا :

والمقصود انهم اذا قالوا : أن الرب أو بعض صفاته اتحد بما
خلق من مريم فلا بد أن يحصل له اتصال بمريم قبل اتصاله بما خلق منها
وذلك هو معنى النكاح والازدواج ، وعند جمهور النصارى أن مريم ولدت
اللاهوت كما ولدت الناسوت ، وهي ام اللاهوت ، ويقولون في دعائهم
يا والدة الاله . واللاهوت الذى ولدته مريم هو عندهم رب العالمين ،
واللاهوت اتحد بالناسوت عندهم من حين خلق الناسوت في بطن مريم لم
يحدث بعد الولادة ، فاذا جاز أن يكون لرب العالمين عندهم أم ولدته
بوجه من الوجوه فامكان ان يكون له صاحبه وزوجه أولى وأخرى وليس في
ذلك ما يحيله العقل والشرع الا وهو لكونها أما للاهوت أشد احالة .

فان جاز ان يكون للاهوت أما ، والام أصل ، فلأن يكون لسه
صاحبه هي زوجة ونظير أقرب وأولى فان من المعلوم أن ولد ذلك الشئ
وهو المتفرع المتولد عنه ، أنقص بالنسبة اليه من نظيره .

فاذا قالوا : ان لرب العالمين ولدا اتحد بالناسوت هو نظيره
المساوى له في الجوهر ، وقالوا أن الناسوت أم هذا المسيح الذى
هو الله وهو ابن الله ، وقالوا ان الناسوت مريم ولد اللاهوت كما ولد
الناسوت ، ولم يكن هذا عيبا ينزه الرب عنه ، فلأن يجعلوا له أم هذا

الولد الذى حبلى به واتحد به اللاهوت وهو فيها . وولدت اللاهوت صاحبه وزوجه للأب أولى وأخرى ، والا فكيف تلك ابنة الذى عمو اللاهوت ولا تكون صاحبه وامرأته ؟ والمسيحيون فى جعلهم المسيح ابنا لله يفرقون بين نبوته ونهوه غيره من الأنبياء وبين نهوه غيره من البشر ايضا . وهم يجهدون فى رفعه الى درجة لم يصل اليها بشر ، وهم فى ذلك يقولون : نحن سمينا علمه مولودا عنه ، لكونه تولد عنه تولد الكلمة عن العقل وهذا الولد اتحد بالناسوت ، فسمينا المجموع ولدا ، وهذا يفرقون بين كون المسيح ابنا ، وغيره من الأنبياء ويسمى ابنا ويرون أن الأنبياء جميعا أبناء بالوضع ، والمسيح ابن بالطبع أى اولئك سموا أبناء بمشيئة الرب وقدرته لأنه اصطفاهم .

والكلمة التى جعلوها متحدة بالمسيح هى عندهم ، متولد عن الله تولد اقدما أزليا لا يتعلق بمشيئته وقدرته ، ولهذا قالوا : مولود غير مصنوع فان القديم الأزلي مع كونه قائما بذاته ، لا يكون مصنوعا عند أحد من العقلاء ، ولا القائلين بقديم العالم .

فاذا كانت الكلمة اتحدت بالمسيح المخلوق من مريم والتحمت به فاذا قيل : مع ذلك أن القديم من المحدث أو لاصقه او باشره ، كان أيسر من هذا كله .

والمسيح ولد ولادة حادثة عندهم ، غير الولادة القديمة التى فىلزم أن تكون مريم قد صارت زوجة وامرأة ، بل نكحت نكاحا حادثا يناسب

تلك الولادة المحدثه قال تعالى : * أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ
صَاحِبَةً وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * (١) ولهذا كسان
الحلول أسهل من الاتحاد .

وسهما قدر من اتصال الزوج بزوجته أهون مما قالوه من اتحاد
القديم بالمحدث ومصيره وإياه أما جوهرًا واحدًا وأما شخصًا واحدًا
وأما مشيئة واحدة . ولهذا كان كل عاقل يعلم أن النكاح الحسي أسهل
من الولادة الحسية ، فالذكر من الحيوان إذا نكح الأنثى لم تصر
الأنثى متولدة عنه ، فإذا جوزوا أن يكون للرب القديم الأزلي ما يتولد عنه
ويتحد به وهو محدث مخلوق فلأن يكون له ما يمهه أولى وأحرى .

وإذا قالوا : أن المسيح إنما كان ابنًا لله لأن الكلمة القديمة هي
ابن اتحدت به قبل فقد يسمى الناسوت الذي اتحد به القديم ابنًا
عندكم ، باسم القديم وجعلتموه لها خالقًا ، فما المانع من جعل أم ذلك
الناسوت الذي جعلتموه ابنًا لله ، صاحبة لله وزوجه باعتبار أن القديم
الأزلي حصل منه . ومنها ما عوا ابن القديم الأزلي . .

ومد أن ناقش ابن تيمية النصارى في معتقداتهم الحلول أو
البنوة ختم النقاش بقوله : ومن جوز عقله أن يكون رب العالمين خرج من
فرج مريم وهي بكر ، فقد جعل رب العالمين يخرج من ثقب صغير وهذا
أعظم ما يكون من الامتناع ، ومن جوز عليه هذا جوز عليه أن يخرج من كل

(١) سورة الأنعام : الآية " ١٠١ " .

ثقب مثل ذلك الثقب وأكبر منه . وجوز أن يخرج رب العالمين من قسم كل حيوان وفرجه ومن شقوق الأبواب وغير ذلك من الثقوب ، وإن قالوا : ذاك مكان طاهر قليل أفواه الأنبياء والصالحين أظهر من كل فرج فسي العالم فيجوز أن يخرج من فم كل نبي وولي من أذنه وأنفه ، فإن هذه الخروق والثقوب أفضل من فروج النساء تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا .

فهؤلاء النصارى يقولون : أن كون الله مولودا من فرج مريم غير كونه مولودا في الأزل من الأب بل هما ولادتان روحانية جسمانية . وهم إذا طولبوا بتفهم ما يقولونه وقيل لهم : هذا لا يتصور أن يكون رب العالمين يخرج من ثقب ضيق ، لا فرج ولا فم ، ولا أذن ولا غير ذلك الألقاب ، قالوا هذا فوق العقل ، واعترفوا بأن هذا لا يتصوره العقل .

فيقال لهم هذا الكلام لم يقله نبي من الأنبياء ولم ينطق نبي من الأنبياء بأن الله مولود ولا شيء من صفاته مولود ، لاعلمه ولا حياته ولا غير ذلك . (١)

ومع ما نقلته عن ابن تيمية من مناقشته للمسيحيين في قضية الحلول والاتحاد فإن أبا عبيدة الخزرجي في رسالته إلى القسيس القبطي الذي لم يرد اسمه بالرسالة قد استدل على بطلان الألوهية والحلول .

(١) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح : من ص ٤٤ - ٤٩ ج ٣ يتصرف .

بما يدعيه النصارى في المسيح عليه السلام من معتقدات فأخذ من نصوصه التي أوردتها على القيسيس ما يلي :

أخبرني أيها المسكين - يقصد القيسيس :

متى ادعى عيسى الألوهية صريحا ؟ أو متى ذكر الأقانيم التي توضحها ؟ ألم تقرأ في الإنجيل الكائن بين يديك عن عيسى . انه قال حين خرج من السامرة ولحق بالجليل انه لم يكرم أحد من الأنبياء في وطنه (١) وفي الانجيل للوقا : انه لم يقبل أحد من الأنبياء في وطنه فكيف تقبلونه (٢) ، وحسبك هذا من دليل على أنه ما ادعى غير النبوة المعلومة (٣) وهذين النصين يشيران بصراحة لا التواء فيها ولا فموض على أن المولود ليس الانبياء وأن عيسى عليه السلام أعلن في صراحة ذلك ، فلو كان اليها لأعلن لهم ذلك .

بل ان الانجيل المزعوم صحتها لديهم تضمنت نصوصا عدة تشير الى أن عيسى عليه السلام كان ينادى بصوت عال قائلا يا الهي يا الهي (٤) فهل يعقل لو كان هو الله أن يقول يا الله مناديا نفسه .

-
- (١) (يوحنا) الاصحاح : ٤ / ٤٣ - ٤٤ .
(٢) لوقا الاصحاح ٤ الآيات ٢٣ - ٢٤ .
(٣) بين الاسلام والمسيحية ص ١٥٩ - ١٦٠ .
(٤) انجيل متى الاصحاح ٢٧ آية ٤٦ .

قال أبو عبيدة : وفي الانجيل ليوحنا ان اليهود لما أرادت القبض عليه وعلم بذلك رفع بصره الى السماء وقال : قد دنا الوقت يا الهي فشفرتني لديك واجعل لي سبيلا الى أن أملك كمل ما ملكتني ، الحياة الباقية ، وانما الحياة الباقية أن يؤمنوا بك الهيا واحدا والمسيح الذي بعثت وقد عظمتك على أهل الأرض واحتطت ما أمرتني به فشفرتني لديك . (١)

ولما أحيا عيسى عليه السلام الميت باب مدينة نائية عندما أشفق لأنه لشدة حزنهما عليه فقالوا . . ان هذا النبي العظيم وان الله قد تفقد أمته (٢)

وفي الانجيل ليوحنا أن عيسى قال لليهود : لست أقدر أن أفعل من ذاتي شيئا لكنني أحكم بما أسمع لأنني لست أنفذ إرادتي بل إرادة الذي بعثني (٣)

وفي الانجيل انه قال لليهود بعد حوار طويل وكلام كثير مذكور بينه وبينهم في ذلك المجلس حين قالوا له : انما أبونا ابراهيم قال : قال : ان كنتم بئني ابراهيم فاقفوا أثره ولا تريد قتلى . على أنني رجل أدب اليكم الحق الذي سمعته من الله غير أنكم تفقون أثر آبائكم .

(١) يوحنا الاصحاح السابع عشر من ١ - ١٨ .

(٢) لوقا الاصحاح السابع : آية ١٦

(٣) يوحنا الاصحاح الخامس : آية ٣٠

قالوا : لسنا أولاد زنا انما نحن أبناء الله وأحبوه ، فقال :
لو كان أباكم لحفظتموني لأنني رسول منه خرجت مقبلا ، ولم أقبل من ذاتي
ولكن هو بعثني ، ولكنكم لا تقبلون وصيتي ، وتمجزون عن سماع كلامي ،
وانما انتم أبناء الشيطان (١)

وهذه الاسئلة التي أوردها أبو عبيدة (٢) يكون قد دلل على
ان المولود من مريم انما هو بشر شأن سائر البشر الا أنه فضل بالنبوة ،
شأنه في ذلك شأن اخوانه الأنبياء عليهم جميعا السلام .
بذلك يبطل ما ذهب اليه هؤلاء من أن الله قد حل من مريم
وخرج منها كما يخرج الولد ، أو الادعاء بأن مريم قد حملت باين الله ،
أوبشع منه . أطلقوا عليه الألقاب التي ارتضوها بعد ذلك .
وان كان المسيح عليه السلام قد ولد بمن غير أب فله في ذلك حكمة
لاندرك مداها ادراكا كاملا ، والاجتهاد في طلبها على ضوء الشرع والعقل
جائز .

يقول الشيخ محمد ابوزهرة : ولا بد من الإشارة هنا قبل أن تنتقل
الى بعثه عليه السلام ، الى السبب الذي من أجله ولد عيسى عليه السلام
من غير أب ، فانه لا بد ان يكون لحكمة يعلمها الله جلّت قدرته ، وقد

(١) قارن يوحنا الاصحاح الثامن

(٢) بين الاسلام والمسيحية من ١٥٥ - ١٧٠ تحقيق : د . شاه

أشار إليها سبحانه في قوله تعالى : * وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً
مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا نَّقْضِيًّا * (١) وانما نتلمس تلك الآية الدالة في ولادة
عيسى عليه السلام من غير أب فنجد أنه بيد وإمام أنظارنا أمران جليان :

أحدهما : أن ولادة عيسى عليه السلام من غير أب تعلن قدرة الله
سبحانه وتعالى وأنه الفاعل المختار العرید ، وأنه سبحانه لا يتقيد قسري
تكوينه للأشياء بقانون الأسباب والمسببات التي نرى العالم يسير عليها قسري
ظنظامه الذي أبدعه الله ، والذي خلقه .

فلا أسباب الجارية لاتقيد ارادة الله ، لأنه خالقها وهو مدعها
ومريد ها ، فان الأشياء لم تصدر عن الله جلّت قدرته كما يصدر الشئ
عن علته ، والمسبب عن سببه من غير أن يكون للعلة ارادة في معلولها ،
بل كانت بفعله سبحانه وارادته التي لا يقيد ها شئ ، مهما يكن شأنه
وخلق عيسى من غير أب هو بلا ريب اعلان لهذه الارادة الازلية بين قسم
غلّبت عليهم الأسباب المادية ، وفي عصر ساد نوع من الفلسفة اساسها أن
خلق الكون كان من صدره الأول كالمعلول عن علية فكان عيسى آية الله على
انه سبحانه لا يتقيد بالأسباب الكونية ، وعظ وأن العالم كان بارادته ولم
يكن سبحانه بمنزلة العلة من المملول ، تعالى الله عما يقولون علوا
كبيرا .

الأمر الثاني :

أن ولادة المسيح عليه السلام من غير أب اعلان لعالم الروح بين أقوام أنكروها حتى لقد زعموا أن الانسان جسم لا روح فيه ، وأنه ليس الا تلك الأعضاء والعناصر التي يتكون منها ، فلقد قيل عن اليهود انهم كانوا لا يعرفون الانسان الا جسدا عضويا ولا يقرون أنه جسم وروح ، قال رينان في بيان سبب الحقد الذي تغلغل في النفس اليهودية : (لو كان الشعب الاسرائيلي يعرف التعاليم اليونانية التي كان مقتضاها اعتبار الانسان عنصرين مستقلين أحدهما الروح والآخر الجسد وأنه تمسك بالروح في هذه الحياة لأنها تستريح في الحياة الثانية لسرى عنه شيء كثير من عذاب النفس واضطراب الفكر بسبب ذله وخضوعه ، مع ما كان يراه في نفسه من الامتياز الأدبي والديني عن الشعوب التي كانت تذله .

يقرر رينان في هذا أن اليهود ماكانوا يقولون كاليونان ان الانسان جسم وروح ولقد يؤيد هذا ما جاء في التوراة التي بأيديهم من تفسير النفس بأنها الدم ، فقد جاء فيها : لا تأكلوا دم جسم ما ، لأن نفس كل جسد هي دمه .

اذن لم يكن اليهود يعرفون الروح على أنها شيء غير الجسم فلما جاء عيسى من غير أب وكان ايجاد بروح من خلق الله كما قال تعالى : * وَالَّتِي أَحْصَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ * (١) كان ذلك اليجاد الذي لم يكن العاسل

فيه سوى ملك من الأرواح نفخ في جيب مريم فكان الانسان من غير بذرة
الانسان وجرثوته كان ذلك اعلانا لعالم الروح بين قم أنكروها ، ولم
يمزفوها ، فكان هذا قارح وتحت حسهم ليدركوا الروح ، وكان آية
معلمه ، لم يعرف الانسان الا أنه جسم لاروح فيه . وهذه آية الله في
عيسى وأمه عليهما السلام . (١)

(١) محاضرات في النصرانية ، للشيخ محمد ابوزهرة : ج ٢ ص ٢٠

الوقفة الرابع

○ هجرة السيِّدة مريم عليها السلام .

○ وقاة السيِّدة مريم عليها السلام .

الفصل الرابع

هجرة مريم عليها السلام ووفاتها :

من خصائص القرآن الكريم أنه كتاب الهداية والاعجاز وله فضل السبق في كل شيء ، وموقفه من العلم موقف الأب الرحيم من ولده ، حث عليه ودعا اليه وتضمن منه الأساسيات ، وسكت عن أشياء قد لا يفيد ذكرها ولكنه لم يحرم على متبعيه العلم بها .

ومن الأشياء التي نحن بصدد ها الآن ، هجرة مريم عليها السلام ، والقرآن لم يتركها لغفلة المشرع حاشاه سبحانه عن ذلك ، وانما تركها لأنه ركز بالقدر الأول على اثبات قدرة الله جل في علاه ، وظهر آيات هذه القدرة في ايجاد عيسى من غير أب ، وما اقتصرن بهذه الواقعة من خوارق باهرة .

ومع ذلك فقد تضمنت بعض آي القرآن الكريم الإشارة الى أن مريم قد انتقلت من مكان الى مكان في أكثر من آية ، كخروجها من بيتها الى مكان بعيد ، وكايواء الله لها هي ووليدها في مكان آخر ، وغير ذلك .

وإذا كان الأخذ بكتب التاريخ التي اعتمدت على السند جائز . كما أن تتابع الرواية في أكثر من مصدر قد يجعلها تصل الى درجة

القبول . مالم تعارض رواية أخرى أقوى منها .

وكذا مالم تعارض العقل ، من هذا يمكن الوقوف على

هجرة السيدة مريم عليها السلام .

أولا - موقف القرآن الكريم :

يقول الله تعالى : * وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَامْرَأَتَهُ آيَةً * وَأَوْثَقْنَا لَهُمَا فِي الْحَيَاةِ
رَبْوَةً ذَاتَ قَرَارٍ وَصَمِيمٍ * (١)

ويمكن القول أولا : أن هذا المكان ليس هو نفس المكان الذي
خرجت اليه مريم أولا ، لأن آيات سورة مريم قد حدثنا عن هجرة مريم
عليها السلام وحدها ، وهذه الآية إشارة الى أن الايواء الى تلك الربوة
كان لمريم وعيسى عليهما السلام .

وفي المراد من الربوة آراء منها :

- ١ - في قول أبي هريرة : هي فلسطين ، وفي رواية أخرى :
الربطة (احدى مدن فلسطين) (٢)
- ٢ - قال ابن عباس وابن المسيب وابن سلام : دمشق (٣)
- ٣ - قال كعب وقتادة : بيت المقدس (٤)
- ٤ - قال ابن زيد : مصر ، وكذا في رأى الكعبى (٥)

-
- (١) سورة المؤمنون : الآية " ٥٠ " .
 - (٢) القرطبي : ج ١٢ ص ١٢٦ ، الطبرى : ج ١٨ ص ١٢٦ ،
الكشاف : ج ٣ ص ٣٣ ، الرازى : ج ٢٣ ص ١٠٢ .
 - (٣) القرطبي : ج ١٢ ص ١٢٦ ، الطبرى : ج ١٨ ص ١٢٦ ،
الكشاف : ج ٣ ص ٣٣ .
 - (٤) القرطبي : ج ١٢ ص ١٢٦ ، الطبرى : ج ١٨ ص ٢٦ ، الكشاف
ج ٣ ص ٣٣ ، الفخر الرازى : ج ٢٣ ص ١٠٢ .
 - (٥) نفس المراجع السابقة : الثعلبي : ص ٣٤٧ .

من رجح من المفسرين أن الربوة هي (مصر) :

ذكر ابن كثير ، قال اسحق بن بشر عن جوير ومقاتل عن
الضحاك عن ابن عباس قال : وكان عيسى يرى العجائب في صياها الهاما
من الله ففشا ذلك في اليهود وترعرع عيسى فهت به بنو اسرائيل فخافت
أمه عليه ، فأوحى الله الى أمه أن تنطلق به الى أرض مصر فذلك قوله
تعالى : * وَجَعَلْنَا آيَةَ رَبِّهِمْ وَأُمَّهُمَا إِلَى رِبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ
وَهَئِينَ * (١)

الطبري : الى ربوة من ريا مصر ، قال : وليس الريا الا في مصر
والماء حين يرسل تكون الريا عليها القرى لولا الريا
لفرقت القرى . (٢)

السيوطي : نسب الآراء الى أصحابها قائلا :

- ١ - أخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن عساكر عن وهبه بن
منبه رضي الله عنه : وآويناها الى ربوة ، قال في مصر .
- ٢ - وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن زيد : وآويناها الى
ربوة قال : وليس الريا الا بمصر .

(١) البداية والنهاية لابن كثير : ج ٢ ص ٧٧ .

(٢) الطبري : ج ١٨ ص ٢٦ ، طبعة الحلبي .

٣ - أخرج ابن عساكر من طريق جوير عن الضحاك عن ابن عباس أن
عيسى ابن مريم أمسك عن الكلام بعد أن كلمهم طفلا حتى يبلغ
ما يبلغ الفلمان ، ثم أنطقه الله بعد ذلك بالحكمة والبيان ، وذكر
قصة حوارهم مع معلمه ، وبعد ذلك ظهر فضله وفشا أمره فسي
اليهود وترعرع عيسى فبهت به بنو إسرائيل فخافت أمه عليه ،
فأوحى الله اليها أن تنطلق به إلى أرض مصر ، فذلك قوله :
(وجعلنا ابن مريم وأمه آية...) (١)

(١) الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي : ج ٥ ص ٩٠

أشهر كتب التاريخ التي ذكرت هجرة مريم الى مصر :

تاريخ الطبري :

ذكر ابن جرير : أن قوما خرجوا يقصدون المسيح عليه السلام بعد ميلاده مباشرة ، وقد مروا في طريقهم بملك من ملوك الشام ، فسألهم أين تريدون ؟ فأخبروه بذلك . . . وأخبروه بشأن المسيح وصفته ، فطلب منهم في نهاية الحوار أن يدلوه على المسيح ، وسار القوم حتى وصلوا الى مريم فأعطوها ما معهم من هدايا ، وأرادوا أن يرجعوا الى هذا الملك ليعلموه مكان عيسى ، فلقبهم ملك ، فقال لهم : لا ترجعوا اليه ، ولا تعلموه مكانه ، فانه انما يريد بذلك قتله ، فأنصرفوا في طريق آخر ، واحتملت مريم على ذلك الحمار ومعها يوسف ، حتى ورد أرض مصر فهسي الربوة التي قال الله فيها : * وأويناها الى ربوة ذات قرار ومعين * فمكثت مريم اثنتي عشر سنة تكتمه من الناس ، لا يطلع عليه أحد ، وكانت مريم لاتأمن عليه ولا على معيشته أحدا ، كانت تلتقط السنبيل من حيث ماسمت بالحصاد ، والمهد في منكبها والوطء الذي تحمل فيه السنبيل في منكبها الآخر ، حتى تم لعيسى اثنتا عشرة سنة فكانت أول آية رآها الناس منه أن أمه كانت نازلة في دار دهقان من أهل مصر ، فكان ذلك المرهقان قد سرقت له خزانة ، وكان لا يسكن في داره الا الساكنين فلم يتهمهم فحزنت مريم لمصيبة ذلك الدهقان ، فلما أن رأى عيسى حزن أمه

بمضيّة صاحب ضيافتها قال لها يا أمّه ، أتحيين أن أدله على
ماله ؟ قالت : نعم يا بني ، قال : قولي له يجمع لي مساكن داره ،
فقلت مريم للدهقان ذلك ، فجمع له مساكن داره ، فلما اجتمعوا عمد
الى رجلين منهم احدهما أعمى والاخر مقعد فحمل المقعد على
عائق الأعمى ثم قال له قم به ، قال الأعمى : أنا أضعف من ذلك ،
قال : قال عيسى عليه السلام ، فكيف قويت على ذلك البارحة ؟ فلما سمعوه
يقول ذلك بهمشوا الأعمى حتى قام به ، فلما استقل قائما حاملا هموى
المقعد الى كوة الخزانة ، قال عيسى هكذا احتالا بمالك البارحة ،
لأن الأعمى استعان بقوته والمقعد بمديه فقال المقعد والأعمى صدق ،
فرّدا على الدهقان وماله ذلك ، فوضعه الدهقان في خزانته ، وقال
يامريم خذى نصفه ، قالت : اني لم أخلق لذلك . قال الدهقان :
فأعطيه ابنك ، قالت هو أعظم نبي شأننا .

ثم لم يلبث الدهقان أن أعرس ابن له فصنع له عيدا ، فجمع
عليه أهل مصر كلهم وأظهر عيسى معجزات عدة في يومه هذا وعده وكان
ابن اثنتي عشرة سنة فلما فعل ذلك عيسى فزع الناس لشأنه وما أعطاه الله
من ذلك ، فأوحى الله عز وجل الى أمّه مريم ان اطلعي به الى الشام ،
ففعلت الذي أمرت به ، فلم تزل بالشام حتى كان ابن ثلاثين سنة فجاءه
الوحي على ثلاثين سنة وكانت نهوته ثلاث سنين - ثم رفعه الله اليه . (١)

(١) مختصر عن تاريخ الطبري : ج ١ ص ٥٩٦ - ٥٩٨ .

وقد ذكر الثعلبي : أن الوحي أتى الى يوسف وأمسره
أن يهرب بالصبي وأمه الى مصر ، وأوحى الله الى مريم أن الحقي بمصر ،
فان هيرودس أن غفر بابنك قتله (١)

صاحب كتاب الأنس الجليل :

قال : وسار معها أي يوسف النجار الى مصر وأقام هناك
اثني عشر عاما ثم عاد عيسى وأمه الى الشام ونزلا الناصرة وهما سميت
الناصرة حتى بلغ ثلاثين سنة (٢)

كتاب بدائع الزهو في وقائع الدهور :

رجح أن الرهوة في دمشق الشام ومحلها مشهور معلوم بها
الى الآن ، وتحته الأنهار والأشجار ، وهي ذات القرار المعين .
ثم ذكر عن الواقدي أنها هاجرت مع رجل من عماد بني اسرائيل
فدخلوا الى مصر ومروا بمدينة عين شمس التي بالمطرية ، فوجدوا هناك
بئرا ففسلت أم المسيح ملاية من ذلك البئر ورشت الماء حوله ، فنبئت
في موضعه الهيلسان ، وهو لا يوجد في ارض مصر الا في هذا الموضع فقط ،

(١) قصص الأنبياء للثعلبي : ص ٣٤٧ .

(٢) الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل - ابواليعن القاضي

وهذا هو سبب تعظيمهم للبهيلسان ، واستخدامهم له في ما التعمد . .
ثم ان عيسى خرج من مصر وتوجه الى البلاد الشامية (١)

ما ذكره النويرى في هذا الصدر :

ذكر قول الله تعالى : * وجعلنا ابن مريم وأمه آية وآييناهما
الى ربوة ذات قرار ومعين * ذكر آراء في الربوة منها ،

قال أبوزيد : هي مصر . . وقال بعض المفسرين : عيسى
قرية من قرى مصر سدمنت ، وسدمنت قرية من قرى القيم مصروفة مشهورة . .
وكان سبب خروج مريم الى مصر ما حكاه الكسائي وغيره ومن أهل السير
قالوا : رجع الملك حيرودس خبر عيسى فهم يقتل مريم وابنها ، فخاف
زكريا والمؤمنون عليهما من القتل وذلك بعد مولد عيسى بأيام قلائل ،
فقال زكريا لمريم : اني أخاف عليك وعلى ابنك من هذا الملك ، وأمر
يوسف النجار أن ينقلهما الى ارض مصر . . فسار يوسف الى ارض مصر
وهما معه ثم ذكر كرامات عدة منها : قصة صرفه الأسد عن ثور حبي
كان ليتامى فسمع الأسد كلامه ، ومنها صرفه اللصوص عن بيت أحد الصالحين
لسرقة ماله ولك هم على كنز في الأرض ، ومنها تيسيره الولادة على امرأة
أحد الدهاقين ، ومنها قصة اخبار أحد الصالحين بمن سرقه . . ومن

(١) بدائع الزهور في وقائع الدهور : ابي البركات الحنفي :

معجزاته انه أقام ميثا أمام الجمهور ، ومنها تغليبه المعلم الذي ذهبت
إليه به ليعلّمه وهناك كرامات أخرى يمكن الوقوف عليها بالتفصيل في
كتاب نهاية الأرب وفنون الأدب (١)

وفي كتاب أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ :

روى أن ملكا ظهر ليوسف فأخبره بما أراد هيرودس وأمره أن
يحملها إلى مصر فإذا مات الملك يرجعها إلى مكانها ، قال : فاحتل
يوسف مريم وابنها على حمّاره حتى ورد مصر فأقامت مريم بمصر اثنتي عشرة
سنة (٢) .

كتب أحد الباحثين في الآثار يقول :

عندئذ شاء الله أن يختار أرض مصر ، أرض السلام والنعيم ،
لكي ينتقل السيد المسيح إليها ، فتكون أرض مصر أول أرض تطوّهها
أقدام السيد المسيح خارج فلسطين ، واتجه الركب ، مريم وعيسى ويوسف
النجار إلى حدود مصر الشرقية في ذات الطريق الذي كانت تسلكه

(١) نهاية الأرب في فنون الأدب : للنويري : ج ٣ ص ٢٢٥/٢١٩

(٢) أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ للقرطبي : ص ٧٧، ٧٥
الفصل السادس والثلاثون .

قوافل التجارة من مصر واليهما ، وكانت أول مدينة مصرية بلفتها العائلة المقدسة على الأرض المصرية هي بلدة الفرما تقع بالقرب من القنطرة حاليا .

ثم ذكر المناطق التي تمت زيارة مريم لها ومعها المسيح عليهما السلام ، والتي يوجد بها بعض الآثار الدالة على ذلك ، وهي المناطق هي :

- ١ - منطقة وادى النطرون ويوجد بها (دير ابو مقار ، والانباشوى والسيدة العذراء .
- ٢ - منطقة عين شمس .
- ٣ - منطقة جيل الطير .
- ٣ - منطقة قوسقام (١)

التحقيب على هذه الروايات :

لا يمكن الجزم بصحة هذه الروايات كاملة ، كما أن نقضها ككل أمر لا يمكن تحقيقه ، ويلاحظ ان كثيرا من الكتاب تأثر بنا في الكتاب

- (١) المؤتمر الخامس للآثار في البلاد العربية ، القاهرة ١٩٦٩ م
صادر عن جامعة الدول العربية ، الامانة العامة ، الادارة الثقافية ، من ص ٧٤٤ الى ٧٠٨ .

العقدس حين أسند الأمر بالهجرة الى يوسف النجار ، وهذا ما ذكره
متى في الاصحاح الأول ، ولوقا كذلك وإن كان بينهما تضارب .

الا أن الذى يمكن القطع به : أن السيدة مريم قد أتت إلى
مصر للأسباب الآتية :

- ١ - ذكر كثير من كتاب التاريخ هذه الكرمات للسيدة مريم وولدها .
- ٢ - لم تذكر كتب التاريخ ما يكذب ذلك حسب جهدى في البحث .
- ٣ - التواتر مبدأ من مبادئ قبول الأحداث وقد تواترت الروايات
بذلك .
- ٤ - كما أن له وجه لدى علماء التفسير وهو رأى ابن زيد ، وعكرمة
وأحد رأيي ابن عباس .
- ٥ - في مدة الإقامة فيها خلاف ، والأرجح أنه عاد الى فلسطين ثانية
وهو في صباه عكس ما ذكره الطبرى (١) أنه أقام حتى الثلاثين
من عمره في مصر .
- ٦ - بعض الكرامات فيها مفالة وخاصة التي أوردتها الثعلبي ،
والنويرى ، ولعله تأثر بما نسخه الغيال عند المفكرين المسيحيين .
أو أنها رواية أحساد ، ولما كان علم الرواية لأصول له عند
المسيحيين فانهم كانوا يقبلون كل ما يسمعون ما دام قد ظهر على
يد فرد يدعي الايمان .

(١) الطبرى في تاريخه : ج ١ ص ٥٩٧ .

هذا ما أرحمه من عجز مريم إلى مصر عليها السلام .
والله أعلى وأعلم .

وفاة السيدة مريم عليها السلام :

أشرت فيما سبق الى هجرة السيدة مريم عليها السلام الى مصر واجماع المؤرخين بعد ذلك على عودتها الى فلسطين ، سواء أكانت مدة الإقامة ست سنوات أو اثنتا عشرة أو ثلاثين ، وكتب التاريخ كلها ، وأسفار المهد الجديد تشير الى ملازمة مريم عليها السلام لولدها في بلدة الجليل ولاد فلسطين التي رحل اليها المسيح .

وكما هي عادة القرآن في الامساك عن ذكر الذي لا ينفع ، فان آياته قد اكتفت بذكر العبرة من هذا الحدث دون أن تشير الى مكان وفاة مريم أو دفنها ، ولعلها سنة من سنن الله ايضا حتى يجد العلماء في البحث والتنقيب ايضا ، وقد ذكر القرطبي روايات ثلاث فسي وفاة مريم هي :

١ - قيل ان مريم عاشت بعد رفع المسيح عليه السلام ست سنوات ، وكان عمرها ثلاثا وخمسين سنة ، ثم ماتت ، ودفنت بالكنيسة المعروفة بالجسمانية وهو الموضع الذي يعرف بمهد عيسى عليه السلام (في فلسطين) .

٢ - قيل : أن مريم ماتت قبل أن يرفع عيسى عليه السلام ، وأن عيسى تولى دفنها بنفسه ، وذكر ذلك أبو الليث السمرقندي فسي تنبيه الخافلين .

٣ - قيل أن شمعون الصفا ويحيى - تلميذى عيسى - ومعهما مريم
أم المسيح انطلقوا الى انطاكيا يدعون فقتل شمعون واشتد
الطلب على يحيى ومريم فأنشقت الأرض فخابا فيها فلم
يصرهما . (١)

والذى أرجحه أن مريم عليها السلام لاقت ربهما ، كما لا قسى
سائر الأنبياء والصالحين ربهم ، ومكان وفاتها غير معروف شأنها في هذا
شأن سائر الأنبياء والصالحين الذين لا قوا ربهم ، ولم يبق لدينا عنهم
الا الذكرى الحسنة في روايات الصالحين . والله أعلم .

(١) أخبار الدول وآثار الأول : ص ٧٥ .

الحمد لله
سوي

الخاتمة

الدروس والخبر المستخلصة من قصة مريم رضي الله عنها :

- ١ - أن مريم عليها السلام قد اصطفاها الحق سبحانه كما اصطفتى كثيرا من خلقه ، وقد ورد الاصطفاء لها صراحة في القرآن الكريم .
- ٢ - أن هذا الاصطفاء دون النبوّة على الأرجح وأن مريم عليها السلام لم تكن نبيّة وهو رأي الجمهور وقد رددت على القرطبي وابن حزم فيما ذهبوا اليه من نبوتها .
- ٣ - أن هذا الاصطفاء له صورتان : الأولى : من حيث الأفضلية على النساء وهي في ذلك مخصوصة بنساء عالمها .
والثانية : في كونها تلك المسيح عليه السلام من غير أب وهي في ذلك مصطفاة على نساء العالمين أجمع .
- ٤ - النذر لله تعالى مقرر في الشرائع السابقة وقد أقره الاسلام عكس ما ذهب اليه البعض من تكرانه .
- ٥ - ان اختيار الكافل الصالح فرض عين حين الضرورة لأن طبائع السفهاء تعدى .
- ٦ - ان كرامات الأولياء حق وان الرزق الحسن لعريم عليها السلام انما كان اكراما لها ولم يكن ارهاصا لميسى عليه السلام ولا معجزة لذكرها عليه الصلاة والسلام كما ذهب اليه بعض العلماء ممن أشرت الى رأيهم وردت عليه .

- ٧ - لا يخشى من التباس الكرامة بالمعجزة ، فالفرق بينهما واضح ، كما أنها لا تلتبس بما يظهره البعض من سحر وشعوذة ، لأن الأول على يد الصالح والأخيرين على يد الطالح .
- ٨ - لا يلزم من خطاب الملائكة لبعض البشر أن يكونوا أنبياء فقد خوطبت سارة وخوطب آخرون ، ولم تثبت نبوة أحدهم .
- ٩ - أن مريم عليها السلام كانت وضرب المثل في الطهر وفي ذلك قول الملائكة الذي حكان القرآن الكريم : * إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ * لا يلزم من وصول الانسان مرتبة ما في الطاعة الوقوف عند هذا الحد ، فان الايمان درجات ، والشعور بالتقصير من النهوض بداية الكمال ، والشعور بالكمال مع التخلي بداية السقوط ، وقد أمرت مريم مع أنها علمت من صفاتها الطهر ، والاصطفاء بزيادة الطاعة وصدق الله في قوله : * ويزداد الذين آمنوا ايمانا * .
- ١٠ - أن اعتزال المجتمع الفاسد حين المعجز عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر جائز .
- ١١ - أن الستر فرض عين في حق الفتاة و درأ للفتنة ووقاية لها من الشبهة وعدا عن التهمة .

- ١٣ - أن الملائكة يجوز أن يتشبهوا بالبشر كما تشبه جبريل عليه السلام للسيدة مريم ، وكما ورد في صحيح البخاري وسلم مسن تشبه جبريل بصورة رحمة الكلبي وغيره من البشر .
- ١٤ - أن الاستعانة بالله واجبة وهي فرض على كل مسلم وأن الاستعانة سنة سواء أكانت لدفع سوء أو قبل بدء فعل الخير طلبا للمعونة .
- ١٥ - ليس كل شيء يخضع لمنطق العقل ، فله في الكون سنن لا يعلمها إلا الله ، إذا أريد العقل أن يخضعها لمنطقه عجز ، وإذا سلم فيها كان الخير المطلق .
- ١٦ - إن عيسى عليه السلام بشر شأنه شأن سائر البشر في حياتهم وله فضل الاصطفاء بالرسالة وميلاده دليل على قدرة الله تعالى لأنه خلق من غير أب .
- ١٧ - إن تسمية الأنبياء قد تكون بوحي من الله كما حدث لاسحاق ويعقوب ويحيى وعيسى عليهم جميعا السلام .
- ١٨ - إن قضية حلول الإله في بطن مريم وخروجها منها كما يخرج الولد إنما هي قضية فاسدة من أساسها وقد تأثر الفكر المسيحي بالثقافة اليونانية التي كانت ترى ذلك .
- ١٩ - أن تمنى الموت حين الشدة والمعجز جائز وفي الحديث :
(لا يتمنين أحدكم الموت لضر أصابه فإن كان ولا بد فاعل فليقل اللهم احيني ما كانت الحياة خيرا لي وتوفني ما كانت الوفاة خيرا لي) (١) وقد رأينا مريم عليها السلام دعت بقولها :
* يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا *

٢٠ - ان الفرج مـمع الشدة وأن مع العسر يسرا وأن الأمور

اذا ضاقت فذلك بشير الفرج * فاداعا من تحتها ألا تخزني
قد جعل ربك تحتك سرياً * وهزى إليك بجذع النخلة
تساقط عليك رطباً جنياً * فكلني وأشربي وقرى عيناً * (١)

٢١ - ان العمل فرض عين ، وأن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة ،

وليس الايمان بموجب ترك العمل بل ان الايمان يدفع الى
العمل النافع والدليل على ذلك أن مريم عليها السلام أمرت
ان تهز النخلة وماقوتها حين أمرت بهز النخلة ؟ ان تساقط
الرطب الجنى انما بقوة أكبر من قوتها ولكنها مباشرة الأسباب
التي أمرت بها ، وكذلك هاجرت عليها السلام مع شدة
ظروفها وسوء حالها وذلك أنها التمسّت الأسباب حتى كسان
الفرج .

٢٢ - ان الحمل بالمسيح عليه السلام كان كسائر الحمل ، والعطف

بالقاء لا يستلزم ما ذهب اليه البعض من أن الحمل والولادة كانا
في لحظة واحدة وقد بينت ذلك في موضعه .

٢٣ - ما ذهب اليه النصارى من قدم الكلمة وأن القرآن أشار الى ذلك ،

انما هو فهم خاطيء ، وان الكلمة هنا هي الأمر الالهي (كن)
والتي يكون منها الوجود .

٢٤ - ذهب بعض المفسرين - متأثرين بما في الانجيل - مذهباً يفتقد

الدليل وهو زعم سجود يحيى في بطن امه للمسيح في بطنه امه
كما أنه لا يترتب عليه ادنى فائدة وقد ادعى بعضهم جواز ذلك
في شرعهم وردت عليه فشي حينه .

- ٢٥ - ان اخوة مريم لهارون انما عي اخوة عمل وسلوك وقد أشار الحديث الى أنهم كانوا يتسمون بأسماء أنبيائهم .
- ٢٦ - ان نطق عيسى في المهد ثابت والايمان به واجب وما ذهب اليه بعض المسيحيين من انكارهم لنطق المسيح في المهد لا أساس له * كبرت كلمة تخرج من أفواههم أن يقولون الا كذبا *
- ٢٧ - ان هجرته مريم الى مصر ثابتة وواردة في المراجع الممتدة لدى رجال التاريخ وكون القرآن أشار اليها ضمناً أو أغفلها فلأن القرآن ليس كتاب تاريخ وانما هو كتاب هداية واعجاز .
- ٢٨ - أن بر الوالد بن واجب وهو في شرع من سبقنا كما هو في شرعنا وقد رأينا المسيح عليه السلام يتحدث من صفاته كما أمره ربه بقوله : * وارا بوالدتي ولم يجعلن جبارا شقيا *
- ٢٩ - يجب عدم المغالات في اي بني من الأنبياء كما غالى السابقون لدرجة كفرهم وقد ذلك بقولهم ان المسيح ابن الله وأن عزيز ابن الله * وقالت اليهود عزيز بن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون * وقد أوصانا رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله : (لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم)
- ٣٠ - ان ظاهرة حمل مريم بعيسى عليه السلام لن تتكرر لأنها لحكمة وجدت في زمن خاص والجمهور من علماء المسلمين على أن من بدأ حملها دون سند شرعي وجب عليها الحد ، ويؤيد ذلك قول عمر رضي الله عنه وأرضاه الرجم في كتاب الله حق على من زنا وأحصن أركان الحبل والاعتراف .

٣١ - أن من عرف الله في الرخاء عرفه الله في الشدة .

وقد رأينا مريم عليها السلام تتعبد منذ نعومة
أغفارها فكان العون الإلهي لها في كل ضائقة ابتداء من كفالة
زكريا عليه السلام لها إلى بشرى الملك وتوضيحه لها عن نفسه
ونطق جبريل أو عيسى عليها السلام بين يديها ، ونطق
المسيح عليه السلام مدافعا عنها حين اتهم قوسها لها بالفاحشة
وايواء الله لها إلى ربوة ذات قرار ومعين .

هذه هي أهم النتائج التي استنبطتها وقد تضمنت الرسالة

الكثير . . .

والحمد لله رب العالمين .

فهرست

بیرون

فهرس المراجع

* * * * *

كتب التفسير

أحكام القرآن .

*

— لأبي بكر أحمد بن علي الرازي الجصاص الحنفي المتوفى

سنة ٣٧٠ هـ .

دار الكتاب العربي ، بيروت - لبنان .

أحكام القرآن .

*

— لأبي بكر محمد بن عبد الله المعروف بابن العربي المتوفى

سنة ٥٤٣ هـ .

تحقيق : علي الهجاوي ، دار الفكر ، بيروت - لبنان ،

الطبعة الثالثة سنة ١٣٩٢ هـ .

السراج المنير على الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير .

*

— للإمام علي بن أحمد بن محمد العزيزي الشافعي المتوفى

سنة ١٠٧٠ هـ .

- * انوار التنزيل وأسرار التأويل ، المعروف بتفسير البضاوي
— للامام ناصر الدين بن سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي
البضاوي ، المتوفي سنة ٦٩١ هـ .
دار الكتب العربية بمصر سنة ١٣٥٥ هـ .

- * تفسير القرآن العظيم .
— للمحافظ عماد الدين ابي الفداء اسماعيل بن كثير القرشي
الدمشقي . المتوفي سنة ٧٧٤ هـ .
مطبعة الدعوة الاسلامية ١٩٨٠ م

- * تفسير ابي السعود المسمى ارشاد العقل السليم الى مزايا
القرآن الكريم .
— للامام ابي السعود محمد بن محمد العماري المتوفي سنة ٨٩٣ هـ
طبعة دار المصنف بمصر .

- * تفسير روح البيان .
— للامام اسماعيل حقي البروسوي ، المتوفي سنة ١٣٣٧ هـ
دار الفكر .

- * تفسير البحر المحيط .
— للامام محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي الفرناطي ،
المتوفي سنة ٧٥٤ هـ .
الطبعة الثانية - دار الفكر ، بيروت - لبنان .

- * تفسير الخازن المسمى لباب التأويل في معاني التنزيل .
— للامام علاء الدين علي بن ابراهيم البغدادي الصوفي المعروف
بالخازن ، المتوفي سنة ٧٢٥ هـ .
الطبعة الثانية - مصطفى الحلبي .
- * التفسير الكبير .
— للامام فخر الدين الرازي أبو عبد الله محمد بن عزيز حسيني
القرشي الطبرستاني المتوفي سنة ٦٠٦ هـ .
الطبعة الثانية - دار الكتب العلمية طهران .
- * تفسير المراغي .
— للامام مصطفى محمد المراغي .
استاذ الشريعة الاسلامية واللغة العربية بكلية دار العلم سابقا .
المتوفي سنة ١٣٦٤ هـ .
مطبعة مصطفى الحلبي .
- * تفسير القاسمي المسمى محاسن التأويل .
— للامام محمد جمال الدين القاسمي . المتوفي سنة ١٣٣٢ هـ =
وقف على طبعه وتصحيحه وترقيمه وتخريج آياته وأحاديثه وعلق
عليه خادما الكتاب والسنة محمد فؤاد عبد الباقي .
دار احياء الكتب العربية ، عيسى البابي الحلبي وشركاه ،
الطبعة الأولى سنة ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧ م .

- * تفسير النسفي .
— للامام ابي البركات عبد الله بن احمد بن محمود النسفي ،
المتوفي سنة ٧١٠ هـ .
المطبعة الاميرية ببولاق .
- * تيسير التفسير للقرآن الكريم .
— للامام محمد بن يوسف اطفيش .
طبعة وزارة الثقافة بمصر .
- * تفسير النار .
— للسيد محمد رشيد رضا المتوفي سنة ١٣٥٤ هـ .
الهيئة المصرية للكتاب - طبعة دار النار .
- * تفسير الفريد للقرآن المجيد .
— لمحمد عبد المنعم الجمال .
دار الكتاب الجديد .
- * تفسير سورة مريم .
— لمحمد محمود حجازي .
جامعة الأزهر .

- * جامع البيان في تفسير القرآن .
— للامام أبي جعفر محمد بن جرير الطبري المتوفي سنة ٣٢٠ هـ
مطبعة دار المعارف . الطبعة الثانية .
- * الجامع لأحكام القرآن .
— للامام أبي عبد الله محمد بن أحمد الانصاري القرطبي ،
المتوفي سنة ٦٧١ هـ .
الطبعة الثالثة - دار الكتاب العربي ١٩٦٧ م .
- * الدر المنثور في التفسير بالمأثور .
— للامام الحافظ جلال الدين السيوطي المتوفي سنة ٩١١ هـ .
المطبعة الاسلامية طهران .
- * زاد المسير في علم التفسير .
— للامام المحقق أبي الفرج عبد الرحمن علي القرشي البغدادى
الهيرى المعروف بابن الجوزى . المتوفي سنة ٥٩٧ هـ .
المكتب الاسلامي .
- * روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني .
— للامام أبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادى ،
المتوفي سنة ١٢٧٠ هـ .
بيروت - لبنان .

- * صفوة البيان .
— للاستاذ الشيخ حسنين محمد مخلوف .
دار الكتاب العربي - مصر .
- * غرائب القرآن وغرائب الفرقان .
— للامام نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري .
المتوفي سنة ٧٢٨ هـ .
مطبعة مصطفى الحلبي .
- * فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية في علم التفسير .
— للامام محمد بن علي الشوكاني . المتوفي سنة ١٢٥٠ هـ .
دار الفكر ، بيروت - لبنان .
- * فتح البيان في مقاصد القرآن .
— للامام صديق حسن خان . المتوفي سنة ١٣٠٧ هـ .
مطبعة الامام .
- * الفتوحات الالهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية .
— للامام سليمان بن عمر المجيلي الشافعي الشهير بالجمل ،
المتوفي سنة ٢٠٤ هـ .
مطبعة عيسى الحلبي .

- * في ظلال القرآن .
— للإمام سيد قطب .
الطبعة الثامنة سنة ١٣٩٩ هـ . دار الشروق ، بيروت -
لبنان .
- * الكشف عن حقائق التنزيل وبيان الآقاويل في وجوه التأويل .
— للإمام أبي القاسم جار الله محمود الزمخشري المتوفي سنة ٥٣٨ هـ
طبعة مصطفى الحلبي .
- * معالم التنزيل .
— للإمام أبي محمد الحسين بن مسعود البغوي المتوفي سنة ٥١٦ هـ .
طبعة مصطفى الحلبي .
- * موجز منتخب تفسير القرآن .
— للإمام يحيى أحمد الدرديري .
المطبعة السلفية : ١٣٧٤ هـ - ١٩٥٤ م .
- * نظم الدرر في تناسب الآيات والسور .
— للإمام البقاعي ، المتوفي سنة ٨٨٥ هـ .
طبعة الحلبي - دائرة المعارف العشانية .

كتب الحديث وشروحه

- * الجامع الصحيح .
- للإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري
طبعة عيسى الحلبي .
- * سنن الترمذی .
- للإمام الحافظ أبي عيسى محمد بن عيسى بن ميمونة الترمذی .
المتوفي سنة ٢٧٩ هـ .
طبعة مصطفى الحلبي .
- * سنن أبي داود .
- للإمام الحافظ المصنف المتقن أبي داود سليمان بن الأشعث
السجستاني الأزدي .
مراجعة : محمد محي الدين عبد الحميد .
دار المعرفة - بيروت - لبنان .
- * سنن النسائي بشرح الحافظ جلال الدين السيوطي وحاشية الامام
السندی .
- للإمام الحافظ أبو عبد الرحمن احمد بن شعيب النسائي .
المتوفي سنة ٣٠٣ .
الطبعة الأولى

- * صحيح البخارى .
— للامام ابي عبد الله محمد بن اسماعيل بن ابراهيم بن المغيرة
ابن برد زيه البخارى الجعفي .
طبعة دار الشعب بمصر .
- * صحيح مسلم بشرح النووي .
— للامام النووي محيى الدين أبوزكريا يحيى بن شرف بن مري
الحزامي الحواري الشافعي : سنة ٦٣١ - ٦٧٦ هـ .
المطبعة المصرية ومكتبتها .
- * فتح البارى شرح صحيح البخارى .
— للامام الحافظ شهاب الدين ابن حجر العسقلاني :
سنة ٧٧٣ هـ - ٨٥٢ هـ .
المطبعة السلفية .
- * فتح البين شرح الأريمين .
— للامام الحافظ شهاب الدين ابن حجر العسقلاني :
سنة ٧٧٣ هـ - ٨٥٢ هـ .
المطبعة السلفية .

* كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال .

— للعلامة علاء الدين بن حسام الدين الشهير بالمتقي بن حسام
الدين الهندي .

مكتبة التراث الاسلامي - حلب .

* كشف الخفا ومزيل الالباس عما أشتهر من الأحاديث على السنة
الناس .

— للمفسر المحدث الشيخ اسماعيل بن محمد العجلوني الجراحي
المتوفي سنة ١١٦٢ هـ

الطبعة الثالثة ١٣٥١ هـ ، دار احياء التراث العربي -
بيروت .

* مجمع الزوائد ومنبع الفوائد .

— للحافظ نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي المتوفي سنة ٨٠٧ هـ .
بتحرير الحافظين الجليلين العراقي ، وابن حجر .

دار الكتاب . بيروت - لبنان - الطبعة الثانية ١٩٦٧ م

كتب أخرى

- * الانس الخليل بتاريخ القدس والخليل .
- لقاضي القضاة أبو العين القاضي جبر الدين الحنفي .
- * الاصابة في تمييز الصحابة .
- لشهاب الدين أبي الفضل احمد بن علي بن حجر المسقلاني
- المتوفي سنة ٨٥٢ هـ .
- مكتبة المتنبي ببغداد .
- * أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ .
-
- * بين الاسلام والمسيحية .
- لأبي عبيدة الخزرجي المتوفي سنة ٥٨٢ هـ .
- حققه الدكتور : محمد شامه .
- مكتبة وهبه - القاهرة .
- * بدائع الزهور في وقائع الدهور .
- لأبي البركات محمد بن احمد بن اياس الحنفي المتوفي سنة ٩٣٠ هـ
- الطبعة الرابعة ١٣٧٤ هـ - ١٩٥٤ م ، مطبعة مصطفى البابي
- الحلي وأولاده بمصر .

- * البداية والنهاية .
— لعماد الدين ابي الفداء اسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي .
المتوفي سنة ٧٧٤ هـ .
- * البدء والتاريخ .
— لمظهر بن طاهر المقدسي .
طبعة مكتبة المثنى ببغداد سنة ١٩٠٣ م .
- * تاريخ الطبري ، تاريخ الرسل والملوك .
— لابن جعفر محمد بن جرير الطبري المتوفي سنة ٣٢٠ هـ .
تحقيق : ابو الفضل ابراهيم .
الطبعة الثانية ، دار المعارف بمصر .
- * الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح .
— لشيخ الاسلام احمد بن تيميه -
طبعة المدني .
- * الحجة في القراءات السبع .
— للامام ابن خالويه .
تحقيق وشرح الدكتور : عبد المال سالم مكرم .
الطبعة الاولى . (مطبعة دار الشروق) .

- * حاشية البيجورى على جوهرة التوحيد .
— للعلامة الشيخ ابراهيم البيجورى .
- * حاشية الكلبى على شرح جلال الدين الدوانى الصديقي .
— للامام الشيخ اسماعيل الكلبى المتوفى سنة ١٢٠٥ هـ
- * حاشية المرجاني على شرح جلال الدين الدوانى الصديقي .
— للامام الشيخ المرجاني .
- * ديوان المتنبي بشرح المكبرى .
— لأبي الطيب المتنبي .
- تحقيق : مصطفى السقا - ابراهيم الابيارى - عبد الحفيظ شلبي
- * السيرة النبوية .
— للامام ابي محمد عبد الملك بن هشام المتوفى سنة ٢١٣ هـ .
- الطبعة الثانية ١٣٢٥ هـ - ١٩٥٥ م .
تحقيق : السقا ، الابيارى - ، الشلبي .
مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده .

شرح العقيدة الطحاوية .

لابي جعفر احمد بن محمد بن سلامة بن سلمه بن عبد الملك بن

سلمه بن سليم بن سليمان بن جواب الأزدي الطحاري ،

سنة ٢٣٩ - ٣٢١ هـ .

حققها وراجعها جماعة من العلماء .

خرج احاديثها : محمد ناصر الدين الألباني .

المطبعة الاولى ١٣٩٢ هـ .

المكتب الاسلامي ، دمشق - بيروت .

العهد القديم والجديد . " الكتاب المقدس " *

" انجيل متى - مرقس - لوقا - يوحنا " -

المقائد الشعبية . *

للإمام أبي حفص عمر بن محمد النسفي .

شرح العلامة مسعود بن عمر سعد الدين التفتازاني المتوفي

سنة ٧٩٣ هـ .

مطبعة المثنى .

- * الفصل في الطل والأهواء والنحل :
— للامام ابي محمد علي بن أحمد ابن حزم الظاهرة .
* مهاشيه الطل والنحل .
— للامام ابن الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني .
الطبعة الثانية - دار المعرفة - بيروت - لبنان .
- * قصص الأنبياء المسمى عرائس المجالس .
— لأبي اسحاق احمد بن محمد بن ابراهيم النيسابوري ، المعروف
بالثعلبي - المتوفي سنة ٤٢٧ هـ ،
دار احياء الكتب العربية .
- * قاموس الكتاب المقدس .
— تأليف نخبة من ذوي الاختصاص واللاعوتين .
صدر عن مجمع الكنائس في الشرق الأدنى .
الطبعة الثانية .
- * الكشف عن وجوه القراءات السبع .
— للامام العلامة ابي محمد مكي بن ابي طالب القيسي ،
المتوفي سنة ٤٣٧ هـ .
- * الكنز الجليل في تفسير الانجيل .

- *
— الكامل في التاريخ .
— للإمام أبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن —
عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الأثير
الخرزجي الملقب بمز الدين ، توفي سنة ٦٣٠ هـ .
عنى بمراجعة أصوله والتعليق عليه نخبة من العلماء .
دار الكتاب العربي - بيروت - لبنان .
- *
— لسان العرب .
— للإمام أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور .
دار صادر - دار بيروت للطباعة والنشر ١٣٨٨ هـ .
- *
— المؤتمر الخامس للأثافي البلاد العربية .
— عن جامعة الدول العربية - الامانة العامة والادارة والثقافة .
القاهرة ١٩ - ٢٤ ابريل " نيسان " ١٩٦٩ م .
- *
— مقارنة الاديان (المسيحية) .
— للدكتور احمد شلبي .
الطبعة السادسة ١٩٧٨ م ، مكتبة النهضة المصرية .

- * محاضرات في النصرانية .
— للإمام محمد ابو زهرة .
دار الفكر العربي . الطبعة الخامسة ١٩٧٧ م .
- * نهاية الأرب في فنون الأدب .
— للإمام شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب النويري .
المتوفي سنة ٧٣٣ هـ .
وزارة الثقافة والارشاد القومي - المؤسسة المصرية .
- * النشر الطيب على شرح الشيخ الطيب
— للشيخ ادريس بن احمد الوزاني
الطبعة الأولى - دار الكتب الحديثة .
- * النبوة والأنبياء .
— للشيخ محمد علي الصابوني . استاذ بكلية الشريعة والدراسات
الاسلامية - مكة المكرمة .
- * الوحي المهدى .
— للشيخ السيد محمد رشيد رضا .
الطبعة الخامسة . اصدرتها دار المنار سنة ١٣٧٥ هـ - ١٩٥٥ م .

فرمانی است که

فهرس الموضوعات

=====

الموضوع	الصفحة
المقدمة	١ - م
الآيات التي تتحدث عن مريم عليها السلام	
الباب الأول :	ولادة مريم ونشأتها وفضلها ... ١
الفصل الأول :	مريم من أصل طيب كريم ٢ - ١٦
الفصل الثاني :	ولادة مريم وتقبل الله لها نذيره
يقبول حسن	 ١٧ - ٢٢
استجابة الحق سبحانه لدعوة	
امراة عمران	 ٢٣ - ٣٥
الخلاف بين العلماء في المس	
حقيقة أم تخييل	 ٣٦ - ٤٢
الفصل الثالث :	الاختصام في كفالة مريم وجعلها الله
لذكريا عليه السلام	 ٤٣ - ٥٠
الفصل الرابع :	اكرام الله لمريم برزق من عنده وهي
في المحراب وأثر ذلك في طلب زكريا	
عليه السلام من الله ذرية طيبة	... ٥١ - ٥٤

الصفحة

الموضوع

آراء العلماء في الكرامة والمراد منها ... ٥٥ - ٦٤

الأدلة على كرامات الأُولياء ٦٥ - ٧٤

أثر مشاهدته زكريا عليه السلام للرزق الحسن

في طلبه الولد من الله تعالى ٧٥ - ٨٠

الفصل الخامس : فضل مريم من واقع الآيات والأحاديث .. ٨١ - ٨٣

فضل مريم من واقع القرآن الكريم ٨٤ - ١٠٣

فضل مريم من واقع السنة المطهرة ١٠٤ - ١٠٩

زواج الرسول صلى الله عليه وسلم بـمريم قسي

الجنة والرأى فيه ١١٠ - ١١٣

الفصل السادس : القول بنهية مريم ومناقشته ١١٤ - ١١٨

آراء بعض العلماء في نبوة مريم عليها السلام

والرد عليهم ١١٩ - ١٤٦

الباب الثاني :

مريم وأبنها آية للعالمين : ١٤٧

الفصل الأول : مريم تبشرها الملائكة بعيسى عليه السلام

وتوضح لها صفات العشر به ١٤٨ - ١٥٨

موقفها من جبريل عليه السلام ١٥٩ - ١٦٩

صفات العشر به : ١٧٠ - ١٧٢

الصفة الأولى : (أنه كلمة الله) ١٧٣ - ١٨٨

الموضوع	الصفحة
الصفة الثانية : (تحديد اسمه)	١٨٩ - ١٩٣
الصفة الثالثة : (أنه وجيها في الدنيا والآخرة)	١٩٤
الصفة الرابعة : (أنه من المقربين)	١٩٥
الصفة الخامسة : (أنه يكلم الناس في المهد وكهلا)	١٩٦ - ١٩٧
الصفة السادسة : (أنه سيكون من الصالحين)	١٩٨
الصفة السابعة : (أنه سوف يعلم الكتاب	
والحكمة والتوراة والانجيل)	١٩٩ - ٢٠٠
الصفة الثامنة : (أنه رسول إلى بني اسرائيل)	٢٠١ - ٢٠٨
الفصل الثاني : النفخ في مريم من روح الله وحملها بعيسى	
وولادتها	٢٠٩ - ٢١٢
الحمل بعيسى عليه السلام	٢١٣ - ٢٢١
تأثير بعض المفسرين بما ورد في الانجيل	٢٢٢ - ٢٢٥
الفصل الثالث : اتهام مريم بالفاحشة ونطق عيسى في المهد	
ببراءتها	٢٢٦
ولادة المسيح وما صاحبها من كرامات	٢٢٧ - ٢٣٤
النداء لمريم من تحتها	٢٣٥ - ٢٤٩
موقف قومها منها بعد العودة	٢٥٠ - ٢٥٨
نطق عيسى ببراءة أمه	٢٥٩ - ٢٧٧
قصيدة في مدح طهارة مريم عليها السلام	٢٧٨ - ٢٧٩

<u>الموضوع</u>	<u>الصفحة</u>
الرد على اليهود والنصارى وإبطال زعمهم	٢٨٠ - ٢٩٠
الفصل الرابع : هجرة السيدة مريم عليها السلام	٢٩١ - ٣٠٤
وفاة السيدة مريم عليها السلام	٣٠٥ - ٣٠٦
الخاتمة	٣٠٧ - ٣١٣
فهرس المراجع	٣١٣ - ٣٣١
فهرس الموضوعات	٣٣٢ - ٣٣٦

ترجمہ

مجلد اول